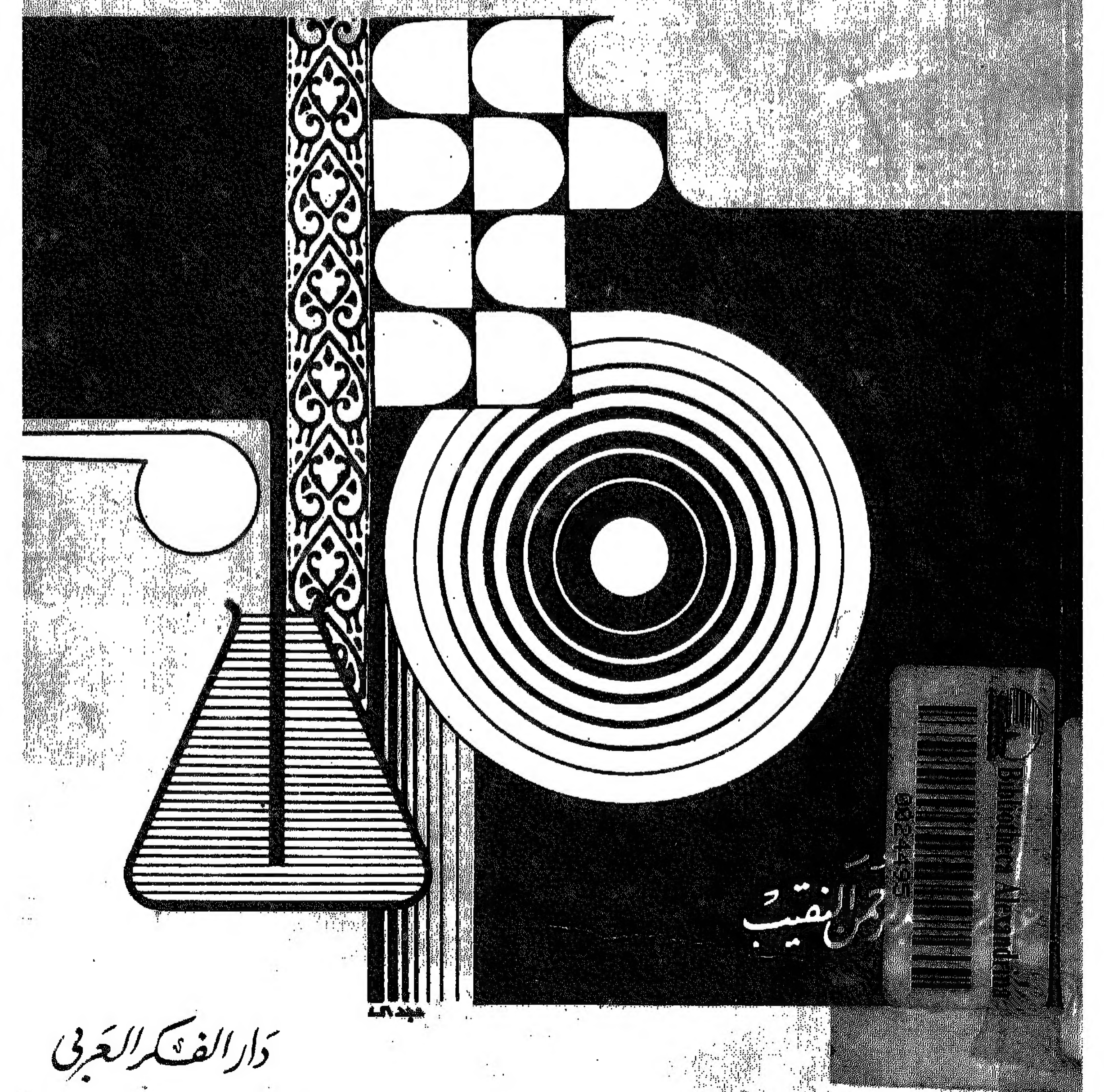
سلسلة من آفاق البحث في التربية الإسلامية •
الكتاب الرابع

الإعداد التربوي والمهني للطبيب عند المسلمين



حمن النقيب

دار الفكر العربي


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

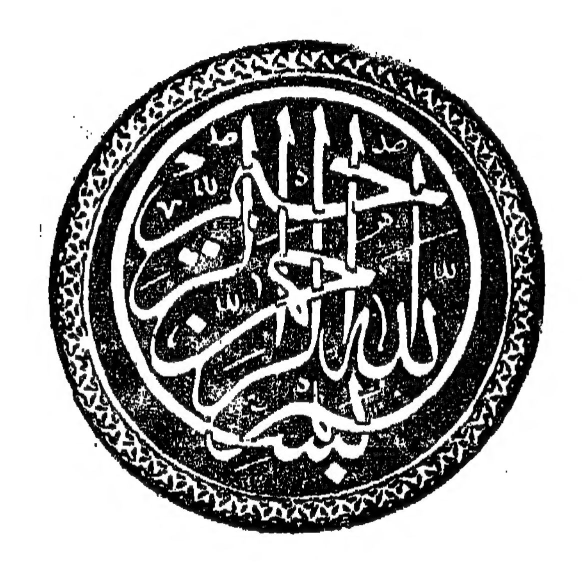
سلسلة من آفاق البحث في التربية الإسلامية
الكتاب الرابع

الإعداد التربوي والمهني للطبيب عند المسلمين

دكتور
عبد الرحمن عبد الرحمن النقيب
كلية التربية - جامعة المنصورة

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي
١١ شارع جواد حسني / القاهرة
ص ب ١٣٠١ - ت ٧٦٠٥٢٣




بسم الله الرحمن الرحيم



مقـــــدمة البحـــــث

يدخل اهتمام الباحث بموضوع تلك الدراسة ضمن اهتمامه العـــام بدراسة تاريخ التربية عند المسلمين — وهو اهتمام قديم يرجع الى سنوات دراسته لدبلومات التربية ، ثم يمتد الى مرحلة الماجستير التى كانت حـــول « الآراء التربوية فى كتابات ابن سينا » * . فالى مرحلة الدكتـــوراه عن « الاصلاح التعليمى للأزهر فى الفترة من عام ١٨٧٢ م — ١٩٧٢ م » ** . ولقد تضاعف اهتمام الباحث بهذا الاتجاه فى الفترة الاخيرة كرد فعل لهذا التجاهل الطويل لدراسة تراثنا التربوى والنفسى والذى وصل أحيانا الى درجة الازدراء والتحقير وعدم الاعتراف . ورغم ايمان الباحث المطلق أن الفكر التربوى والنفسى المعـــــاصر قد حقق تقـــــدما هائلا مما يحتم على الدارسين أن يواكبوا هذا الفكر المعاصر ويدرسوه بعمق ، الا أن معرفة الباحث الأوليـــة بتراثنا التربوى والنفسى قد أكدت له الكثير من الجوانب المشرقة التى تستحق الدراسة والتأمل . وعلى ســـبيل المثال فان سريان روح الخير العام فى النظام التربوى الاسلامى ما زال معلما هاما من معالم هذا النظام تحاول البشرية بنظمها التربوية المختلفـــــة أن تتلمس الطريق اليه فلا تكاد تصله الا قليلا . ولا شك أننا كلما ازددنا اطلاعا على هـــذا التراث ودراسة لأعلامه وأفكاره ومنجزاته التربوية والحضارية كلما ازداد تقديرنا لهذا الجهد ، ومعرفة بالطرق التى سلكها سلفنا فى تدرجهم الى اكتشاف حقائق الأشياء وارساء قواعد الترقى العلمى والتربوى . ولسنا نرى أن مثل هذه الدراسات خوض فى فضول وتماد فى « علم لا ينفـــــع

---

* الباحث : **الآراء التربوية فى كتابات ابن سينا** ، رسالة ماجســـتير ، كلية التربية جامعة عين شمس ، ١٩٦٩ .

** The Educational Reform of AlAZhar, 1872 — 1972, Ph, D. Thesis Exeter University, 1980.

وجهل لا يضر » بل نعتقد أنها سبيلنا الوحيد لتأصيل فكرنا التربوى والنفسى ، وتحديد هويتنا الثقافية والحضارية التى ما زالت تسبح فى غيوم الضياع حتى اليوم .

ودراستنا الحالية عن الاعداد التربوى والمهنى للطبيب عند المسلمين تقتصر على اعداد الطبيب البشرى Medical Doctor ولا تتعرض للعلاج النفسى أو « الطب الروحى » كما سماه العلماء المسلمون * . كذلك فان دراستنا الحالية تركز على الاعداد التربوى المهنى لهذا الطبيب دون أن تناقش منجزات الطب الاسلامى ، او اسهامات الأطباء المسلمين فى تطور الطب العالمى ** اذ أن مثل هذه الدراسات تحتاج الى اخصائيين

---

* هناك دراسات تراثية يمكن الرجوع اليها فى هذا الموضوع مثل : **الطب الروحانى** : للامام الشيرازى ، مطبعة المفيد ، القاهرة ١٣٩٩ هـ ، **رسالة فى مداواة النفوس وتهذيب الأخلاق والزهد فى الرذائل** : لابن حزم ، مطبعة النيل ، القاهرة ، ١٣٢٣ هـ ، **الطب الروحانى** : للحافظ بن الجوزى، مكتبة القدس ، القاهرة ١٩٨١ ، **الجواب الكافى لمن سأل عن الدواء الشافى** ، **المسمى الداء والدواء** ، لابن قيم الجوزية ، مكتبة الرياض الحديثة ، الرياض ، ١٩٧٢ ، **واحياء علوم الدين للغزالى** ، دار احياء الكتب العربية ، القاهرة ، (بدون تاريخ) .. وغيرها .

** هناك دراسات عدة ظهرت فى هذا الميدان مثل :

بول غليونجى : **ابن النفيس** ، أعلام العرب ٥٧ ، الدار المصرية للتاليف والترجمة ، القاهرة ، (بدون تاريخ) ، محمود الحاج قاسم محمد : **الموجز لما اضافه العرب فى الطب والعلوم المتعلقة به** ، مطبعة الارشاد ، بغداد ، ١٩٧٤ ، مرسى محمد عرب : **لمحات من التراث الطبى العربى** ، منشأة المعارف ، الاسكندرية ١٩٧٥ ، أحمد حسنين القرنى : **قصة الطب عند العرب** ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة (بدون تاريخ) ... الخ ، والى جانب هذه الجهود الفردية هناك جهود جماعية ومؤتمرات عقدت لهذا الغرض مثل :

ابحاث واعمال المؤتمر العالمى الأول ، والثانى ، عن الطب الاسلامى =

فى الطب النفسى وفى علم النفس ، وفى الطب البشرى ، كما أنها تخرج عن حدود مجـــال البحث والباحث . ان اهتمام الدراســـة الحالية هو ابراز الجانب التربوى والمهنى من اعداد الطبيب عند المســـلمين : كيف تربى هذا الطبيب ؟ وكيف أعد مهنيـــا ؟ وكيف تم انتقاؤه ؟ وما هى حقــوقه وواجباته ؟ مع تقييم هذا الأســـلوب فى الاعداد ، وابراز بعض الدروس المستفادة من تلك التجربة التربوية الاسلامية فى ميدان التعليم والتمهين الطبيين .

ولقد قسم الباحث دراســـته الى اربعة فصول : **الفصل الأول :** بعنوان « دور الاسلام وتعاليمه فى ازدهار الطب الاسلامى » . وفى هذا الفصل عالج الباحث كيف كانت تعاليم الاسلام هى الدافع القوى لاقبـــال المسلمين على العلم والتعليم ومنها التعليم الطبى . فقد حثت تلك التعاليم على طلب العلم والمحافظة على صحة الانسان وطلب الدواء لكل داء . ولقد وضح الباحث اثر هذه التعاليم منذ عهد الرسول والخلفاء الراشدين، وفند تاريخيا دعوى أن عصر الرســـول والخلفاء الراشدين وصدر الدولة الأموية لم يختلف عن عصر الجاهلية فيما يتعلق بالعلم والتعليم ، لأنه كان زمان الفتن الأهلية والحروب الداخلية وفتوح البلدان والجهـــاد لنشر الاسلام ، وبين كيف أن تعاليم الاسلام منذ البداية كانت دافع المســـلمين الأكبر للاقبال على العلم ومنه « التعليم الطبى » .

الفصل الثانى : بعنوان : الاعداد التربوى للطبيب عند المسلمين ،

= سلسلة مطبوعات منظمة الطب الاســـلامى ، مؤسســة الكويت للتقدم العلمى ، الكويت ، ١٩٨١ ، ١٩٨٢ ، **مهرجان اســـبوع العلم الثامن :** المجلس الأعلى للعلوم ، الجمهورية العربية السورية ، دمشق ١٩٦٧ ، **المؤتمر العلمى العـــربى الخامس ، ٥ مارس ١٩٦٦ :** الاتحـــاد العلمى العربى ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٦٦ . ولا شك أن هذا المجال يحتاج الى مزيد من الجهود الجماعية ولفترة طويلة حتى يمكن خدمة هذا الميدان .

المرحلة الأولى (التعليم الابتدائى) . وفى هذا الفصل عالجت الدراسة المرحلة الأولى من تعليم الطبيب وهى المرحلة الابتدائية Primary Education وناقشت أهداف تلك المرحلة ، ومناهجها ، وطرق التدريس المتبعة فيها ، مع تقييم تلك المرحلة من حيث المزايا والعيوب ، وكيف أثر هذا التعليم الابتدائى على شخصية الطبيب فيما بعد .

الفصل الثالث : بعنوان « الاعداد التربوى والمهنى للطبيب ، المرحلة الثانية المتخصصة Further Education . وقد فضل الباحث اطلاق هذا المصطلح على تلك المرحلة لأنه لا يوجد مقابل معاصر لها ، اذ تشمل التعليم الثانوي والجامعى وما بعده . ولقد تناول الباحث فى هذا الفصل الدوافع المادية والمعنوية التى دفعت المسلمين الى الاهتمام « بالتعليم الطبى » ، وكيف اتجه هذا التعليم الى التخصص العميق الواسع وليس مجرد التخصص الضيق ، ثم تناول مؤسسات التعليم الطبى المختلفة ومناهج التعليم النظرى وطرق الاعداد التربوى والمهنى وعدد سنوات التعليم الطبى ، ونظام الامتحانات المتبع ، ووضع أساتذة الطب المشتغلين بتدريسه ، وحظ المرأة المسلمة من هذا التعليم .

الفصل الرابع : بعنوان « صفات الطبيب وحقوقه وواجباته » وفيها عرض الباحث لأهم الصفات الحسية والطبيعية والعقلية والأخلاقية التى راعاها المسلمون فى اختيار الطبيب ، وكذا أهم الحقوق التى تمتع بها ، والواجبات والمسئوليات التى كلف بها .

ولقد راعى الباحث خلال معالجته لهذه الفصول الأربعة أن يرجع الى كتب التراث ، وأن يناقش آراء الباحثين المحدثين فى تلك الموضوعات المثارة . ثم جاءت خاتمة الدراسة ، والتى تحتوى على بعض الدروس المستفادة من تلك التجربة الاسلامية فى ميدان التعليم الطبى . ولقد رأى الباحث أن يضم الى الدراسة بعض « الملاحق » التى رأى أهمية ضمها ، وان كان قد اقتصر على أربعة منها ، مراعاة لحجم البحث وظروف الدراسة .

واخيرا فان الباحث يشعر أن تلك الدراسة ما هى الا نقطة بداية ، وانها اذا كانت قد ألقت بعض الضوء على قليل من الجوانب فقد أثارت فى نفس الوقت العديد من علامات الاستفهام حول الكثير من الموضوعات التى تستحق الدراسة . وعلى سبيل المثال لا الحصر فان قضية التعليم فى عصر الرسول والخلفاء الراشدين ، وقضية تعليم المرأة ، وقضية الاتجاهات التربوية المختلفة فى العصر الاسلامى وقضية المحتوى الدراسى، وقضية الطب الروحى أو النفسى ، وقضية التراث الطبى الاسلامى ، وقضية أسلمة التعليم الطبى وتعريبه ... الخ .. كلها قضايا كانت تطل برأسها وتفرض نفسها على الدراسة ، مما يشعر الباحث بأهمية التصدى لها فى المستقبل .

كلمة اخيرة ينبغى أن يذكرها الباحث هنا وهى أن يشكر مؤسسة الكويت للتقدم العلمى ، ومنظمة الطب الاسلامى بالكويت لتقديمهما منحة له لدراسة هذا الموضوع . لقد كان لهذه المنحة المتواضعة وما ارتبط بها من متابعة علمية مستمرة فضل الاسراع فى بروز هذا البحث الى الوجود كما هو عليه الحال ، والا فلربما ظل فكرة كغيره من الأفكار الكثيرة لدى الباحث ، أو لربما تأخر على الأقل عن الظهور فترة قد تطول أو قد تقصر .

هذا وبالله وحده التوفيق .

دكتور

عبد الرحمن عبد الرحمن النقيب



الفصـــل الأول

دور الاســـلام وتعاليمـــه في ازدهار الطب الاســـلامى

دور الاسلام وتعاليمه فى ازدهار الطب الاسلامى

تتبنى الدراسة الحالية وجهة النظر التى تذهب الى أن ازدهار الطب الاسلامى لا يمكن فهمه الا على ضوء توضيح أمرين هما : موقف الاسلام من العلم والتعليم بصفة عامة ، وكيف أن الاسلام قد دفع المسلمين الى طلب العلم وحثهم عليه ، وموقف الاسلام من « التعليم الصحى » بصفة خاصة وكيف وجه الاسلام نظر اتباعه الى كثير من التعاليم الصحية وايقظ لديهم الوعى الصحى والشعور باهمية « الصحة » ، وهذا ما سيحاول هذا الفصل التمهيدى أن يوضحه بصورة سريعة موجزة .

اولا : موقف الاسلام وتعاليمه من العلم والتعليم بصفة عامة :

تكاد اكثر الدراسات التى تناولت الحياة العلمية والتعليمية عند المسلمين ان تجمع على اتخاذ قيام دار الحكمة فى بغداد عام ٢١٧ هـ/٨٣٢ م بداية لانطلاق النهضة العلمية والتعليمية عند المسلمين . وسواء كانت تلك الدراسات دراسات أجنبية أو دراسات عربية فانها ترى أن المرحلة السابقة لهذا التاريخ ، وبالذات مرحلة الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين ، انما كانت مرحلة انشغال بالجهاد الاسلامى والانكفاء على النص القرآنى وما اتصل به من علوم الدين . يقول بوتنى : « أنه يبدو من الصعب ان لم يكن محالا ان نجد أى معلومات تتصل بالتعليم فى العصور الاسلامية الأولى ، اذ من الواضح أن اتباع محمد كانوا أكثر انشغالا بالجهاد فى سبيل نشر دينهم عن تعليم أولادهم » (١) وحتى عندما اراد المسلمون ان يعلموا أولادهم فقد اقتصر هذا التعليم على « اكتساب المعرفة بدين محمد ، اذ ان أى شىء وراء ذلك انما هو خرافة وخطر ، ولما كان دين محمد يحتوى على مجموعة من التعاليم وضعت فى الماضى فان المنهج والطريقة ينبغى أن يكونا ثابتين ، والحفظ لا التفكير هو الشىء المطلوب فى هذا التعليم » (٢) .

واذا جاز للدارسين الأجانب أن يأخذوا هذا الموقف غير العلمى من الحياة التعليمية والعقلية فى صدر الاسـلام قصدا أو غفلة وعفوا فان الغريب أن أكثر الدراسات العربية راحت تردد هذا الزعم وتسم القرون الاسلامية الأولى بميسم « الجهاد المسلح » من ناحية والضحالة العلمية والفكرية من ناحية ثانية دون محاولة منهم لاعادة النظر فى هذا الحكم وتمحيصه ، حتى لقد وقر فى الأذهان أن عصر الرسول والخلفاء الراشدين وصدر الدولة الأموية انما هى عصور فجاجة العقل العربى وعدم حيوية الفكر الاسلامى ، وحتى أن تربويا معاصرا عندما تناول الفكر التربوى الاسلامى فانه يقسمه الى ثلاث مراحل : المرحلة الأولى منه تبدأ من هجرة الرسول عليه الصلاة والسلام حتى قيام دار الحكمة فى بغداد ، واهم ما يميز هذه المرحلة فى نظره من الناحية الفكرية والتربوية « هو هيمنة الفكر الدينى المطلقة وشيوع التقليد الذى كان نوعا من أنواع الاستمرارية عن عهد الرسول ومحاولة للثبات عليه » (٣) ، ثم يمضى فيؤكد « نحن فى الواقع لا نجد فكرا تربويا متميزا فى هذه المرحلة (هكذا !!) خلاف ما شاع فيها من الأحاديث عن شرف العلم وكرامة السعى فى طلبه ، ويبدو أن غياب مثل هذا الفكر يعود الى بساطة النظام التعليمى الذى عرف فى هذه الحقبة وافتقاره الى النظرية التربوية المتكاملة » (٤) .

ولسنا نريد أن نستطرد فى اعطاء المزيد من الشواهد التى تؤكد على سيطرة هذا الاتجاه فى تناول الحياة العقلية والتعليمية فى القرون الاسلامية الأولى — كذلك فلن نحاول فى تلك الدراسة أن نفند هذا الرأى ونثبت بالأدلة التاريخية القاطعة أن بذور النهضة العملية والتعليمية فى العالم الاسلامى انما وضعت بذورها بنزول الوحى ، ومنذ عصر الرسول والخلفاء الراشدين ، وأن العرب قد ظلوا قرونا قبل الاسلام دون أن وينتجوا لنا علوما ذات بال ، وحتى تلك الدراسات التى تؤكد على الطابع الحضارى للعرب فى الجاهلية — وخاصة عرب الجنوب (٥) لا يمكن أن تقلل من دور الاسلام وتعاليمه فى ازدهار الحياة التعليمية والفكرية عند

العرب بعد الاسلام . لقد كان الاسلام بتعاليمه نقطة تحول كاملة فى حياة العرب سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وثقافيا وتربويا ولن نستطيع أن نفهم هذا الاقبال الشديد على العلم والتعليم فى حياة العرب بعد الاسلام الا اذا درسنا المبادىء الاسلامية التى جاء بها القرآن وأكدها الرسول وتابع تطبيقها بنفسه وطبقها الخلفاء الراشدون من بعده لنشر العلم والتعليم فى المجتمع الاسلامى ، واذا كانت الدراسة الحالية ليست هى المجال المناسب للعرض التفصيلى الموثق لتلك الحقيقة فلا أقل من أن نشير هنا اشارات سريعة الى بعض الملامح العامة التى تفيدنا فى دراسة ازدهار الطب الاسلامى فى العصور الاسلامية الوسطى المشرقة الممتدة من هجرة الرسول الى المدينة الى فتح القسطنطينية عام ١٤٥٣ م (٦) بحيث غدا الطب الاسلامى غاية ما وصل اليه العقل البشرى فى ميدان الوقاية والعلاج طوال تلك العصور .

فلقد كان خلف هذا الاندفاع القوى الى ميادين العلم المختلفة — ومنها الطب — دين يقدس العلم والعلماء ، ولا يرضى لأتباعه بالجهل والتخلف العقلى . والدارس لكتب التراث التربوى الاسلامى — وهى كثيرة — يجد أبوابا مخصصة للعلم وذكر فضائله والحث عليه وبيان ضرورة طلبه من ناحية ونشره بين الناس من ناحية أخرى ، وسيلاحظ الدارس أن تلك الأدبيات التربوية تتناول هذا الموضوع مدعما بالآيات وأحاديث الرسول وآثار الصحابة رضوان الله عليهم وهو ما تشير اليه بدليل النقل ثم يأتى بعد ذلك تناولها للموضوع من الناحية العقلية والمنطقية التى يرتضيها العقل السليم وهو ما يسمى بدليل العقل (٧) ، ويطول بنا الحديث لو ذهبنا نتتبع هنا تلك الأدلة النقلية والعقلية معا ، ولذلك فستكتفى الدراسة بالقليل من الشواهد من القرآن والسنة « اذ العبرة بقوة الأدلة لا بكثرتها » كما يقول طاش كبرى زاده عند تناوله لهذا الموضوع (٨) .

أما عن فضيلة العلم ، فان الله تعالى يقول « شهد الله انه لا اله الا هو والملائكة وأولوا العلم » (آل عمران آية ١٨) . فانظر كيف بدأ

الله بنفســه سبحانه وثنى بملائكته وثلث بأهل العلم . وقال تعالى : « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » (المجادلة آية ١١) ، وقال تعالى : « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » (الزمر آية ٩) . ويعلق طاش كبرى زاده على مثل هذه الآيات بقوله : « أو لم يكف بالعلم وأهله الشرف الأصيل ، والمجد الأثيل أمثال هذه الآيات الواردة فى التنزيل » (٩) . وعن فضيلة العلم أيضا يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « العلماء ورثة الأنبياء » ويعلق طاش كبرى زاده على هذا الحديث بقوله « ومعلوم انه لا رتبة فوق النبوة ولا شرف فوق شرف الوراثة لتلك الرتبة » ، وقال صلى الله عليه وسلم : « أقرب الناس من درجة النبوة أهل العلم والجهاد ، أما أهل العلم فدلوا على ما جاءت به الرسل ، وأما أهل الجهاد فجاهدوا بأسنيافهم على ما جاءت به الرسل » ، وقال صلى الله عليه وسلم : « يوزن يوم القيامة مداد العلماء بدم الشهداء » ، وقال صلى الله عليه وسلم : « يشفع يوم القيامة ثلاثة : الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء » ، ويعلق طاشى كبرى زاده على ذلك بقوله : « فأعظم بمرتبة هى تلو النبوة وفوق الشهادة » . ولعل تلك الآيات والأحاديث قليل من كثير يوضح لنا بالفعل المنزلة السامية للعلم والعلماء فى حياة المجتمع الاسلامى وكيف نظر المسلمون الأوائل الى أهمية الاقبال على العلم والتعليم .

ولا تكتفى تعاليم الاسلام بالتأكيد على أهمية العلم والتعليم ولكنها تحث الناس حثا على طلب المعرفة ، يقول تعالى « فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين » (التوبة آية ١٢٢) وقال تعالى « فاسألوا اهل الذكر ان كنتم لا تعلمون » (الأنبياء آية ٧) ، ويقول صلى الله عليه وسلم « من سلك طريقا يطلب فيه علما سلك الله به طريقا الى الجنة » . وقال صلى الله عليه وسلم « ان الملائكة لتضع اجنحتها لطالب العلم رضاء بما يصنع » وقال صلى الله عليه وسلم : « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » ... الى غير ذلك من الآيات العديدة والأحاديث التى

تظهر فضيلة التعلم والتى تدفع المسلمين دفعا الى طلب العلم والتزود به .

وحتى يندفع المسلمون الى التعلم فلابد لهم من « العناصر المعلمة » والتى تبذل لهم العلم اذا ارادوه وسعوا اليه ، ومن هنا دعا الاسلام الى ضرورة نشر العلم وعدم كتمانه ، وضرورة ان يبذل كل عالم ما لديه من علم للآخرين .. يقول تعالى « فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين (أى يتعلموا) ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم (أى يعلموا قومهم) .. » (التوبة آية ١٢٢) ، وقوله تعالى « واذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه » (آل عمران آية ١٨٧) وهذا أيجاب للتعليم وعدم كتم العلم ، وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « لا حسد الا فى اثنتين : رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الحق ورجل آتاه الله عز وجل حكمة فهو يقضى بها ويعلمها » ، و « خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فرأى مجلسين : أحدهما يدعون الله عز وجل ويرغبون اليه والثانى يعلمون الناس فقال : اما هؤلاء فيسألون الله عز وجل ان شاء اعطاهم وان شاء منعهم ، واما هؤلاء فيعلمون الناس وانما بعثت معلما ، ثم عدل اليهم وجلس معهم » (١٠) .

ولا شك أن مثل هذه الآيات والأحاديث قد ركزت فى الحس الاسلامي وتربى عليها المجتمع منذ صدر الاسلام ، « لقد ركز فى الحس الاسلامى أن التعليم والتعلم لا يمكن أن يكون مجرد حرفة أو مهنة بل هو اصلا عبادة وتقرب الى الله ، وكما أن العالم فى الاسلام ينبغى عليه أن ينفر للتعلم ويسعى الى التزود من العلوم والمعارف فانه من الواجب عليه ايضا أن ينصرف الى تعليم الآخرين (١١) » .

فاذا اضفنا الى ذلك كله ما حفل به القرآن الكريم من الدعوة الى اعمال العقل والتفكير فى ظواهر الكون والاشادة بالتدبر فى آيات الله المختلفة وعوالمه المتعددة (نبات وحيوان وانسان وطبيعة ... الخ) وتقريع الجهال والغافلين والسخرية ممن لا يعلمون او لا يفكرون لوجدنا

انفسنا بالفعل امام عامل حاسم فى تغيير « العقل العربى » وتفجير طاقاته الثقافية واستغلال امكانياته استغلالا علميا جديدا لا عهد لهم به (١٢) .

فآيات القرآن الكريم تخاطب العقل وتدعو الى النظر وتحارب الخرافة والاعتماد على الظنون مثل قوله مخاطبا الناس جميعا « **قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق** » .. (العنكبوت الآية ٢٠) وقوله : « **قل انظروا ماذا فى السموات والأرض** » .. (يونس الآية ١٠١) وقوله : « **وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعقلون** » .. (الانعام الآية ٩٧) وقوله : « **ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف السنتكم والوانكم ان فى ذلك لآيات للعالمين** » (الروم الآية ٢٢) ، وقوله : « **ألم تر ان الله انزل من السماء ماء فاخرجنا به ثمرات مختلفا الوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف الوانها وغرابيب سود ، ومن الناس والدواب والأنعام مختلف الوانه كذلك انما يخشى الله من عباده العلماء** » .. (فاطر الآيتان ٢٧ ، ٢٨) . فامثال هذه الآيات تدعو المسلم الى التامل والنظر فى ظواهر الطبيعة ومجالى الكون ومحاولة تامل أسرارها والتعمق فى فهمها .

وهناك آيات أخرى تدعو الى محاربة استعمال الظنون فى التفكير وتحث المسلم على أن يبنى فكره على أساس قوى من الحق الصراح . يقول تعالى : « **افرايتم اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى ، الكم الذكر وله الأنثى ؟ تلك اذن قسمة ضيزى ، ان هى الا اسماء سميتموها انتم وآباؤكم ما انزل الله بها من سلطان ، ان يتبعون الا الظن وما تهوى الأنفس** » .. (النجم الآيات ١٩ — ٢٣) . وقال تعالى : « **وقالوا ما هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر وما لهم بذلك من علم ان هم الا يظنون** » .. (الجاثية الآية ٢٤) . وقال تعالى : « **وما يتبع اكثرهم الا ظنا ، ان الظن لا يغنى من الحق شيئا أن الله عليم بما يفعلون** » (يونس الآية ٣٦) .

وهناك آيات أخرى تلفت النظر دائما الى البحث عن الدليل العقلى

وتمنع من التقليد الأعمى للسابقين دون بحث أو نظر مثل قوله تعالى : **« واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون »** .. (البقرة الآية ١٧٠) وقوله تعالى : **« بل قالوا انا وجدنا آباءنا على امة وانا على آثارهم مهتدون وكذلك ما ارسلنا من قبلك فى قرية من نذير الا قال مترفوها انا وجدنا آباءنا على امة وانا على آثارهم مقتدون ، قال اولو جئتكم باهدى مما وجدتم عليه آباؤكم قالوا انا بما أرسلتم به كافرون . فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذبين »** .. (الزخرف الآيات ٢٢ — ٢٥) .

ويطول بنا الحديث لو مضينا فى سرد الآيات التى تدعو الى التدبر والتعقل والتبصر واستعمال الحواس من سمع وبصر ... الخ ، واستخدام العقل فى الوصول الى علل الأشياء ، ولاشك ان مثل هذه الآيات القرآنية تمثل منهجا علميا قرآنيا ، جديدا فى حياة العرب نقلهم من البداوة الى الحضارة العقلية ومن الفوضى الى التأمل والنظرة المنسقة الى الحياة والكون ، ومن العقلية الخرافية التى لا تربط الأسباب بالمسببات الى العقلية التى تتدبر سنن الله الثابتة التى لا تتغير **« ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت »** .. (الملك الآية ٣) ، **« سنة الله فى الذين خلوا من قبل ، ولن تجد لسنة الله تبديلا »** .. (الأحزاب الآية ٦٢) . ولا شك أن تطبيق هذا المنهج العلمى الصارم الذى أسسه القرآن الكريم ينتهى دائما الى بناء العقلية المسلمة على أساس من المنهجية العلمية ، والايمان بمبدأ العلية والحيلولة بينها وبين الوقوع فى براثن الخرافة الناتجة من العقلية العامية التى تقع دائما فى تصديق الأشياء دون تطبيق المنهج العلمى السليم (١٣) .

ومن الطبيعى أن النقلة الهائلة من طريقة النظر الجاهلية الى الكون والحياة الى تلك النظرة العلمية القرآنية الجديدة لا يمكن أن تتم فى يوم وليلة ، ولكن المهم أن نرصد هذا التحول العقلى الهائل منذ بدايته ، وكيف أن المجتمع الاسلامى منذ صدر الاسلام كان يتجه الى درب جديد من دروب العقل والنظر والتفكير ، وها هو الرسول صلى الله عليه وسلم

عندما بلغه أن بعض الناس يظنون أن خسوف الشمس كانت بسبب موت ابنه ابراهيم عليه السلام يسارع فيصحح هذا الخبر ملفتا نظرهم الى تلك الحقيقة الكونية الثابتة قائلا « ان الشمس والقمر من آيات الله لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته » (١٤) كذلك فان الذى يقرأ كتابا مثل « نهج البلاغة » المنسوب للامام على بن أبى طالب — حتى وان كان الكتاب محتويا على جزء منتحل — فلابد أن يدرك اثر هـذا التغير الثقافى الضخم الذى احدثه الاسلام على العقلية العربية منذ صدور الاسلام ، اذ الكتاب لا يحتوى على فكر دينى محدود بل يعكس احيانا كثيرة نظرات عميقـة الى الكون والحياة والأحياء لا يمكن أن تصدر الا عن عقل قد درب على دقة التأمل والتدبر والملاحظة (١٥) .

وحتى يتأكد هـذا التحول العقلى الهائل كان لابد من نشر العلم والتعليم بين افراد المجتمع ، لذلك وجدنا الرسول صلى الله عليه وسلم منذ بدايات الدعوة الأولى يمارس التعليم ويدعو الناس الى العلم رجالا ونساء ، سواء فى دار الأرقم بمكة او فى مسجده بالمدينة (١٦) وما أن يبايع وفد المدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم بيعة العقبة الأولى على الاسلام حتى يرسل معهم مصعب بن عمير ويأمره أن يقرئهم القرآن ويعلمهم الاسلام ويفقههم فى الدين وكان يسـمى المقرىء بالمدينة (١٧) ولا تمضى مدة طويلة حتى تبرز أسماء وقيادات تربوية من الرجال والنساء أمثال أبى بن كعب وزيد بن ثابت وأبى زيد ومعاذ وأبى الدرداء وسعد بن عبادة وأبى عبيدة الجراح وأسيد بن حضير وأم ورقة بنت عبد الله بن الحارث الأنصـارى وغيرهم كثيرين وكثيرات (١٨) . ثم يظهر « اخـوان الصـفة » فيعكفون فى مسجد رسول الله بالمدينـة ويفرغون أنفسهم لطلب العلم والجهـاد فى سبيل الله نظير أن يوفر لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم « حاجاتهم الأولية » واهل الصفة أضياف الاسلام لا يأوون الى اهل ولا مال ولا على أحد ، اذا أتته (رسول الله صلى الله عليه وسلم) الصدقة بعث بهـا اليهم ولم يتناول منها شيئا واذا أتته هدية أرسـل اليهم وأصاب منهـا وأشركهم فيها (١٩) ، ولقد بدأ عدد « أهـل الصفة » قليـلا فى البداية

ثم ظلوا يتزايدون فيما بعد ، اذ أن بعض الروايات تجعلهم عشرين والبعض يجعلهم اربعين وبعض الروايات تصل بهم الى اربعمائة من القـراء المجاهدين (٢٠) ، ولقد عكفت هـذه الأعداد الكبيرة من أهل الصفة على التعليم والجهاد ، اذ كانوا يخرجون فى كل سرية من سرايا الرسول ولعل « أهل الصفة » هم النواة الأولى لفكرة « المدرسة » فيما بعد التى يتفرغ فيها الطلاب والمعلمون لطلب العلم والتعليم نظير اجـور أو أرزاق كانوا ينالونها من الأوقاف ، مع فارق اساسى هو ان « أهل الصفة » قد جمعوا بين « العلم والجهاد » بينما اقتصر اهل المدارس « على طلب العلم فقط » كذلك فان ارزاق « أهل الصفة » لم تكن منتظمة بعكس أرزاق أهل المدارس فقد كانت منتظمة عن طريق الأوقاف الثابتة الدخل والمنصرف .

ولم يكن أهل الصفة يتعلمون القرآن شفاهة فقط بل تعلم معظمهم الكتابة ايضا وقد كان سعيد بن العاص كاتبا محسنا ، أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يعلم الناس الكتابة بالمدينة ففعل ، وكان ممن علمهم الكتابة اناسا من اهل الصفة ، علمهم الكتابة والقرآن ، اما عبادة بن الصامت فكان يعلمهم القرآن فقط (٢٢) . والغريب أن تؤكد كل المصادر الاسلامية تقريبا على دور « أهل الصفة » التعليمى والجهادى ثم نرى باحثا معاصرا يشكك فى هذا الدور ويشكك فى وجود تلك الأعداد المتفرغة لهذا الأمر ، ويستكثر على مجتمع المدينة أن يكون به مثل تلك الطائفـة ويذهب الى انهم كانوا مجرد مجموعة من المشاغبين محبى الحرب وحـدتهم مصالح وانتماءات خاصة ولم يكونوا اهل تعليم أو جهاد (٢٣) .

ونترك هذا الباحث وامثاله لكى نتتبع الخطوات العملية التى اتخذها الرسول صلى الله عليه وسلم لنشر العلم والتعليم فى المجتمع الاسلامى ، فقـد مارس التعليم بنفسه ثم ظهرت بجواره مجموعة من الصحابة كان يستطيع أن يعتمد عليهم فى هذا الشأن . وبعد مدة وجيزة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستطيع أن يدفع بالرجل غير المتعلم الى من يعلمه ويفقهه فقد دفع على سبيل المثال وردان جد الفرات بن يزيد بن وردان الى أبان بن سعيد بن العاص ليعلمه القرآن ، ودفع ابا ثعلبة الى عبيـدة ابن الجراح لكى يعلمه وهكذا ، وكان يأمر الناس ان يستعلموا الفقـه

والقرآن من جيرانهم قائلا : « ما بال اقوام لا يفقهون جيرانهم ولا يتفقهون ولا يتعظون والله ليعلمن قوم جيرانهم ويتفقهون ويعظونهم ويأمرونهم وينهونهم وليتعلمن قوم من جيرانهم ويتفقهون ويتعظون او أعاجلنهم العقوبة » (٢٤) . وفى غزوة بدر عندما وجد بين الأسرى من يجيد الكتابة جعل فدية كل منهم أن يعلم عشرة من العلماء الكتابة ، وكان فداء الرجل قد بلغ أربعة آلاف (٢٥) . ولم يحرص الرسول صلى الله عليه وسلم على تعليم « الرجال » الكتابة فقط بل طلب من الشفاء أم سليمان بن أبى حتمة أن تعلم زوجته حفصة الكتابة (٢٦) .

ولقد ادرك المسلمون منزلة الكتابة واهميتها حتى أن مجاهدا روى فى قوله تعالى : ((**يؤتى الحكمة من يشاء**)) يعنى « الخط » ، ((**ومن يؤت الحكمة فقد اوتى خيرا كثيرا**)) يعنى الخط بتقديم وتأخير ، وكيف لا يدركون اهمية الكتابة والقرآن يأمرهم أن تكون معاملاتهم فى حالة الدين كتابة . يقول تعالى : ((**يا ايها الذين آمنوا اذا تداينتم بدين الى اجل مسمى فاكتبوه**)) . (البقرة ١٨١) . والذى يطالع أسماء كتاب رسول الله فقط ويجدهم اثنين واربعين كاتبا كما يروى عكرمة (٢٧) لا يملك الا أن يرفض ما يروى عن ندرة الكتابة فى عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم كما ذكر ابن خلدون فى مقدمته وتابعه على ذلك معظم الدارسين بدون تدقيق أو تحقيق ويقول « صاحب الحكومة النبوية » ما قاله معلقا على رأى ابن خلدون : « وهذا — اقبال المسلمين على تعلم الخط والكتابة — يبطل ما قاله ابن خلدون عن جهلهم بالخط فان عكرمة كان يتكلم عن مشاهدة وابن خلدون كان يتكلم عن تخمين » (٢٩) .

ويحتاج الرسول صلى الله عليه وسلم فى اتصالاته بالعالم الخارجى الى من يتقن اللغات الأجنبية فى ذلك الوقت وهى الفارسية والرومية والقبطية والحبشية ، فينتدب لذلك زيد بن ثابت الأنصارى فيتعلمها زيد بالمدينة من اهل هذه اللغات : الفارسية من رسول كسرى ، الرومية من حاجب رومى كان للرسول صلى الله عليه وسلم ، والحبشية من خادم للنبى صلى الله عليه وسلم ، والقبطية من خادمة له صلى الله عليه وسلم .

وتذكر المصادر أنه تعلم السريانية فى بضعة عشر يوما (سبعة عشر يوما) (٣٠) . ومما لا شك فيه أن درجة معرفته بتلك اللغات لم تصل الى درجة الحذق بها فى مثل تلك المدة الوجيزة ولكن المهم هنا هو لفت النظر الى قوة الدافع الاسلامى الذى يدفع أحد الصحابة الى تعلم هذه اللغات فى مدة قصيرة ، وتلك الروح الحضارية الجديدة التى تمكن زيد ابن ثابت من أن يصبح ترجمانا لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى تلك اللغات .

وفى هذا الجو العلمى والتعليمى الجديد ظهرت كفايات علمية متعددة كعلى بن أبى طالب وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس ... الخ . وكان الأخير يسمى البحر لسعة علمه ، وكان يعلم فى مسجد المدينة علوم الدين واللغة العربية والشعر . وحرصا على افادة طلابه الكثيرين وتلبية لطلباتهم كان يخصص يوما للقرآن والتفسير وثانيا لمغازى رسول الله صلى الله عليه وسلم وثالثا لأيام العرب ورابعا للأنساب وخامسا للشعر والنحو (٣٢) وكان عمر بن الخطاب — فيما بعد — يلفت نظر عمال الدولة وقادتها الى تلك الكفايات العلمية المتعددة عندما قال لهم فى مؤتمر الجابية : « من اراد ان يسأل عن القرآن فليأت أبى بن كعب ، ومن أراد أن يسأل عن الفرائض فليأت زيد بن ثابت ومن أراد ان يسأل عن الفقه فليأت معاذ بن جبل ، ومن أراد أن يسأل عن المال فليأتنى ، فان الله سبحانه وتعالى جعلنى خازنا وقاسما » (٣٣) .

وتؤكد المصادر على أن المسلمين قد واصلوا تلك المسيرة العلمية والتعليمية فى عهد الخلفاء الراشدين ، فقد أرسل الوالى يزيد بن أبى سفيان رسالة الى الخليفة الثانى عمر بن الخطاب يطلب منه ايفاد المعلمين لتعليم أهل الشام وهذا هو نص الخبر :

قال محمد بن كعب القرظى : « ولما كان عمر كتب يزيد بن أبى سفيان ان أهل الشام كثير قد احتاجوا الى من يعلمهم القرآن ويفقههم ، قال عمر لأصحابه : أعينونى بثلاثة فقالوا (عن أبى أيوب الأنصارى) هذا شيخ كبير ، وعن (أبى بن كعب) هذا سقيم فخرج معاذ بن جبل وعبادة

ابن الصامت وأبو الدرداء . فقال عمر : ابدأوا بحمص فاذا رضيتم عنها فليخرج واحد الى دمشق وآخر الى فلسطين : فأقام عبادة بحمص ، وخرج أبو الدرداء الى دمشق ومعاذ الى فلسطين ، ومات معاذ عام طاعون عمواس ، فسار عبادة بعدها الى فلسطين ومات بها ولم يزل أبو الدرداء بدمشق حتى مات » (٣٤) .

ولقد اقبل طلاب العلم على تلك الحلقات الدراسية التى كانت تعقد « بالمساجد » المنتشرة فى أرجاء الدولة الاسلامية حتى أن الحلقة الواحدة كانت تضم المئات بل والألوف وتروى المصادر أن أبا الدرداء كان من أوائل من عقد هذه الحلقات بالشام وأن عدد تلاميذه قد بلغوا الفا وستمائة ونيفا كان يقسمهم مجموعات ، ويضع على كل مجموعة عريفا يحفظهم القرآن . « عن أبى عبد الله مسلم بن مشكم قال : قال أبو الدرداء : اعدد من يقرأ عندنا يعنى فى مجلسنا هذا فعددت الفا وستمائة ونيفا ، فكانوا يقرأون ويتسابقون عشرة وعشرة ، لكل عشرة منهم مقرىء ، وكان أبو الدرداء يستفتونه فى حروف القرآن يعنى المقرئين فاذا أحكم الرجل من العشرة القراءة تحول الى ابى الدرداء ، وكان أبو الدرداء يبتدىء فى كل غداة اذا انفتل من الصلاة فيقرأ جزءا من القرآن وأصحابه محدقون به يستمعون الفاظه ، فاذا فرغ من قراءته جلس كل رجل منهم فى موضعه وأخذ على العشرة الذين أضيفوا اليه » (٣٥) .

ولقد زادت الحلقات اتساعا مع الأيام وازدادت أعدادها ، حتى ان حلقة ابن عامر « تلميذ أبى الدرداء — ضمت أربعمائة عريف يقومون عنه بالقراءة » (٣٦) ، مما يصور بالفعل مقدار ما وصل اليه المجتمع الاسلامي الأول من اقبال على العلم والتعليم .

ويصور ابن حزم ما وصل اليه المجتمع الاسلامى فى صدر الاسلام من شيوع العلم والتعليم بقوله : « مات رسول الله صلى الله عليه وسلم والاسلام قد انتشر وظهر فى جميع جزيرة العرب من منقطع البحر المعروف ببحر القلزم مارا الى سواحل اليمن كلها الى بحر فارس الى منقطعه

مارا الى الفرات ثم على ضفة الفرات الى منقطع الشام الى بحر القلزم وفى هـذه الجزيرة من المدن والقرى ما لا يعرف عدده الا الله ، كاليمن والبحرين وعمان ونجد وجبلى طىء وربيعة وقضاعة والطائف ومكة كلهم قد أسلم وبنوا المساجد ليس منهـا مدينـة ولا قرية ولا حلة لأعراب الا وقد قرىء فيها القرآن فى الصلوات وعلمه الصبيان والرجال والنساء وكتب » (٣٧) .. وتأمل قوله : « ليس فيها مدينة ولا قرية ولا حلة لأعراب الا وقد قرىء فيها القرآن فى الصلوات وعلمه الصبيان والرجال والنساء وكتب » ليتضح لك كيف أن الحركة التعليمية فى عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم قد امتـدت الى المـدن والقرى والحلل ، وكيف أن القرآن قد درس قراءة وكتابة للصبيان والرجال والنسـاء . أما عن استمرار تلك الحركة التعليمية والتربوية فى عصر الخلفاء الراشدين فان ابن حزم يقول : « ثم مات أبو بكر وولي عمر ففتحت بلاد الفرس طولا وعرضـا وفتحت الشام كلها والجزيرة ومصر كلها ولم يبق بلد الا وبنيت فيه المساجد ونسخت فيه المصاحف وقرأ الأئمـة القرآن وعلمه الصبيان فى المكاتب شرقا وغربا » مما يؤكد على أن حركة التعليم كانت قد تدعمت فى المجتمع الاسـلامى الأول ، وأن مكاتب الصبيان لتعليم القرآن كانت قد انشئت بالفعل فى عهد عمر بن الخطاب على الأكثر ان لم يكن قبل ذلك ، وليس فى العصر الأموى كما تذهب الى ذلك اكثر الدراسات المعاصرة جريا وراء أسطورة أن عهد الرسول والخلفاء الراشدين لم يكن عهد استقرار وعلم وتعليم بقدر ما كان عهد غزوات وفتوح ، ولقد غاب عن هؤلاء الدارسين أن الفتوح والغزوات لم تكن هدفا فى حد ذاتها ، تعطل من اجله شـئون العلم والتعليم ، وانما كانت تلك الفتوح والغزوات وسيلة لازالة العوائق التى تحول بين المسلمين وتأدية فرض أساسى من فروض دينهم الا وهو نشر الدين الاسـلامى على أوسع نطاق ممكن ، ولم يكن هـذا الغزو حائلا بين المسلمين وبين العلم والتعليم ، بل كان اداة من أدوات نشر الدعوة وما يتصل بها من علم وتعليم (٣٩) . لقد كانت سياسة الرسول وخلفائه الراشدين تتمثل فى الاتصال بمختلف الوسائل بالقبائل والشعوب المجاورة ودعوتهم الى الاسلام . وعندما كان هؤلاء يقبلون الدعوة كان « العلماء »

يتجهون اليهم لتعليمهم اركان الدين ، وعندما كانوا يرفضون ويبدأ القتال كان فتح بلد من البلدان يعنى انتقال المسلمين من مرحلة الفتح الى مرحلة تعليم الدين الاسلامى والقرآن الكريم (٤٠) من هنا نفهم لماذا كانت الجيوش الاسلامية فى صدر الاسلام تضم القضاة والعلماء والقراء لكى يعلموا الجند الاسلامى من ناحية ، ولكى يباشروا مهمتهم التعليمية والحضارية مع البلدان التى تدخل الاسلام من ناحية أخرى ، وعلى سبيل المثال لا الحصر فقد كان جيش اليرموك على طريق الشام يضم قاضيا هو ابو الدرداء وقاصا هو أبو سفيان بن حرب ، وقارئا هو المقداد بن الأسود (٤١) ، وجريا على السنة التى سنها الرسول فى معركة بدر فان قادة « الجيش الاسلامى » فى عهد عمر بن الخطاب قد طلبوا من أسرى الشام الذين يجيدون الكتابة تعليمها للمسلمين ، مثال ذلك ما يروى البلاذرى من ان اسرى قيسارية وضعوا فى الجرف (وهو معسكر المسلمين فى فلسطين) وطلب منهم تعليم المسلمين الكتابة (٤٢) ، ولعل هذه الشواهد التاريخية أن تظهر أن الفتوح الاسلامية فى عهد الرسول والخلفاء الراشدين لم تكن ملهاة عن نشر العلم والتعليم ، بل كانت اداة لنشر « العلم الاسلامى » ودليلا على أن المسلمين كانوا قد أشربوا حب العلم والتعليم ، يمارسونه فى سلامهم ويمارسونه فى حربهم ، وفرق هائل بين القادة عباقرة الحرب مثل الاسكندر المقدونى ونابليون وهتلر وموسولينى ... الخ ، وبين القادة عباقرة الحضارة مثل خالد بن الوليد ، وابى عبيدة عامر بن الجراح ، وسعد بن ابى وقاص ، وعقبة بن نافع ... الخ ، بين هؤلاء الذين حققوا انتصارات حربية باهرة فى الزمان الأقصر ولم يخلفوا اثارا حضارية وثقافية من بعدهم ، وهؤلاء الذين فتحوا البلاد شرقا وغربا ثم بقيت آثارهم ظاهرة فى السياسة والحضارة والثقافة (٤٣) .

...

من كل ما سبق يتضح لنا شيئا من تلك الروح العلمية والتعليمية التى جاء بها الاسلام والتى حركت العرب الى الاقبال على العلم والتعليم : يقبلون عليه فى اوقات السلام ، ويطلبونه فى اوقات الفتوح والغزوات ، وستظل هذه هى السمة الغالبة على « المجتمع الاسلامى » عبر العصور

الاسلامية الزاهرة فحيثما ذهب المسلمون أقاموا حلقات العلم ومؤسسات التعليم وان اختلفت أسماء تلك المؤسسات وتعددت المناهج باختلاف العصور واختلاف الحاجات العلمية والتعليمية ، مما يؤكد لنا أن عصر الرسول والخلفاء الراشدين كان بحق عصر التحول العلمى والتعليمى فى حياة العرب ، وهو بهذا المعيار — يعد فى نظرنا — من أزهى العصور الثقافية فى حياة العرب والمسلمين * ، ولا شك أن « ميدان الطب » كان أحد الميادين التى تأثرت بتعاليم الأسلام من زاويتين : الزاوية الاولى ، هذا الاقبال وهذا التقديس للعلم والمعرفة بصفة عامة ، والتى دفعت الناس الى مزيد من العلم والتعلم ، والزاوية الثانية ما حفلت به تعاليم الاسلام من مبادىء طبية فتحت المجال لمزيد من « الوعى الصحى » ومزيد من الاقبال على « التعليم الطبى » على نحو ما سنبينه فى الصفحات القليلة التاليـة :

ثانيا — موقف الاسلام وتعاليمه من التعليم الصحى بصفة خاصة :

رغم أن القرآن ليس كتاب تعليم طبى ورغم أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يزعم لنفسه **دور الطبيب البشرى** Medical Doctor الا أن تعاليم القرآن والسنة قد احتوت الكثير من المبادىء الطبية العامة التى استهدفت خلق المجتمع الاسلامى القوى صحيا ، وسواء فى ميدان الطب الوقائى Protection، او فى ميدان الطب العلاجى Treatment ، فان تعاليم الاسلام قد احتوت على الكثير من الأسس الصحية التى تستهدف « حفظ الصحة وازالة المرض » عن الانسان والمجتمع . وتعتبر دراسة أحمد شوقى الفنجرى « الطب الوقائى فى الاسلام » (٤٤) ، من أشمل الدراسات وأوجزها التى تناولت مبادىء الاسلام الطبية المتعلقة « بالطب الوقائى » مستمدة من القرآن وسنة الرسول صلى الله عليه

---

* يشعر الباحث أن هذا الموضوع « التعليم فى عصر الرسول والخلفاء الراشدين » يستحق دراسة خاصة موثقة ، ويأمل أن تتهيأ له الظروف البحثية للقيام بتلك الدراسة الهامة .

وسلم . ولقد عالجت الدراسة المبادىء الاسلامية المتعلقة بما يسمى فى عصرنا الحاضر « الطب الوقائى » تحت العناوين الرئيسية التى نوجز أهمها فيما يلى :

١ — أوامر فى صحة البيئة الاسلامية ونظافتها :

Sanitation and Personal Hygene

فقد اشتمل القرآن الكريم وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم على العديد من الآيات والأحاديث التى تدعو الى نظافة البدن والأيدى والأسنان والأظافر والشعر ونظافة الملابس ونظافة الطعام والشراب والشوارع والبيوت والمدن وموارد المياه كالأنهار والآبار ، وانه لأمر لا يخلو من معنى فى ذلك الشأن أن نشير الى أن أول سورة نزلت تنادى بالعلم وثانى سورة نزلت تنادى بالنظافة ، فقد جاء فى السورة الأولى قوله تعالى : « **اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم** » (العلق الآيات ١ — ٥) ، ولاحظ اشارة السورة الى العلم والتعليم من أول نزول الوحى وبداية الدعوة لتدرك طبيعة هذا الدين الحضارية ، وجاء فى السورة الثانية قوله تعالى : « **يا أيها المدثر ، قم فانذر ، وربك فكبر ، وثيابك فطهر ، والرجز فاهجر** » (المدثر الآيات ١ — ٥) ، ايذانا باشعار المسلمين أن هذا الدين جاء لنظافة الظاهر والباطن معا ، ويطول الحديث لو ذهبنا نستعرض كل الآيات والأحاديث التى تدعو الى النظافة بجميع صورها ولكن يكفى أن نذكر هنا القليل منها مثل قوله تعالى ممتنا علينا بنعمة « الماء » افضل اداة للنظافة « **وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان** » (الأنفال الآية ١١) ، والعجيب أن من مظاهر قياس درجة تحضر الشعوب فى عصرنا الحديث هو مقدار استهلاكه للماء ، ولا ندرى هل هناك شعب أكثر استخداما للماء فى أنواع الطهور المختلفة من المسلمين ؟ انهم يستخدمونه خمس مرات فى اليوم عند كل وضوء لكل صلاة مفروضة ، دع عنك النوافل والسنن ، ويستخدمونه للتطهر — بالاستحمام الكامل — من الجنابة الصغرى والجنابة الكبرى ،

ويستخدمونه فى الاستحمام فى كثير من المناسبات التى يدعو اليها الشارع الحكيم ، حتى لقد احصت كتب الفقه الاسلامى الأسباب الداعية للاستحمام فى الاسلام « فوجد انها سبعة موجبة وستة عشر مستحبة أى انها ثلاثة وعشرون سببا » ، ويكفى أن نذكر هنا أن أول خطوة للدخول فى الاسلام هى الغسل أى الاستحمام قبل شهادة الا اله الا الله . ويلتزم المسلمون بالاجتماع والالتقاء معا مرة كل اسبوع فى صلاة الجمعة وحتى يكون المسلم فى هذا اللقاء نظيفا خاليــا من الروائح الكريهة والعرق فانه يستحب له الغسل لقول الرسول : « غسل يوم الجمعة واجب والسواك وان يمس من الطيب ما يقدر عليه » ، وقوله : « اذا جاء احدكم الجمعة فليغتسل »(٤٥).

ولا يكتفى الاســلام بالاستحمام كسبيل لنظافة الجسم بل انه يأمر المسلم بازالة كل ما يمكن أن تتجمع تحتــه القذارة والميكروبات فى جسمه وفى هــذا يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خمس من الفطرة : الاستحداد والختــان وقص الشارب ونتف الابط وتقليم الأظافر » وحديث انس رضى الله عنه قال : « وقت لنا النبى صلى الله عليه وسلم فى قص الشارب وتقليم الأظافر ونتف الابط وحلق العانة الا يترك اكثر من اربعين ليلة » ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اذا قام احدكم من نومه فليغســل يديه فانت لا تدرى اين كانت يداك » ، وقال : « اذا توضأت فخلل أصابع يديك » ، وقال « لولا ان اشق على أمتى لأمرتهم بالســواك عند كل صلاة » وعندما رأى بعض أصحابه يهمل فى نظافة أسنانه حتى اصفر لونها قال لهم : « مالى اراكم تدخلون على قلحا استاكوا رحمكم الله » ، ووجه الى اهمية غسل شعر الراس وترجيله وعندما دخل عليه رجل ثائر الراس واللحية فأشار اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بغسل شعره واصلاحه ، وعندما رأى مسلما لا ينظف ثوبه لفت نظر أصحابه قائلا : « أما يجد هــذا ما يغسل به ثوبه » وذكرهم بقوله تعالى : ((**يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد**)) (الأعراف الآية ٣١) .

ويحرص الرسول صلى الله عليه وسلم على توجيه اتباعه الى نظافة الطعام والشراب ومصادر المياه والسكن والشارع فيقول صلى الله عليــه

وسلم : « غطوا الاناء وأوكئوا السقاء فان فى السنة ليلة ينزل فيهـا وباء لا يمر باناء ليس عليه غطاء أو سقاء ليس عليه وكاء الا نزل فيه من ذلك الوباء » ، وقال صلى الله عليه وسلم : « اتقوا الملاعن الثلاث : البراز فى الموارد وفى الظل وفى طريق الناس » ، ودعا الى نظافة المساكن مثل قوله : « نظفوا افنيتكم ولا تشبهوا باليهود التى تجمـع الأكباء (الزبالة) فى دورها » ، وحرم البصق على الأرض واعتبره خطيئـة تؤذى المسلمين وتوجب اللعنة ما لم يزلها فاعلها مثل قوله : « البصاق على الأرض فى المسجد خطيئـة وكفارتها ردمها » وقوله : « من آذى المسلمين فى طريقهم وجبت عليه اللعنة » ، وهكذا اذا ذهبنا نستعرض مبادىء الاسـلام الصحية فى ميدان الفرد والبيئة لاتضح لنا أنها لم تترك شيئا فى هـذا المجال .. وكيف لا ورسول الله صلى الله عليه وسلم لا يرضى لأصحابه اقل من أن يكونوا « المثل الأعلى » بين الناس فى النظافة مثـل قوله : « احسنوا رداءكم ، واصلحوا ركابكم ، حتى تكونوا شامة فى النـاس » ... وهكذا انطلق المسلمون تحدوهم تلك المثل العليا الصحية لتربية الانسان النظيف فى ذاته وفى مسكنه وطعامه وشرابه وطريقه والبيئة التى يعيش فيها (٤٧) .

٢ ـ اوامر لمنع الأمراض المعدية : Epidimilogy

فقد اشتملت تعاليم الاسـلام الوقائيـة على عزل المريض بالمرض المعدى وعدم دخوله على الأصحاء ، كذلك أمر الأصحاء بدورهم بالبعـد منه حتى يشفى ، وفى هـذا يقول رسول الله صلى الله عليـه وسلم : « لا يورد ممرض على مصح » اى لا يدخل المريض على الأصحاء فينقل اليهم العـدوى ، ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اجعـل بينـك وبين المجذوم قدر رمح أو رمحين » ، وقال : « اذا سمعتم بالوباء بأرض فلا تقدموا عليه ، واذا وقع بأرض وانتم بهـا فلا تخرجوا فرارا منه » وهكذا أدرك المسلمون مبكرا ضرورة « العزل الصحى » وفرقوا بين الحذر من العدوى ، والأخذ بأسباب الوقاية وبين التواكل والاهمال تحت دعوى عدم الهروب من قضاء الله . ومن تعاليم الاسلام فى عيادة المرضى أن يغسل الزائر يديه قبل الدخول على المريض ، لأن المريض يكون ضعيف المناعة

واكثر قابلية للعدوى ، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من توضأ فأحسن الوضوء وعاد اخاه المريض بوعد من النار » (٤٨) .

٣ — أوامر في التغذية : Nutrition

ولا نظن ان هناك دينا من الأديان قد أسهب في الحديث عن الغذاء المناسب لصحة اتباعه كما فعل الاسلام ، فقد حرص الشارع الحكيم على نوع هذا الغذاء وكمه وطريقة تناوله مما يمثل في مجمله قانونا غذائيا عاما للمسلمين ، وسنرى أن الطب الاسلامى يعتمد اعتمادا كبيرا على استخدام الغذاء كدواء ووقاية ، فقد حرم الاسلام على المسلم الأطعمة والأشربة المضرة صحيا مثل الميتة والدم ولحم الخنزير والخمر ... الخ يقول الله تعالى : **« حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما اهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما اكل السبع الا ما ذكيتم »** (المائدة الآية ٣) ، ويحرم تناول الخمر والمخدرات بقوله : **« يا ايها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ، انما يريد الشيطان ان يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل انتم منتهون »** (المائدة الآيتان ٩٠ ، ٩١) ، ويقول صلى الله عليه وسلم ، « كل شيء اسكر فهو حرام وكل مغيبة حرام » (٤٩) .

وفى الوقت الذى يحرم فيه هذه الأطعمة والأشربة المضرة صحيا فانه يشجع اتباعه على تناول الأغذية المفيدة صحيا مثل اللحوم بانواعها : لحم البر والبحر ومثل العسل والتمر واللبن والتين والزيتون والفاكهة .. الخ ولو تتبعنا الاشارات القرآنية ، والاحاديث النبوية التى تتناول الأغذية المستحبة لأدركنا ما وراء تلك الأطعمة والأشربة من قيمة غذائية ونكتفى هنا بذكر القليل فى هذا الباب مثل قوله تعالى : **« والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تاكلون »** (النحل الآية ٦) اشارة الى اللحوم الحيوانية ، وقوله تعالى : **« نسقيكم مما فى بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين »** (النحل الآية ٦٦) ، اشارة الى اللبن وقيمته الغذائية ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لا اعلم ما يجزى من الطعام

والشراب مثل اللبن » ، وعن العسل وأهميته يقول تعالى : « **يخرج من بطونها شراب مختلف الوانه فيه شفاء للناس** » (النحل الآية ٦٩) ، ويقول صلى الله عليه وسلم : « العسل شفاء من كل داء » وعن غير ذلك من الأطعمة والفاكهة يقول تعالى : « **وانزلنا عليكم المن والسلوى ، كلوا من طيبات ما رزقناكم** » (البقرة الآية ٥٧) ويقول : « **وفاكهة مما يتخيرون ولحم طير مما يشتهون** » (الواقعة الآيتان ٢٠ ، ٢١) ويقول : « **وامددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون** » (الطور الآية ٢٢) ، الى غير ذلك من الآيات والأحاديث التي تتناول أنواعا متعددة من الأطعمة والأشربة الطيبة (٥٠) .

ولا يكتفى الاسلام بذكر الحلال المفيد صحيا والنص على المحرمات المضرة صحيا من الوان الطعام والشراب بل يشمل توجيهات طبية تنظم تناول الطعام والشراب من حيث مواقيته وكميته وطريقة تناوله مثل قوله تعالى : « **وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين** » (الأعراف الآية ٣١) ، ومثل قوله صلى الله عليه وسلم : « ما ملأ ابن آدم وعاء شرا من بطنه ، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه ، فان كان لابد فاعلا فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه » ، وقوله صلى الله عليه وسلم : « اياكم والبطنة فانها مفسدة للدين مورثة للسقم مكسلة عن العبادة » ، وتذكر كتب السيرة كيف كان يتناول الرسول القدوة طعامه بانه : « كان يصغر اللقمة ويجيد مضغ الطعام ولا يلتقم لقمة الا بعد بلع ما سبقها » .

ثم هناك بعد ذلك فريضة « الصيام » بكل ما وراءها من حكم صحية عديدة يدركها الطب الحديث (٥١) .

٤ — اوامر الصحة الجنسية : Sex Hygene

وسيعجب الدارس لهذا الموضوع .. كيف أن الاسلام منذ خمسة عشر قرنا قد قدم لأتباعه « الثقافة الجنسية » الكاملة النظيفة التى تحاول أحدث المدارس التربوية المعاصرة أن تقدمها لطلابها فلا تستطيع ، اذ أن الثقافة الجنسية فى الاسلام تأتى فى اطار عقائدى سليم ، وآيات واحاديث لها منزلة القداسة والتبجيل ، وسنرى أن الثقافة الجنسية

فى الاسلام تتناول أمور الجنس تناولا شاملا يشمل تكوين الجنين ونموه ، وكيفية اختيار الزوجة وكيفية المعاشرة الجنسية السليمة وعدم اتيان النساء فى المحيض والحث على الزواج وتحريم الزنا واللواط والشذوذ وتحليل الطلاق وتعدد الزوجات فى الحالات التى تستدعيها الظروف الطبية والجنسية والانسانية الملحة ، مع أوامر للنظافة الجنسية كالاستحمام بعد الجماع والاستنجاء بعد البول والاستنجاء بعد البول والغائط ... الخ ، وسنكتفى بذكر القليل من تعاليم الاسلام فى هذا الشأن (٥٢) .

يقول تعالى فى اختيار الزوجة ، وما ينبغى أن يكون بين الزوجين من مودة ومحبة : « **ومن آياته ان خلق لكم من انفسكم ازواجا لتسكنوا اليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون** » (الروم الآية ٢١) ، ويقص قصة اعجاب ابنة شعيب بموسى عليه السلام لأمانته وقوته فتقول لأبيها :

« **يا ابت استاجره ان خير من استأجرت القوى الأمين** » (القصص الآية ٢٦) ، فيفهم الأب فى الحال لغة القلوب ، فيقول لموسى « **انى اريد ان انكحك احدى ابنتى هاتين** » ويدعو رسول الله صلى الله عليه وسلم الى أن يرى المسلم المرأة التى يريد أن يتزوجها بنفسه حتى لا يفاجأ بما لا يرضاه بعد الزواج فيقول : « اذا خطب أحدكم المرأة فقدر أن ينظر منها بعض ما يدعوه الى نكاحها فليفعل » ، وقال للمغيرة بن شعبة وقد خطب فتاة من الأنصار بدون أن يراها : « اذهب فانظر اليها فانه أحرى أن يؤدم بينكما » فاذا كان الزواج أحل الله لهما الاستمتاع كل بالآخر .. فيقول سبحانه وتعالى : « **نساؤكم حرث لكم فاتوا حرثكم انى شئتم** » (البقرة الآية ٢٢٣) ، وقوله : « **هن لباس لكم وانتم لباس لهن** » (البقرة الآية ١٨٧) . الا عند المحيض فان المباشرة مضرة صحيا بكل من الزوجين .. يقول الله تعالى : « **ويسالونك عن المحيض قل هو اذى فاعتزلوا النساء فى المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن فاذا تطهرن فاتوهن من حيث امركم الله ، ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين** » (البقرة الآية ٢٢٢) وينهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يباشر الرجل زوجته دون

أن يسبق ذلك ملاطفة عاطفية وتمهيد جنسى بمثل قوله : « لا يقعن أحدكم على امرأته كما تقع البهيمة وليكن بينهما رسول ، قيل وما الرسول يا رسول الله ، قال : القبلة والكلام » ، ومن تعاليم الاســـلام أن يتزين الرجـــل لزوجته ، وأن تتزين المرأة لزوجهـــا ، وألا ينظر الرجل بشـــهوة الى غير زوجته ، وألا تمتنع المرأة عن زوجها فى الفراش ، أو يهجر الرجـــل زوجته فى الفراش الا لسبب شرعى ، ويكفى أن ينظر الاسلام الى العلاقة الجنسية بين الزوجين على انها عمل مستحب ينالان عليه الأجر من الله ، لترى تلك الصراحة وتلك القداسة التى يعالج بها الاسلام موضوع الجنس فى حياة المسلم .

وفى القرآن حديث ممتع عن تطور الجنين مثل قوله تعالى : « أيحسب الانسان أن يترك سدى ، الم يك نطفة من منى يمنى ، ثم كان علقة فخلق فسوى ، فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى » (القيامة الآيات ٣٦ — ٣٩) ومثل قوله : « ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقـــة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما ، فكسونا العظام لحما ، ثم انشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين » . (المؤمنون الآيات ١٣ ، ١٤) وقوله : « وانه خلق الزوجين الذكر والأنثى ، من نطفة اذا تمنى » (النجم الآيات ٤٥ ، ٤٦) وقوله تعالى : « فلينظر الانســـــان مم خلق ، خلق من ماء دافق يخرج من بين الصـــلب والترائب » (الطـــارق الآيات ٦ — ٨) ... الخ .

ويحرم الاسلام الزنا لما يشيعه فى المجتمع من فســـــاد مثل قوله : « ولا تقربوا الزنا انه كان فاحشـة وساء ســبيلا » (الاسراء : آية ٣٢) ويحرم اللواط « ولوطا اذ قال لقومه اتأتون الفاحشـــة ، ما سبقكم بها من أحد من العالمين ، انكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون » (الأعراف : الآيات ٨٠ ، ٨١) الى غير ذلك من الموضوعات التى تكون فيما بينها جسما متماسكا من المعرفة الجنسية الســليمة التى تربى المسلم على احترام الجنس وتفهم اسراره والقيام بأدواره قيـــاما صـــحيا نظيفا ، وبذلك يخلو المجتمع من أمراض الجنس الناجمـــــة عن

الاختلاط واثارة الشهوات كانتشار البرود ، أو الشذوذ الجنسى والخيانة الزوجية ... الخ مما تعج به مجتمعات التسيب والرخص (٥٣) .

٥ — اوامر الصحة النفسية والعقلية :
NENTAL AND PSYCHIC HYGENE

ان الاسلام بما يدعو اليه من ايمان وصـــلة قوية بالله تريح النفس وترضى العقل والشعور ، وما يكونه من علاقات اســـــلامية بين الأفراد والجماعات تجعلهم كالجسد الواحد ، وما يحدثه من تنظيم اقتصـــــادى عادل لا يولد مشـــــاعر الحقد والكراهية بين الأفراد ، وما يستثيره من دوافع اخلاقية رفيعة تسمو بالأفراد والجماعات ، الاســـــلام بكل هذه المبادىء والتعاليم يخلق الجو الصحى نفســـيا وعقليا ، ويقضى على أكثر ما تعانيه مجتمعاتنا المعاصرة من شعور بالاغتراب ALINATION والاحباط FURSTRATION والشعور بالعجز POWERLESSNESS وما يصاحب تلك من عنف وتوتر وجريمة وعرى (٥٤) STRIKERS (*) .

كذلك فان ما فى الاسلام من ذكر ، وصلة بالله ، وشعور برحمته كل ذلك مما يثرى الحياة النفسية لدى المسلم .. يقول تعالى عن الأثر النفسى لتلاوة كتاب الله : « الذين آمنـــوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ، الا بذكر الله تطمئن القلوب » (الرعد : آية ٢٨) ، ويقول أيضـــــا « أومن كان ميتا فأحييناه ، وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها » (الأنعام : الآية ١٣٢) ، ويدعو الى الصبر والايمان عنـــد المحن والمصائب وعدم السخط والجزع بمثل قوله « ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم الا فى كتاب من قبل أن نبرأها » (النســـــاء : الآية ٧٨) ، ويفتح الرحمة أمام المخطئين اذا عادوا الى الطريق المستقيم بمثل قوله : « وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم » (الأحزاب : الآية ٥) ، وقوله : « ومن يعمل سوءا أو يظلم نفســـــه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما » (النساء : الآية ١١٠) ، ويحـــذر رسول الله الانسان من أن يلهث فى سبيل الدنيا بطريقة تعرضه للقلـــق والعذاب النفسي ويشده بدلا من ذلك الى اهداف وآفاق أســـمى وأرحب

بمثل قوله : « من كانت الآخرة همه جعل الله غناه فى قلبه وجمع له شمله وآتته الدنيا وهى راغمة ، ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه وفرق عليه شمله ولم يأته من الدنيـــــا الا ما قدر له » (٥٥) ولقد أدرك المسلمون هذا البعد النفسى فى حياة المسلم وسموه « مرض القلوب » وفى ذلك يقول ابن قيم الجوزية « المرض نوعان : مرض القلـــوب ، ومرض الأبدان ، وهما مذكوران فى القـــرآن » (٥٦) ، ثم يمضى فى الحديث عن تشخيص المرضين مظهرا علاجهما معا ، ويقول ابن الجوزى فى مقـــدمة كتاب « الطب الروحانى » : « لما جمعت كتابا فى طب الأبدان وسميته لقط المنافع آثرت ان اشفعه بكتاب فى طب النفوس أسميه « الطب الروحانى » فان طب الأبدان اصـــلاح الصور وطب النفوس اصـــلاح المعانى وهى أشرف (٥٧) ، وتحفل الكتب الطبية الاسلامية فى عصور الازدهار الاسلامى بالكتب التى تعالج طب النفوس (٥٨) ، وهو اتجاه اهملته الدراســـــات الطبية المعاصرة ، يقول احد الدارسين لهذا الموضوع : « أهملت الدراسة النفسية فى الطب (المعاصر) ، فكل الأمراض سببها حمات راشـــحة ، وجراثيم وطفيليات ، ولكل مرض أمراضة ، وعندما وضعت الأســــباب النفسية فى الأمراض ، وقد حدث هذا مؤخرا حيث حشدت الأســـباب النفسية من جملة الأمراض — وضعت بشكل مبهم غير محدد أو واضـــح بخلاف مرض المرض حينما يكون سببه جرثوميا أو فطريا أو طفيليا وهذا خلل بشع فى الدراسة مع اعتراف المؤلفين فى كتاباتهم أن الأسباب النفسية الروحية تلعب دورا هاما فى كل حادث من أحداث البدن » (٥٩) .

« والطب الروحانى » الذى عالجه علماؤنا المســـــلمون يختلف فى تصورنا عن العلاج النفسى المعاصر ، لأن الطب الروحانى الاسلامى يعتمد على تقوية علاقة الانسان بربه وتخليه عن الصفات المذمومة وتحليـــه بالصفات المحمودة ، ولا شك أن تلك المدرسة الاسلامية فى العلاج النفسى تحتاج فى عصرنا الحديث الى من يطورها ويدعمها بالمزيد من البحـــوث والدراسات حتى يكون لنا مدرستنا الخاصة بنا فى العلاج النفسى الاسلامى أو الطب الروحانى » (٦٠) .

٦ — أوامر اللياقة البدنية : BODY BUILT

ذلك ان الاسلام ينظر الى المسلم كخليفة الله فى الأرض ، ومن ثم فهو يطالبه بكثير من الأوامر والتكاليف لعمارة الكون والجهاد فى سبيل الله والقيام بواجباته الاسلامية العديدة من صلاة وصيام وزكاة وحج .. الخ ، ولا شك ان ذلك كله يتطلب قوة الجسم وصحة البدن ، ولذلك فان تعاليم الإسلام تحث على ذلك وتدعو اليه . يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « المؤمن القوى خير واحب الى الله من المؤمن الضعيف » ، ويشير الله فى كتابه الى فضل الرجل القوى فى مناسبات عدة فيقول « محمد رسول الله والذين معه اشداء على الكفار رحماء بينهم » (الفتح : آية ٢٩) ، ويقول : « ان الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم » (البقرة : آية ٢٤٧) ، وقوله « يا ابت استاجره ان خير من استاجرت القوى الأمين » (القصص : الآية ٢٦) ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لأصحابه : « علموا أولادكم الرماية ومروهم فليثبوا على الخيل وثبا » ، ويقول : « حق الولد على الوالد ان يعلمه الكتابة والسباحة والرمى » ، وحكت عائشة رضى الله عنها « ان الرسول صلى الله عليه وسلم قد سابقها وكانت نحيلةخفيفة فسبقته ثم مرت السنون وكثر شحمها فسابقها فسبقها فأخذ يذكرها بالمرة السابقة ويقول لها : هذه بتلك » . فاذا أضفنا الي ذلك ما فى « أداء الحج » من تدريب على المشاق ، وعلمنا أنه ركن من أركان الاسلام الخمسة « وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق » (الحج : آية ٢٧) ، وما يتضمنه الجهاد فى سبيل الله من تدريبات بدنية وعسكرية مختلفة يأمر بها الاسلام ويدعو اليها بمثل قوله : « واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » (الانفال : آية ٦٠) ، وقوله : « يا أيها النبى حرض المؤمنين على القتال أن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وان يكن منكم مائة يغلبوا الفا من الذين كفروا ذلك بأنهم قوم لا يفقهون » (الأنفال : آية ٦٥) لأدركنا مدى حرص تعاليم الاسلام على اللياقة البدنية .

ثم تأتى الصلوات الخمس اليومية — غير السنن والنوافل — لتحتوى على أنواع متعددة من الرياضـات والتمارين الصالحة لكل الأعمار : للأطفال والرجال والنساء على حد سواء ، ولا يكلف اداؤها شيئا ويمكن ان تؤدى فى وقت قصير وبدون أى مساعدة وفى أى لحظة وفى أى مكان ، وهى تمثل تدريبا شاملا للأطراف والعضلات والأجزاء المختلفة للجسم (٦١) .

ويحسن أن نختم الحديث عن « الصلاة » بما ذكره صاحب كتاب « الصلاة صحة ووقاية وعلاج » بعد أن قارنها بغيرها من التمرينات الرياضية واليوجا والسوريانامسكار (نوع متطور من اليوجا) وكيف ان الصلاة تمتاز عن هذا كله بانها لاتكسب اللياقة البدنية فقط بل تؤدى الى ارتفاع المستوى الروحى والعقلى أيضا فيقول : « ان حركات الصلاة أرق واخف وتفى بجميع المزايا المطلوبة لأرقى التمرينات الرياضية التى وصل اليها العلم علاوة على المزايا المتعددة من اتباع مقومات الصلاة وتلاوة أم الكتاب فى كل ركعة ثم تلاوة آيات الذكر الحكيم فى الركعات المحددة » (٦٢) .

ويطول بنا الحديث لو ذهبنا نتناول أيضا تعاليم الاسلام المتعلقة بالصحة المهنية OCCUPATIONAL–MEDECINE وكيف يعامل الأجير والعامل والخادم معاملة كريمة ، ورعاية المسنين GERIATRICS سواء اكانوا آباء أو أمهات أو جدودا وغيرهم ، ورعاية الأمومة والطفولة MATERNAL AND CHILD HEALTH وما ينبغى أن يوفر للطفولة والأمومة من رعاية وحب وحنان . وكل ما يمكن استخلاصه من ذلك هو أن تعاليم الاسلام قد أخذت المجتمع الاسلامى منذ نشأته الى طريق الصحة والقوة ، وأيقظت فيه « الوعى الصحى » باهمية هذه الأمور ، وجعلت من ذلك كله جزءا لا يتجزأ من تعاليم الدين ، فلا غرابة بعد ذلك أن يزداد اهتمام المسلمين بصحة البدن وصحة الروح معا ، ويقبلون على العلوم الطبية ينهلون منها ، ويضيفون اليها ، ويبدعون فيها ، ويصبحوا الرواد فى هذا الميدان طوال العصور الاسلامية الزاهرة .

الاسلام والطب العلاجي :

يعتبر الاسلام بحق أول دين سماوى يحرر التعليم الطبى وممارسة العلاج من الاعتماد على الرقى والتمائم والأحجبة وهيمنة رجال الدين على علاج المرضى واعتباره حقا من حقوقهم المقدسة ، ولسنا نجد كبير حاجة فى أن نستعرض هنا « التاريخ الطبى » للبشرية لكى نرى الى أى حد سيطرت الكهانة والشعوذة على ميدان الطب العلاجي قبل الاسلام ، وكيف أن العهد القديم كان لا يفرق بين الكاهن والطبيب ، ذلك أن المرض أصلا ليس الا عقابا على خيانة الانسان لخالقه حيث نقض عهده مع الاله وأطاع وعبد معبودات غريبة ، وبسبب خطيئة الانسان كان المرض الذى يحتاج الى طقوس خاصة لشفاء صاحبه ، « ذلك أن الأمراض ليست فى حقيقتها الا رموزا لفضيحة الانسان وعاره ونقضه لوعوده مع الاله ومن ثم وجب تدخل الكاهن » (٦٣) ، كذلك نجد أن العهد الجديد يؤكد على أن المريض قد ارتكب ذنبا فدخله شيطان المرض وأنه اذا قوى ايمانه وتاب عن ذنوبه خرج الشيطان من جسده ، وأن المسيح قد أورث رجال الدين القدرة على الشفاء . جاء فى انجيل متى (١٠) وفى لوقا (٢٠ : ٩) يقول بولس : « ومن مزيته التى لا يفاضله فيها نبى ولا رسول انه أفضى بالقدرة على اتيان المعجزات والشفاء الى تلاميذه ثم جدد منحها لهم بعد قيامه من الموت وصعوده الى السماء وأورث كنيسته تلك القدرة أيضا » ، ولذلك اعتقد رجال الكنيسة أن « العلاج » حق من حقوقهم المقدسة ولا يسمح لأحد غيرهم أن يمارس العلاج والا اتهم بالدجل والشعوذة والسحر ، وكانت الكنيسة تأمر بحرق الأطباء والعلماء أحياء أو وضعهم على الخوازيق حتى الموت ، فى الوقت الذى كان العلاج الوحيد الذى تقدمه الكنيسة للمريض يتلخص فى ثلاثة أمور هى : اضاءة الشموع حول المريض لطرد شيطان المرض ، واقامة صلاة الغفران حتى يتخلص من ذنوبه ، ودهن جسده بالزيت » (٦٤) .

كانت تلك هى النظرة الى المرض والى طريقة العلاج فى الأديان الأخرى ثم جاء الاسلام لكى يحدث تغييرا كبيرا فى تلك المفاهيم ، ولكى

يؤكد على ان المرض انما هو ظاهرة غير صحية ينبغى أن يلتمس لهـا العلاج المناسب . « دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على مريض يعوده ، وبعد أن عاده قال لأهل المريض : استدعوا له الطبيب ، قالوا متعجبين : وأنت تقول يا رسول الله ؟ ... قال : نعم ، تداووا عباد الله فان الله لم ينزل داء الا أنزل له دواء الا داء واحد ، قالوا ما هو يا رسول الله ؟ قال : الهرم » أى كبر السن .. وفى رواية أخرى « جاءت الأعراب فقالوا ، يا رسول الله أنتداوى ؟ فقال : نعم يا عباد الله ، تداووا فان الله عز وجل لم يضع داء الا وضع له شفاء غير داء واحد ، قالوا : ما هو ؟ قال : الهرم » ، وقال صلى الله عليه وسلم يحث على طلب « الدواء » : « لكل داء دواء فاذا أصيب دواء الداء برأ باذن الله عز وجل » ، وفى رواية أخرى : « ان الله عز وجل لم ينزل داء الا أنزل له الشفاء : علمه من علمه وجهله من جهله » (٦٥) . فتأمل حث رسول الله صلى الله عليه وسلم على العلاج وربط الأسباب (الشفاء) بالمسببات (طلب الدواء) ، وتأكيده على أن لكل داء دواء وضرورة البحث من العلاج الصحيح ، ويعلق ابن قيم الجوزية على تلك الأحاديث بقوله : « وفى قوله صلى الله عليه وسلم : لكل داء دواء ، تقوية لنفس المريض والطبيب وحث على طلب ذلك الدواء والتفتيش عليه ، فان المريض اذا استشعرت نفسه أن لدائه دواء يزيله تعلق قلبه بروح الرجاء وبرد من حرارة اليأس وانفتح له باب الرجاء ، ومتى قويت نفسه ، انبعثت حرارته الغريزية وكان ذلك سببا لقوة الأرواح النفسانية والطبيعية ، ومتى قويت هذه الأرواح ، قويت القوى التى هى حاملة لها ، فقهرت المرض ودفعته ، وكذلك الطبيب اذا علم أن لهذا الداء دواء أمكنه طلبه والتفتيش عليه » (٦٦) .

ويؤكد الرسول لأتباعه على أن طلب العلاج لا ينافى صدق الايمان ولذلك عندما سأله أبو خزامة قائلا : « يا رسول الله ، أرأيت رقى استرقيها ودواء نتداوى به وتقاة نتقيها هل ترد من قضاء الله شيئا ؟ فقال : هى من قدر الله » . وعندما مرض صلى الله عليه وسلم فى آخر عمره استعان « بالأطباء » تأكيدا لهذا المعنى فى نفوس أصحابه .

روت عائشة « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يسقم لله آخر عمره فكانت تفد عليه أطباء العرب والعجم فتنعت له الأنعات وكنت أعالجه بها » ، وهكذا أصبح طلب الشفاء عن طريق الدواء سلوكا اسلاميا يلجأ اليه المريض والطبيب معا (٦٧) . واذا كان الاسلام يحث على « طلب الدواء » وجعله من الأسباب الموصلة الى الشفاء فقد حذر من أن يمارس مهنة الطب الا الحاذق بها ، والعارف بالأمراض وعلاجها ، ولذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « من تطبب ولم يعلم مهنة الطب قبل ذلك فهو ضامن » فلا يتصدر لمهنة العلاج الا من اشتهر بذلك وظهر حذقه ، اما اذا أقدم عليها الجاهل فالحق الأذى بالمريض ، فهو فى تلك الحالة مسئول عن الضرر الذى أصاب المريض نتيجة للعلاج الخطأ ، وفى ذلك تحذير للمريض أن يلجأ الى الجاهل او المحتال الذى يمتهن الطب بدون معرفة أو حذق ، وتحذير للأطباء ان يقدموا على ممارسة المهنة بدون علم وتجربة وخبرة (٦٨) .

ولا شك أن تلك التعاليم الاسلامية فى العلاج كانت نقطة انطلاق انطلق منها العرب من عهد السحر والكهانة والتمائم الى عهد الطب والعلاج القائم على الأسباب والمسببات وكانت تلك التعاليم وراء هذا الاقبال على « العلوم الطبية » علما وتعليما ودراسة . وبينما كانت أوربا المسيحية طوال العصور الوسطى تمارس العلاج بطرقها البدائية التى وصلت احيانا الى درجة البربرية كان الطب الاسلامى يتقدم فى ميدان التشخيص والنبض والتشريح والصيدلة والملاحظة السريرية .. الخ .. ويروى لنا أسامة بن منقذ (١٠٩٥ — ١١٨٨) فى مذكراته صورتين نرى أن نوردهما هنا لكي نرى حالة الطب فى أوربا فى ذلك الوقت المتاخر ، يذكر اسامه أن عمه أرسل الى المحافظ الافرنجي لقلعة منيطرة بلبنان بناء على طلبه طبيبه النصرانى ثابت ليعالج بعض الأشخاص الذين الزمهم المرض الفراش ، وبعد عشرة أيام رجع ثابت فقوبل بالتهنئة على نجاحه السريع فى مداواة مرضاه فقال ردا على التهنئات ، ان الأمر على أى حال لا يدعو اليها فقد قدموا اليه عند وصوله مريضين ، رجلا يشكو من دملة

فى رجله ، وامرأة مريضة بذات الرئة ، فأخذ فى معالجتهما الأول باستعمال اللبخات والثانية بالغذاء المناسب والأدوية ، وكانت صحتهما تتقدم بحالة مرضية . واذا بطبيب افرنجى يتدخل مقرا بأن العلاج المتبع لا جدوى منه، واتجه الى الرجل سائلا اياه : اى الأمرين احب اليه أن يموت برجلين أم يعيش برجـــل واحدة ، فأجاب المريض مفضـــــلا الأمر الثانى وعلى ذلك استدعى الطبيب الأفرنجى فارسا قويا معه فأس وأمر بقطع ساق الرجل بضربة واحدة ولكن الفارس فشل ، وعند الضربة الثانية سال مخ السياق من العظم ومات الرجل فورا ، ثم وجـــــه الطبيب الأفرنجى التفاته الى المرأة وبعد أن فحصها اعلن أن شيطانا يسكنها ، وأن مكانه فى رأسها ، وامر بازالة شـــــعرها وان تعاود تناول الطعام العـادى الذى تتناوله زميلاتها ، وهو الثوم والزيت ، ولما ساءت حالتها صنع علامة على هيئة صليب فى رأسها بأن شقها شقا عميقا حتى ظهر العظم ، ومرخ فى الجرح ملحا ، واذ ذاك اسلمت المرأة ايضا روحها ، أما القصة الأخرى فقد رواها أســـــامة نقلا عن غليوم دى بورز Guillaume de Bures الذى صاحب أسامة فى سفر من عكا الى طبرية — قال غليوم : « كان عنـدنا فارس قوى البأس فى بلادنا وأشرف على الموت ، وكملجأ أخير قصدنا الى قسيس نصرانى ذى شأن عظيم لنعهد اليه بالمريض قائلين : تعال معنا لتفحص الفارس فلانا فوافق وسار معنا ، وكنا نعتقد أنه ما يكاد يضع يده عليه حتى يشفى ، وعندما رأى القسيس المريض قال : احضروا لى شمعا ، فأحضرنا بعضا منه ، فلينه وعمل منه سدادتين مثل عقدة الأصبع ووضع كل واحدة منهما فى كل من فتحتى الأنف فمات عند ذلك ، فصحنا قائلين : « انه ميت . . » فأجاب القسيس : نعم ، كان يتعذب فسددت أنفه حتى يموت ويستريح » (٦٩) .

واذا كنا ندرس اليوم تاريخ الطب الاسلامى ونعجب بكل ما حققـــه المســـلمون فى هذا الميدان ، وكيف أنهم حولوا الطب الى علم يقـــوم على أسس عقلية سليمة ، واذا كنا نعجب بما ألفه المسلمون فى علم الطب من

مؤلفات حوت تجاربهم فى الميدان وتجارب الأمم السابقة وشملت كل فروع الطب الوقائى والطب العلاجى فلابد أن نتذكر أن الاسلام بتعاليمه كان هو المحرك الكبير لتلك الحركة العلمية والتعليمية الطبية عند المسلمين ، لقد هيأت تلك التعاليم العقلية العربية لادراك أهمية الصحة والأسباب الوقائية والعلاجية للأمراض وبذلك استطاعت تلك العقلية أن تستوعب علوم الآخرين الطبية ، واستطاعت أن تضيف عليها ، وأن تبدع ما أبدعت فى حقل الطب الاسلامى على النحو الذى سنراه فى صفحات البحث التالية .

« مراجع الفصل الأول ومصادره »

(١ ، ٢) Ethel W. Putney: "Moslem Philosophy of Education" **The Moslem Wdrld,** 1961, vol 61 pp. 190, 191.

— W. Montgomery watt, **Islamic philosophy and theology,** Edinburgh University press, 1972.

— Bayard Dodge: **Muslim Education in the Medieval Times,** The Middle East Institute, Washington, 1962.

— A.S. Tritton: **Materials on Muslim Education in the Middle Ages,** London, Luzzac Co., 1957.

(٣) محمد جواد رضا . **الفكر التربوى الاسلامي مقدمة في أصوله الاجتماعية والعقلانية** ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٨٠ ، ص ٢١ .

(٤) **نفس المرجع** ، ص ٢٥ ، وراجع تفصيل هذا الرأى عنده في الصفحات من ص ٢١ ، ص ٢٧ .

(٥) راجع الأجزاء من ٨ — ١٠ من موسوعة جواد على . **المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام** ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٧١ ، وهى تعتبر أوفى دراسة عن العرب قبل الإسلام وتقع في عشرة أجزاء خصصت الأجزاء الثلاثة الأخيرة للعلوم والآداب في الجاهلية .

(٦) راجع ضرورة اعادة تقسيم الأعصر التاريخية للعالم الاسلامي في عمر فروخ — **تجديد التاريخ في تعليله وتدوينه ، اعادة النظر في التاريخ** دار الباحث ، بيروت ، ١٩٨٠ ، ص ١٦ — ص ٢٣ .

(٧) انظر على سبيل المثال : ابن جماعه . **تذكر السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم** ، حيدر آباد الدكن ، ١٣٥٣ هـ ، الغزالي **احياء علوم الدين** ، جـ ١ ، مرجع سابق ، وطاش كبرى زاده : **مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم** ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة ، ١٩٦٨ .

(٨) **نفس المرجع** ، ج ١ ، ص ٦ .

(٩) **نفس المرجع والمكان** .

(١٠) **نفس المرجع** ، ص ٩ — ص ١٠ .

(١١) الباحث : « **ديمقراطية التعليم فى عصور الازدهار الاسلامى دروس مستفادة** » بحث مقدم الى مؤتمر **ديمقراطية التعليم فى مصر** الذى عقدته رابطة التربية الحديثة بالتعاون مع صحيفة الأهرام فى الفترة من ٢/٤/ — ٥/٤/١٩٨٤ ، ص ٨ .

(١٢) هناك كثير من الدراسات التى توضح تلك النقطة مثل :
— العقاد : **التفكير فريضة اسلامية** ، دار القلـــم ، بيروت ، ط ٢ ، ١٩٧١ .

— أحمد محمد الحوفى : **القرآن والتفكير** ، المجلس الأعلى للشـــئون الاسلامية ، القاهرة ، ١٩٧٥ .

— عبد الرزاق نوفل : **القرآن والعلم الحديث** ، دار الكتاب العربى ، بيروت ، ١٩٧٣ .

— عبد الرزاق نوفل : **الله والعلم الحديث** ، دار الشعب ، القاهرة ، ١٩٧٧ .

— عبد الرزاق نوفل : **الاسلام والعلم الحديث** ، دار الشعب ، القاهرة ١٩٧٨ .

(١٣) محسن عبد الحميــد : **حركة التغير الاجتماعى فى القرآن** . مطبعة كاظم ، دبى ، ١٩٨٣ ، ص ٩٥ .

(١٤) **نفس المرجع** والمكان .

(١٥) على بن ابى طالب : « **نهج البلاغة** » شرح الامام محمد عبده ، دار المعرفة ، بيروت ، بدون .

(١٦) محمد شديد : **منهج القرآن فى التربية** ، دار الأرقم ، بيروت ، بدون ، ص ١٠ — ص ١٨ ، وانظر أيضا :

— ابن هشام : **السيرة النبوية** ، مطبعة صبيح ، ١٣٤٦ هـ ، القاهرة .

— ابن قيم الجوزية : **زاد المعاد فى هدى خير العباد** ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٨١ م .

(١٧) عبد الحى الكتانى : **نظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب الادارية** ، دار الكتاب العربى ، ج ١ ، بدون ، ص ٤٢ .

(١٨) **نفس المرجع** ، ص ٤٤ — ص ٤٧ .

(١٩) **نفس المرجع** ، ص ٤٧٣ .

(٢٠) **نفس المرجع** ، ص ٤٧٣ — ٤٨٠ .

(٢١) **نفس المرجع** ، ص ٤٨ .

(٢٢) **نفس المرجع** ، ص ٤٠ .

(٢٣) M.A. Shaben : **Islamic History, A new Interprtation**, Vol. 1, Cambrideg University Press, London, New York, Melbourne, 1971, pp. 50, 51.

(٢٤) عبد الحى الكتانى : **نظام الحكومة النبوية** ، مرجع سابق ، ص ٤٠ ، ص ٤١ .

(٢٥) **نفس المرجع** السابق ، ص ٤٨ .

(٢٦) **نفس المرجع** ، ص ٢٩ .

(٢٧) راجع فصل كتاب الرسول وصور من كتبة صلى الله عليه وسلم ، **نفس المرجع** ، ص ١١٤ — ص ١٧٢ .

(٢٨) انظر مثلا : أحمد شلبى : **التربية الاسلامية نظمها فلسفتها تاريخها** ، ط ١ ، النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٨٢ ، ص ٤٤ ، ص ٤٥ .

— سعيد اسماعيل علي : **معاهد التعليم الاسلامي** ، دار الثقافة ، القاهرة ، ١٩٧٨ ، ص ٤ — ص ٥ .

(٢٩) عبد الحى الكتانى : **نظام الحكومة النبوية** ، مرجع سابق ، ص ٤٩ .

(٣٠) **نفس المرجع** ، ص ٢٠٢ — ص ٢٠٤ .

(٣١) ماجـد عرسـان الكيلانى : **تطـور مفهوم النظرية التربوية الاسلامية** ، جمعية عمال المطابع التعاونية ، عمان ، ١٩٧٨ ، ص ٦٨ .

(٣٢) ملكة أبيض : **التربية والثقافة العربيـة الاسلامية فى الشـام والجزيرة خلال القرون الثلاثة الأولى للهجرة بالاستناد الى مخطوط تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر** ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٨٠ ، ص ١٦١ .

(٣٣) حسين عبـد الله محضر : **الجـديد فى الادارة المدرسية** ، دار الشروق ، جـدة ، ١٩٧٨ ، ص ١٦ .

(٣٤) ملكة أبيض : **التربية والثقافة العربية الاسلامية فى الشـام والجزيرة** ، مرجع سابق ، ص ٨٥ ، ص ٨٦ .

(٣٥) خليل داود الزرو : **الحياة العلمية فى الشام فى القرنين الأول والثانى للهجرة** ، دار الآفاق ، بيروت ، ١٩٧١ ، ص ١٩ ، نقـلا عن ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، تحقيق صلاح المنجد ، مطبعة المجتمع العلمى العربى ، دمشق ، ١٩٥١ ، جـ ١ ، ص ٣١٥ .

(٣٦) **نفس المرجع** ، ص ٢٠ .

(٣٧) ابن حزم : **الفصل فى الملل والأهواء والنحل** ، طبعة عبد الرحمن خليفة ، ١٣٤٧ هـ ، القاهرة ، جـ ١ ، ص ٦٦ .

(٣٨) **نفس المرجع** ، ص ٦٧ .

(٣٩) عبد الرحمن الحجى : **نظرات فى دراسة التاريخ الاسلامى** ، دار القلم ، دمشق ، بيروت ، ١٩٧٩ ، ص ٢٥ — ص ٥٤ .

(٤٠) ملكة ابيض : **التربية والثقافة العربيـة الاسلامية فى الشام والجزيرة** ، مرجع سابق ، ص ٨٢ .

(٤١) **نفس المرجع** ، ص ٨٣ .

(٤٢) **نفس المرجع** ، ص ٨٥ .

(٤٣) عمر فروخ : **تجديد التاريخ فى تعليله وتدوينه ، اعادة النظر فى التاريخ** ، مرجع سابق ، ص ٢٥٨ ، ص ٢٥٩ .

(٤٤) احمد شوقى الفنجرى : **الطب الوقائى فى الاسلام** ، الهيئة المصرية العامة ، القاهرة ، ١٩٨٠ .

(٤٥) **نفس المرجع** ، ص ٢١ .

(٤٦) محمود رجائى المصطيهى وآخرون : « استعمال السلوك لنظافة الفم وصحته » من **ابحاث واعمال المؤتمر العالمى الاول عن الطب الاسلامى** ، مرجع سابق ، ص ٤٠٧ ، ص ٤١١ .

(٤٧) أحمد شوقى الفنجرى : **الطب الوقائى فى الاسلام** ، مرجع سابق ، ص ١٧ ، ص ٣٤ .

(٤٨) **نفس المرجع** ، ص ٣٥ — ص ٤٠ وللمزيد من الأحاديث الواردة فى هذا الباب انظر :

— ابن قيم الجوزية : **الطب النبوى** ، دار احياء الكتب العربية ، القاهرة ، ١٩٥٧ ، ص ٢٨ — ص ٢٩ ، ص ٣٤ — ص ٣٥ .

— محمود على البار : **العدوى بين الطب وحديث المصطفى** ، الدار السعودية للنشر والتوزيع ، ١٩٨١ .

(٤٩) احمد شوقى الفنجرى : **الطب الوقائى فى الاسلام** ، مرجع سابق ، ص ٤٢ — ص ٤٦ .

— محمود صدقى : **رسالة الطب فى ايام العرب وقوانين الصحة عند المسلمين** ، ترجمة حافظ صدقى عن الفرنسية ، مطبعة ابو الهول القاهرة ، ١٩١٠ ، ص ٢٢ ، ص ٢٤ .

— محمد عبد الحميد البوشى : **الاسلام والطب** ، دار القلم ، القاهرة ، ١٩٦٥ ، ص ٤٣ — ص ٦١ .

(٥٠) احمد شوقى الفنجرى : **الطب الوقائى فى الاسلام** ، مرجع سابق ، ص ٥١ — ص ٥٣ .

— عبد الحميد دياب ، أحمد قرقوز : **مع الطب فى القرآن الكريم** ، مؤسسة القرآن ، دمشق ، ١٩٨٠ ، ص ١٢٧ — ص ١٩٩ .

— السيد الجميلى : **الاعجاز الطبى فى القرآن** ، دار التراث العربى ، القاهرة ، ١٩٨٠ ، ص ٦٢ — ص ٨٢ ، ص ١١٠ — ص ١٢٠ .

(٥١) أحمد شوقى الفنجرى : **الطب الوقائى فى الاسلام** ، مرجع سابق ص ٥٢ — ص ٧١ .

— الحاج محمد وصفى : **القرآن والطب** ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، ص ٢٠٦ — ص ٢٠٨ .

— شوكت الشطى : **الطب فى الاسلام والطب** ، مطبعة جامعة دمشق ، ١٩٥٩ ، ص ٢٥٨ — ٢٦١ .

(٥٢) أحمد شوقى الفنجرى : **الطب الوقائى فى الاسلام** ، مرجع سابق ، ص ١٠٩ — ص ١٥٤ .

— السيد الجميلى : **الاعجاز الطبى فى القرآن** ، مرجع سابق ، ص ٢٤ — ٦٠ .

— عبد الحميد دياب ، أحمد قرقوز : **مع الطب فى القرآن الكريم** ، مرجع سابق ، ص ٦٩ — ص ٩٦ .

(٥٣) D. Radnicla : **An Introdution to Man And His Development**. New York, Appleton Century Crofer, 1966, pp. 375 — 376 & Herbert W. Armetrong. **The Modern Romans, The Decline, of Western Civilization**, Ambassador Press, Pasadena, U. S. A. . 1975.

— جمعية الاصلاح والتوجيه الاجتماعى : **المجتمع العارى بالوثائق والأرقام** ، مطبعة كاظم ، دبى ، الامارات العربية المتحدة ، ١٩٨٣ .

(٥٤) راجع : قيس النورى : الاغتراب اصطلاحا ومفهوما وواقعا « **عالم الفكر** » ، العدد الاول ، ابريل — يونية ١٩٧٩ ، سيد صبحى : **الشباب وازمة التعبير** ، المطبعة التجارية الحديثة ، القاهرة ، ١٩٨٣ .

Richard D. Aeth, **Youth and Changing Secondary School**, Hamborg, Unesco institute for Education, 1973, pp 11 — 16.

(٥٥) احمد شوقى الفنجرى : **الطب الوقائى فى الاسـلام** ، مرجع سابق ، ص ٧٩ — ص ١٠٨ ، يوسف القرضاوى : **الايمان والحيـاة** ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ١٩٧٧ ، ص ٧٤ — ص ٣٤٩ .

(٥٦) ابن قيم الجوزية : **الطب النبـوى** ، مرجع سابق ، ص ١ ثم تفصيل ذلك من ص ١ — ص ١٨ .

(٥٧) الحافظ ابن الجوزى : **الطب الروحانى** ، مرجع سابق ص ٥ .

(٥٨) **نفس المصدر** ، الامام الشيرازى : **الطب الروحانى** ، مرجـع سابق ، ابن حزم الأندلسى : **رسالة فى مداواة النفوس وتهذيب الأخلاق والزهد فى الرذائل** ، مرجع سابق .

(٥٩) خالص جلبى كنجو : **الطب محراب الايمان** ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٨٢ ، ص ٨ .

(٦٠) من الدراسات الجادة على هذا الطريق .

— سيد محمد عثمان : **المسئولية الاجتماعية والشخصية المسلمة دراسة نفسية تربوية** ، الأنجلو ، القاهرة ، ١٩٧٩ .

— حسن الشرقاوى : **نحو علم نفس اسلامى** ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القـاهرة ، ١٩٧٦ .

— عامر يس محمد النجار : **الآراء النفسية لدى صوفية القرن الثالث الهجرى فى ضوء علم النفس الحديث** ، رسالة دكتوراه غير منشورة كلية العلوم ، جامعة القـاهرة ، ١٩٨٠ .

Malik Badri : **The Dilema of Psyohologists,** M. W. H., London Publishers, 1979.

(٦١) أحمد شوقى الفنجرى : **الطب الوقائى فى الاسـلام** ، مرجع سابق ، ص ٧٣ — ص ٧٨ .

— باقر شريف : **النظام التربوى فى الاسلام دراسة مقارنة** ، دار التعارف للمطبوعات ، بيروت ، لبنـان ، ١٩٧٩ ، ص ٣٧١ — ص ٤٠٢ .

— على القاضى : **اضواء على التربيـــة الاسلامية** ، دار الانصار ، القـــاهرة ، ١٩٧٩ ، ص ٣٠ — ص ٣١ .

(٦٢) محمد زكى سويدان : **الصلاة صحة ووقاية وعلاج** ، مطابع شركة الاعلانات الاهلية ، القـــاهرة ، ١٩٧٦ ، ص ٢٠٦ — ص ٢٠٧ .

(٦٣) ناجى موريس : « المفهوم الاسلامى للشفاء » من **ابحاث واعمال المؤتمر العالمى الأول عن الطب الاسلامى** ، مرجع سابق ، ص ٦٥١ .

(٦٤) **نفس المرجع** ، ص ٦٥١ ، ص ٦٥٢ ، أحمد شوقى الفنجرى : **الطب الوقائى فى الاسلام** ، مرجع سابق ، ص ١٥٦ .

(٦٥) ابن قيم الجوزية : **الطب النبـــوى** ، مرجع سابق ، ص ٨ .

(٦٦) **نفس المرجع** ، ص ١٢ .

(٦٧) **نفس المرجع** ، ص ٨ ، ص ٩ ، احمـــد شوقى الفنجرى : **الطب الوقائى فى الاسلام** ، مرجع سابق ، ص ١٦١ .

(٦٨) **نفس المرجع** ، ص ١٠٧ — ص ١١٥ .

(٦٩) ادوارد ج. براون : **الطب العربى** ، ترجمـــة احمد شوقى حسن ، مؤسســـة سجل العرب ، القـــاهرة ، ١٩٦٦ ، ص ٩٣ .

الفصل الثانى

الاعداد التربوى للطبيب عند المسلمين

المرحلة الأولى : (التعليم الابتدائى)

Primary Education.



الاعداد التربوى للطبيب عند المسلمين

التعليم الابتدائى :

قبل التحدث عن الاعداد التربوى والمهنى للطبيب عند المسلمين كان من اللازم ان نتعرض اولا للمرحلة الدراسية التى تسبق المرحلة التخصصية وهى مرحلة التعليم الابتدائى (Primary Education) ، وذلك أن التعليم فى تلك المرحلة الابتدائية سوف تنعكس آثاره على التلميذ فى المرحلة الدراسية التالية وتكسب الطالب المسلم الطابع الخاص المميز له كانسان مسلم اولا ، قبل ان يكون انسانا متخصصا فى حقل الطب ثانيا . ولقد آثر الباحث أن يستخدم هنا مصطلح التعليم الابتدائى لأنه يحمل فى ثناياه اشارة الى الترتيب والى أن هناك مرحلة تالية سيطلق عليها الباحث التعليم الأعلى (Further Education) والتى ستكون هى مرحلة الاعداد التربوى والمهنى للطبيب . غير انه ينبغى الاشارة الى ان تلك المرحلة الابتدائية عند المسلمين لم تكن تعنى بالضرورة ان كل الأطفال الذين تلقوا التعليم الابتدائى ينتقلون الى المرحلة التالية بل أحيانا ، كانت تلك المرحلة تعتبر تعليما اوليا اساسيا ، (Elementary Education) ينتقل الأطفال بعده الى الحياة العملية والمهنية . أى أن تلك المرحلة كانت مرحلة ابتدائية بالنسبة لبعض الأطفال ذوى الاستعدادات العلمية والعقلية ، وكانت مرحلة منتهية بالنسبة للآخرين ذوى الاتجاهات العملية والمهنية (١) .

ورغم ان الدراسة الحالية ليست المكان المناسب لعرض تربية الطفل عند المسلمين منذ ولادته وحتى دخوله مرحلة التعليم ، الا انه ينبغى ان نذكر هنا ان ادبيات التربية الاسلامية لم تهمل طفل ما قبل التعليم بل اهتمت به فى جميع مراحل نموه : اهتمت به وليدا ، وتناولت كل ما يتعلق بغذائه رضيعا ، ونومه ، ورضاعته وفطامه ، ونظافته ، واستحمامه

ورياضته ثم تناولت مرحلة طفولته المبكرة وكل ما يتعلق بهـــا من رعاية أخلاقية وبدنية ووجدانية ، والذى يطالع ما كتبه المسلمون عن طفل ما قبل التعليم ، يدهش كيف اتهمت التربية الاسلامية بعد ذلك أنها تربية تتجاهل الطفل فى سنواته الأولى ولا تتحدث عنه ولعل فى مراجعـــة بعض كتب التراث التربوى ما يوضح للدارسين مدى احتفال المسلمين بطفل ما قبل التعليم (٢) .

وعندما نركز هنا على « التعليم الابتدائى » كمرحلة اولى فى اعـــداد الطبيب نحب أن نلفت النظر منذ البداية أن هذا التعليم الابتدائى لم يكن نظاما مغلقا Closed System معلوم البداية محدد النهـــاية ، ولم يكن محصورا فى مؤسسة تعليمية واحدة أو سن دراسية محددة . بل كانت تلك المرحلة مثلها مثل المرحلة القادمة نظاما مفتوحا Open System يقبل عليه الطالب عندما يشاء وينتهى منه عندما يشعر ويشعر اساتذته معه انه أهل لذلك (٣) . وقد يقضى تلك المرحلة فى « الكتاب » أو ينتهى منها على يـد مؤدب يحضر اليه فى منزله وقد تتسع مواد الدراسة وقد تضيق وقد تطول مدة الدراسة وقد تقصر كل ذلك حسب ظروف الطالب واســـتعداداته . ومن ثم فانه من الخطأ أن يحاول بعض الدارسين ان يطبق أشكال « النظم المغلقة » على « التعليم الاسلامى » وسنلقى هنا نظرات سريعة على تلك المرحلة الابتدائية تبين طبيعتها ومحتواها واهدافها ووسائلها لتحقيق تلك الأهداف .

١ — مؤسسات التعليم الابتدائى :

سبق أن ذكرنا فى الفصل الأول من تلك الدراسة — أن المســـلمين قد عرفوا « المكاتب » أو « الكتاتيب » لتعليم القرآن قراءة وكتابة منـــذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم كما يرى الباحث — وهو رأى ما زال يحتاج الى مزيد من الأدلة والتدعيم — ولكن الذى لا شـــك فيه أنهم قد عرفوا هذا « الكتاب » فى عهد عمر بن الخطاب على الأقل . يقول — ابن حزم : « ثم مات أبو بكر وولى عمر ففتحت بلاد الفرس طولا وعرضـــا وفتحت الشام والجزيرة ومصر كلها ولم يبق بلد الا وبنيت فيه المساجد

ونسخت فيه المصاحف وقرأ الأئمة القرآن وعلمه الصبيان فى المكاتب شرقا وغربا » (٤) . اذ من الطبيعى أن يهتم المسلمون بكتاب الله قراءة وكتابة ويتخذونه محورا لتعليم أطفالهم منذ بداية الدعوة .

ويقف الدارسون للتربية الاسلامية طويلا أمام المكان الذى كان يوجد به « الكتاب » هل كان بالمسجد ؟ أم كان مستقلا ؟ ويميل اكثرهم الى ان « الكتاب » قد بدأ فى المسجد ثم صار بعد ذلك مستقلا ، ويرون أن استقلال الكتاب عن المساجد كان بسبب عبث الصبيان الذين لا يتحفظون من النجاسة مما جعل الفقهاء يمنعون تعليم الصبيان فى المسجد ويأمرون المعلمين ان يتخذوا لهم أماكن منفصلة عن المساجد لتعليم الصبيان (٥) « يقول أحمد شلبى » : « وردت توصيات كثيرة بالا يكون الكتاب فى المسجد، ومن ذلك ما قاله الامام مالك حينما سئل عن ذلك « لا ارى ذلك يجوز لأن الأطفال لا يتحفظون من النجاسة » وقد ورد فى كتب السنة ما يؤيد ذلك فقد نصت على انه « لا يجوز تعليم الأطفال فى المسجد لأن النبى صلى الله عليه وسلم أمر بتنزيه المساجد من الصبيان والمجانين لأنهم يسودون حيطانها ولا يتحرزون من النجاسات بل يتخذ لتعليمهم حوانيت فى الدروب ، وأطراف الأسواق » (٦) . ورغم ما قاله الفقهاء فان هناك شواهد تاريخية كثيرة تؤكد أن « الكتاب » ظل أحيانا كثيرة فى المسجد . والذى يقرأ رحلة ابن جبير ، ورحلة ابن بطوطة يجد ذكر الكثير من الحلقبات التى التف فيها الأطفال فى المسجد حول معلم القرآن ، وقد ذكر ابن حوقل أمثلة أخرى لهذا النوع (٧) . ويعتبر أحمد شلبى هذا تجاهلا لتوصيات الرسول وتحذيرات الفقهاء ورجال السنة (٨) . فكيف كان ذلك ؟ المتأمل فى الأمر يجد أن الكتاب ظل طوال العصور الاسلامية وحتى عصرنا الحديث غير مقتصر على مكان واحد ، فقد وجد مستقلا فى الغالب ولكن وجد فى « المسجد » أحيانا أخرى ، ولم يكن فى ذلك اهمال لتوصيات الرسول أو تحذيرات الفقهاء ورجال السنة ، ذلك أن الأطفال لهم مكانهم فى المسجد عند أداء الصلاة خلف صفوف الرجال مباشرة وقبل صفوف النساء ، مما يدل على أن وجود كتاب لهم بالمسجد لم يكن بالأمر المكروه دينيا فى حد

ذاته ، وانما تأتى الكراهة لأسباب أخرى مثل : هل يأخذ المعلم أجرا على تعليمه أم لا ؟ وهل يقتصر على تعليم القرآن أم يضم الى ذلك موضوعات أخرى ؟ وكم عدد الأطفال فى كل حلقـــة ؟ وما هو الوقت الضرورى لأداء هذا العمل التعليمى ؟ وما هو عمر الطلاب الذين يحضرون الكتاب ؟ الى غير ذلك من الأسباب التربوية التى قد تجعل من المستحسن أن يوجـــد الكتاب خارج المسجد لمصلحة الأطفال التعليمية والتربوية .

ويبدو أن عدد الكتاتيب قد ازداد زيادة سريعة وضخمة حتى أصبح بكل قرية كتاب بل ربما وجد بالقرية الواحدة أكثر من كتاب . وقد ذكر ابن حوقل انه عد حوالى ٣٠٠ معلم كتاب فى مدينة واحدة هى مدينة بلرم فى صقلية (٩) . ولا شك أن تلك الزيادة تعكس الطلب الجماهيرى عـــلى التعليم من ناحية ، وما أتيح لهذا الطلب الجماهيرى من وسائل الاشباع من ناحية أخرى . فقد أوجب الاســـلام على الآباء أن يعلموا أولادهم اذا كانوا قادرين على ذلك (١٠) ، وفى حالة عدم القدرة تحفـــل كتب التراجم بأسماء أســاتذة علموا الطلاب مجانا ، وطلاب تعلموا من الأوقاف التى كان يحبسها المحسنون من محبى العلم والمعرفة بجوار ما كان يسود المجتمع الاسلامى من شعور بالتكافل الاجتماعى بين أفراده ، مما أتاح لكثير من الطلاب أن يتعلموا على نفقة صـــديق أو قريب أو جار .. الخ . كذلك وجدت مكاتب للأيتام والفقراء خاصة لرعاية شئونهم وتقديم « المعـــاليم النقدية والعينية » لهم ولمؤدبيهم (١١) ، وأقبل الحكام وغيرهم على انشاء تلك الكتاتيب للفقراء ، وغير القادرين حتى أن المنتصر قام بانشاء ٢٧ مكتبا فى قرطبة وحدها لتوفير التعليم المجانى لأبناء الفقراء وأوقف حوانيت السراجين ليدفع منها مرتبات المعلمين (١٢) .

بجوار هذه الكتاتيب الموجودة فى المسجد أو بجواره أحيانا والمستقلة احيانا أخرى ، وتلك المكاتب العامة التى يدفع أولياء الطلاب أجر تعليـــم أولادهم فيها وتلك التى لا يدفع الطلاب الأيتام أو الفقراء نرى شـــواهد كثيرة على أن هذا التعليم الابتدائى كان يتم أحيـــانا فى المنازل على أيدى المعلمين الخصوصيين يحضرهم الآباء من أهل اليســـار لتعليم أولادهم

وتأديبهم . يقول ابن سينا « واحضرت معلم القرآن ومعلم الأدب وأكملت العشر من العمر وقد أتيت على القرآن وعلى كثير من الأدب حتى كاد يقضى منى العجب » (١٣) . وسنرى أن ابن سينا لم يؤيد مثل هذا التعليم الخصوصى وفضل عليه أن يكون التعليم فى تلك المرحلة « تعليما جماعيا » غير خصوصى ، ونصح بضرورة تربية الطفل مع غيره لما فى ذلك من فوائد تربوية تعود على الطفل . يقول ابن سينا « وينبغى أن يكون مع الصبى فى مكتبه صبية من أولاد الجلة (العظام أو السادة) حسنة آدابهم مرضية عاداتهم فان الصبى عن الصبى القن وهو عنه آخذ وبه آنس — وانفراد الصبى الواحد بالمؤدب أجلب الأشياء لضجرهما ، فاذا راوح المؤدب بين الصبى والصبى كان ذلك أنفى للسآمة وابقى للنشاط واحرص للصبى على التعليم والتخرج فانه يباهى الصبيان ، والمحادثة تفيد انشراح العقل وتحل منعقد الفهم لأن كل واحد من اولئك انما يتحدث بأعذب ما رأى واغرب ما سمع فتكون غرابة الحديث سببا للتعجب منه والتعجب منه سببا لحفظه وداعيا الى التحدث به . ثم انهم يترافقون ويتعاوضون الزيارة ويتكارمون ويتعارضون الحقوق ، وكل ذلك من أسباب المباراة والمباهاة والمساجلة والمحاكاة وفى ذلك تهذيب لأخلاقهم وتحريك لهممهم وتمرين لعاداتهم » (١٤) .

وهكذا تعددت أماكن التعليم الابتدائى فهو يتم فى كتاب ملحق بالمسجد أحيانا أو مستقل أحيانا أخرى ، وقد يتم فى المنازل عن طريق معلم أو مؤدب خصوصى ، وقد يكون فى مؤسسات ذات مصروفات أو أخرى مجانية ، كل ذلك وفق ظروف الطالب وظروف المجتمع الذى يعيش فيه .

اهداف التعليم الابتدائى :

لعل اهم ما يميز التعليم الاسلامى بصفة عامة هو اختلاف هدفه عن غيره من النظم التربوية ، وهو اختلاف قلما يدرك الدارسون أهميته . فاذا كانت النظم التعليمية تتفق على هدف واحد هو اعداد المواطن الصالح ، واذا كان لكل أمة ولكل مذهب فلسفى تحديده لما هو « المواطن الصالح » فان هدف التعليم الاسلامى يتجاوز حدود المواطنة ليعد الانسان

الصالح الذي تعتبر المواطنة بكل متطلباتها مجرد بعد من ابعاده . ان التربية الاسلامية « تستهدف أولا غرس البعد العقائدى لدى الفرد . وهذا البعد العقائدى هو الأساس الذى ستبنى عليه التربية الاسلامية فيما بعد كافة الأبعاد الأخرى من عبادات واخلاق ونظم سياسية واقتصادية وعسكرية وصحية » .. الخ ، والذين لا يدركون مقدار أثر هذا البعد العقائدى على التربية يخطئون أحيانا وهم يظنون أن الهدف من التعليم الابتدائي فى الاسلام كان هدفا دينيا بحتا ولا علاقة له بالدنيا وعمارتها . بل أن بعضهم قد ذهب الى أن التربية الاسلامية من خلال حديثه عن الغزالي انما « هى تربية للآخرة وليست للدنيا ، تربية لمجتمع لا يتغير الا الى أسوأ ولا يسير الا الى الوراء ، وهو مجتمع لا يسيطر على نفسه ولا يوجه ذاته بقدر ما يخضع لسيطرة وتوجيه قوة خارجية عنه .. الله .. الذى خلقه ويسيطر عليه سيطرة مطلقة ، ومن ثم فهو مجتمع لا هدف له الا أن يقيم دين الله ، بأن يهيىء الفرصة لعبيده لممارسة شعائر الدين » (١٥) . وكان الهدف من اقامة « دين الله » مجرد ممارسة « الشعائر الدينية » أو العبادات بالمعنى الدينى الضيق . ونسى هؤلاء الدارسون أو لعلهم يجهلون أن اقامة دين الله يشمل كل جوانب الحياة الانسانية ، كذلك فان الخضوع لله ليس مجرد خضوع أعمى لسلطة « خارجية مطلقة » بل هو خضوع عاقل يحرر الانسان من جميع السلطات التى تريد أن تستبد به على الأرض .

واذا كانت أدبيات التربية الاسلامية تركز على ضرورة الاهتمام بهذا الجانب العقائدى فى تلك المرحلة وكل ما يتصل بتدعيم الايمان وتقويته فى نفس الطفل فذلك لأن هذا هو الأصل الذى تبنى عليه سائر الفروع والتكاليف الاسلامية . ويشمل هذا الهدف العقائدى مساحة واسعة من اهتمام الفكر التربوى الاسلامى فى تلك المرحلة بالذات . بل وسيظل من أهداف المرحلة التالية أيضا على ما سنبين فيما بعد . ان اعداد الانسان « العابد » لله بالمعنى الاسلامى الواسع للعبادة ، والذى يشمل كل تصرفات الانسان وسلوكه وأقواله فى تلك الحياة هو الهدف الأسمى للتربية الاسلامية (١٦) .

وسوف ينعكس ذلك على منهج تلك المرحلة من حيث المحتوى ودرجة الاهتمام بكل موضوع دراسى ، وعلاقة المعلم بطلابه وعلاقته بالآباء والمجتمع والسلطة ... الخ .

مناهج التعليم الابتدائى :

سبق أن ذكرنا أن التعليم الابتدائى كان يتم فى أماكن متعددة اما داخل المسجد أو فى الكتاتيب او فى المنازل والقصور ، وطبيعى أن يختلف المنهج اتساعا وضيقا باختلاف نوعية المؤسسة وباختلاف الأهداف الخاصة من هذا التعليم . ولما كانت طبيعة التعليم الاسلامى كما سبق أن ذكرنا تعليما مفتوحا (Open system) فمن الخطأ أصلا أن يصر الدارسون لهذا التعليم على وضع مراحل دراسية محددة له ، ووضع مناهج محددة لكل مرحلة بل وربما وضع نظم امتحانات . والذى يقرأ فى أدبيات التربية الاسلامية يتأكد له أنه لم توجد تلك التقسيمات العصرية الى مراحل تعليمية ولم توجد المتطلبات الدراسية لكل مرحلة . ولكن الطالب كان يقبل على العلم فى تلك المرحلة ليأخذ منه على قدر استعداده وما يريد له ولى أمره فى المستقبل . فهو اذن نظام تعليمى مفتوح يقوم على حرية الطالب وحرية أولياء الأمور فى اختيار ما يريدون من دراسات وما يريدون من تعليم أعلى أو مجرد تعليم أولى يكسب الانسان « شخصيته الاسلامية » ثم يتجه بعد ذلك الى حرفة أو مهنة . ولذلك فان أدبيات التربية الاسلامية تذكر موضوعات عديدة يمكن دراستها فى تلك المرحلة مثل حفظ القرآن ، وبعض الأحاديث ، وتعلم الكتابة ومبادىء النحو والحساب والشعر والتاريخ والقصص ... الخ . وتترك للطالب حرية أن يدرس منها ما يشاء من موضوعات .

ولا شك أن موضوع « تعلم القرآن قراءة وكتابة » كان هو الموضوع المحورى فى هذا التعليم مهما كانت المؤسسة التى تقدمه ، ومهما كانت طبيعة المرحلة التعليمية القادمة . فسواء اتجه الطالب فيما بعد الى الدراسات الأدبية ، أو الدراسات الدينية أو الدراسات العلمية أو اتجه اتجاها مهنيا أو حرفيا .. الخ فان حفظ القرآن وتعلمه قراءة وكتابة كان

شعار التعليم الاسلامى واهم سماته على الاطلاق . ولم يقبل المسلمون على تعليم القرآن بحماس دينى يفتقد المبررات العقلية والأسس الاجتماعية بل كان اقبالهم على ذلك بناء على ادراك سليم بأن حفظ القرآن فى تلك المرحلة يكسب الطفل الطابع الاسلامى الأصيل . يقول احمد فؤاد الأهوانى : « وكان حفظ القرآن او حفظ ذلك القدر اليسير منه كافيا فى طبع الأبناء على التربية الاسلامية الصحيحة ، فالقرآن ديوان المسلمين فيه جوهر العقيدة وفيه تفصيل العبادات وفيه ارشاد للسلوك الفاضل والطريق المستقيم » (١٧) . ويوضح ابن خلدون ذلك بقوله : « اعلم أن تعلم الولدان للقرآن شعار الدين اخذ به اهل الملة ودرجوا عليه فى جميع امصارهم لما يسبق منه الى القلوب من رسوخ الايمان وعقائده من آيات القرآن وبعض متون الحديث . وصار القرآن أصل التعليم الذى تبنى عليه ما يحصل بعد من الملكات وسبب ذلك ان التعليم فى الصغر اشد رسوخا وهو اصل مابعده . . . لأن السابق الأول للقلوب كالأساس للملكات وعلى حسب الأساس وأساليبه يكون ما ينبنى عليه » (١٨) . لذلك حرص المسلمون حرصا بالغا على ان يبدأ الطفل بحفظ القرآن وخشوا أن ينشغل بأى موضوع آخر ، او ينصرف عن التعليم كلية دون أن يحفظ جزءا مناسبا منه . يقول ابن خلدون : « ووجه ما اختصت به العوائد من تقدم دراسة القرآن ايثارا للتبرك والثواب وخشية ما يعرض للولد فى جنون الصبا من الآفات والقواطع عن العلم فيفوته القرآن ، لأنه ما دام فى الحجر — لم يصل الى سن البلوغ — منقاد للحكم ، فاذا تجاوز البلوغ وانحل من ربقة القهر فربما عصفت به رياح الشبيبة فألقته بساحل البطالة — عدم التعليم — فيغتنمون فى زمان الحجر وربقة الحكم تحصيل القرآن لئلا يذهب خلوا منه » (١٩) والذين يحاربون « حفظ القرآن » من رجال التربية المعاصرين فى تلك المرحلة بدعوى عدم ادراك الطفل لمعانى القرآن ، أو حتى عدم جدوى حفظه فى تلك المرحلة المبكرة (٢٠) ، لا يدركون ظروف المجتمع الاسلامى الثقافية التى جعلت من حفظ القرآن أهم الموضوعات على الاطلاق ، كذلك فانهم للأسف نادرا ما يدركون ما يمثله حفظ القرآن

بالنســـبة للمتعلم ، اذ أن حفظه فى صغره سيمده فيما بعد بالنبع الثقافى الثرى الذى سيستمد منه شواهده ، وأدلته على ما سيصادفه من مشكلات عقلية وفكرية .

وبجوار تعليم القرآن الذى هو محور المنهج الإســـــلامى فى تلك المرحلة تعتبر العبادات الاسلامية محورا آخر من هذا المنهج . فالطفـــل لابد أن يتعلم كيف يؤدي ما كلف به من عبادات ، وعلى المعلم مراعاة ذلك فيعلم الأولاد الصلاة والوضوء لها وآدابها وأحكامها ويدربهم على الصيام عندما يطيقون ويأمرهم بالصلاة اذا كانوا بنى سبع سنين ويضربهم عليها اذا كانوا بني عشر (٢١) ، ويراقب احوالهم فى آدابهم وهديهم وأخلاقهـــم باطنا وظاهرا فمن صدر منه من ذلك ما لا يطيق عالجه المعلم بما يتناسب من تأديب أو زجر أو لوم أو عقاب (٢٢) .

ثم ياتى بعد ذلك ضرورة أن يتعلم الطفل الكتابة والأدب ومبـــادىء النحو والحساب والحديث والتاريخ والسير ، ويؤكد المربون المسلمون على ضرورة اختيار الأشعار السهلة التي قيلت فى فضل الأدب ومدح العلم وذم الجهــل وما حث على بر الوالدين واصطناع المعروف (٢٣) وأن نبعــد عن الطفل أشــــــعار الهزل والمجون فانها تغرس فى نفوس الأطفـــال بذور الفســـــــاد (٢٤) ، وكذا الأشــــــعار التى فيها ذكر الحمية والخنا أو قبح الهجاء (٢٥) ، فالهدف الأخلاقى منها واضح فى اختيار النصوص بجـــوار الهدف الأدبى الذى يتمثل فى اكتساب الطفل ملكة اللغة ، واستخدام تلك الأشعار للاستشهاد بها فيما يريد بيانه (٢٦) ، أما سيرة الرسول والصحابة واحاديث الأخيار وحكايات الأبرار واحوالهم فهى تغرس فى نفس الطفل حب الصالحين ومحاولة تقليدهم (٢٧) ، يقول الأهوانى : « وسيرة الرسول هى قدوة المسلمين كما قال تعالى : « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » ، وقال : « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر » لذلك كان تعليم سيرة الرسول ذات فائدة خلقية عظيمة لأنه يضرب الأمثال للصـــبيان فى الأخلاق الفاضـــلة وكذلك تاريخ العرب وهو المعروف بأيام العرب وأخبـــــارهم والذي نص عليه القابسى

وغير القابسى من المربين مع المواد التى يتعلمها الصبيان انما الغرض منه سوق العبر الفاضلة والعظات الخلقية التى يقتدى بها الصبيان (٢٨) .

والذى لا شك فيه ان الطفل المسلم لم يكن مجبورا على أن يدرس كل هذه العلوم والمعارف بل كان ينال منها ما يستطيع أن يحصله ، واذا استثنينا حفظ القرآن وتعلم الكتابة والعبادات الاسلامية فهناك ما يؤكد أن الطفل المسلم كان ياخذ من المواد الأخرى وفق اختياره ، ولم تذكر أدبيات التربية الاسلامية انها كانت جميعا اجبارية ، وعلى سبيل المثال فان المحدثين والفقهاء كانوا يرون أن الركن الاساسى فى التعليم الابتدائى هو تعلم القرآن وكانوا يكتفون به كشرط لقبول الطلاب فى حلقاتهم (التعليم الأعلى) .

وعندما كان الأوزاعى يرى حدثا بين الجالسين فى حلقته كان يقول له : يا غلام : هل قرأت القرآن ؟ فان قال نعم ، اختبر حفظه ، فان تبين له انه لا يعرف القرآن قال له : اذهب تعلم القرآن قبل أن تطلب العلم (٢٩) . واذا كان الفقهاء والمحدثون قد اكتفوا بذلك فلعل الأدباء والأطباء والحكماء .. الخ لم يكتفوا به ، بل من الطبيعى أن يفضل الادباء من حصل حظا من الأدب والشعر ، وأن يتطلب الأطباء والحكماء دراية أكبر بالحساب .. الخ ، ومن ثم فان المنهج كان يضيق ويتسع وفق ارادة الطالب وولى أمره وما يراه المعلم من استعدادات لدى الطفل . وليس بصحيح ما ذهب اليه محمد جواد رضا من أن منهج هذه المرحلة كان واحدا لجميع الأطفال فى العصر الاسلامى الأول ثم أصبح مختلفا بعد ذلك فى العصر الأموى والعصر العباسى بصورة خاصة وذلك بسبب ظهور التمايز الطبقى فى التعليم ، حيث ظهر بسبب هذا التمايز الطبقى مناهج متعددة فى تلك المرحلة : فهناك منهج الكتاتيب التى تضم أبناء الطبقات المتوسطة وسواد الشعب ، ويقتصر على تعليم القراءة والكتابة والحساب وبعض الشعر ، وهناك منهج التعليم المخصوص فى المنازل والقصور والذى يتمتع به أبناء الأمراء والأغنياء والوزراء ، ويتسع هذا المنهج ليشمل الأدب والحكمة والتفسير والكلام والشعر والتاريخ والمنطق

والفلسفة ، ثم هناك منهج تعليم الطبقات الحاكمة أبناء الخلفاء وولاة العهد الذى يشمل الاطلاع الواسع فى الثقافة العربية والاسلامية وآدابها وكلام الملوك والحكماء وعلوم الأمم السالفة ، وقد تميز منهج تلك الفئة كما يذكر الباحث بدرجة عالية من التعقيد من حيث المحتوى والهدف نظرا للمسئوليات الاجتماعية والسياسية التى كان يهيأ لها هذا النوع من الطلاب (٣٠) . والأقرب الى الواقع التاريخى لتطور الثقافة الاسلامية الا ننسب تعدد المناهج فى تلك المرحلة الى « التمايز الطبقى » وما يقترن به من عوامل اقتصادية ، بل أن أرجع ذلك الى ازدهار العلوم والمعارف الاسلامية ، وما اقترن بذلك من ضرورة الأخذ بمبدأ التخصص العلمى والتربوى ، ونظرة واحدة الى كتاب مثل مفتاح السعادة ومصباح السيادة لطاش كبرى زادة ، أو الفهرست لابن النديم او كشف الظنون على اسامى الكتب والفنون لحاجى خليفة ترينا مقدار ما وصلت اليه الثقافة الاسلامية من تعدد العلوم والمعارف فى تلك العصور بحيث اصبح من المحال أن يلم الطالب بكل هذه العلوم والمعارف ، واصبح من الضرورى أن يتخصص الطالب فى فرع او اكثر من فروع العلم الاسلامى (٣١) . ومن هنا ظهرت الاتجاهات والمدارس التربوية المختلفة فهناك الاتجاه الفقهى فى التربية ، وهناك الاتجاه الفلسفى والاتجاه الصوفى ، والاتجاه الأدبى ، والاتجاه المهنى والفنى ، وطبيعى أن يختلف اعداد الأديب عن اعداد الطبيب عن اعداد الفقيه .. الخ ، وطبيعى أن يؤثر ذلك الاختلاف على اختيار موضوعات المرحلة الابتدائية كما سبق أن ذكرنا . نعم ، نحن لا ننكر أن العامل الاقتصادى والاجتماعى قد لعب دورا فى اتاحة الفرص التعليمية الأفضل لذوى الاستعدادات العلمية والعقلية من ابناء ذوى السلطة أو الثروة ، ولكن « كتب التراجم » تظهر أن أعلام الثقافة الاسلامية لم يكونوا فى الغالب من أبناء الملوك والوزراء والحكام أو حتى من أبناء ذوى الثروة والمكانة ، بل كانت الغالبية العظمى منهم من أبناء الطبقات المتوسطة وسواد الشعب التى زعم محمد جواد رضا أنها حرمت من التعليم الغنى فى محتواه وهدفه ومناهجه .

ويذكر لنا ابن خلدون سببا آخر لاختلاف المنهج فى تلك المرحلة ويتمثل

هذا السبب في اختلاف الأقطار الاسلامية في نظرتها الى طبيعة المنهج ، والموضوعات التي تستحق التركيز : « أما أهل المغرب فمذهبهم في الولدان الاقتصار على تعليم القرآن فقط وأخذهم في أثناء الدراسة بالرسم ومسائله واختلاف حملة القرآن فيه ولا يخلطون ذلك بسواه في شيء من مجالس تعلمهم لا من حديث ولا من فقه ولا من كلام العرب الى أن يحذق فيه » بينما أهل الأندلس « يضيفون الى ذلك رواية الشعر والترسل (النثر) وقوانين العربية وحفظها (النحو) وتجويد الخط والكتابة ، ويهتم أهل افريقية بتعليم شيء من الحديث في الغالب بجوار تعليم القرآن »(٣٢)، وهكذا اختلف محتوى المنهج باختلاف الأمصار ، واختلاف التوجيه التربوي والمهني للطلاب .

طريقة التدريس :

رأينا كيف يمثل القرآن وحفظه ، الموضوع الأول للتعليم في تلك المرحلة وكان التلاميذ قبل تعلمهم للقراءة سواء في الكتاب او المنزل ، يبدأون بحفظ السور القصيرة بطريقة التلقين والتكرار ، فالمعلم يقرأ السورة آية آية قراءة سليمة ، والطفل يردد وراءه ، ويكرر المعلم ذلك مرات كثيرة حتى يحفظ الطفل (٣٣) ، وكانت تلك القراءة تتم بطريقة جهرية حتى يتأكد المعلم من أن الطفل قد حفظ الآيات حفظا مضبوطا صحيحا ، وكذلك لأن الجهر « يوقظ القارىء ويجمع همه الى الفكر ويصرف سمعه اليه ويطرد النوم ويزيد في النشاط » (٣٤) ، وينبه علماء التربية المسلمون الى ضرورة أن تتم عملية التحفيظ بصورة فردية ، لأن اجتماع الأطفال على القراءة يخفى على المعلم قوى الحفظ من الضعيف (٣٥) ، والقراءة الفردية تلاحظ تلك الفروق وترعاها ، كذلك فان اختبار مقدار حفظ الأطفال ينبغي أن يتم بصورة فردية ، وذلك بأن يختبر المعلم كل طفل في مقدار حفظه ليعلم مقدار ما اصابه الطفل من حفظ أو تقصير (٣٦) ، وبذلك كان كل طفل يجد الرعاية التربوية المناسبة له .

وعلى ضوء تلك « المتابعة الفردية » كانت تختلف الواجبات الدراسية لكل طفل من حيث عدد الآيات المكلف بحفظها كل يوم ، وعدد مرات كتابة اللوح ... الخ .

ثم تأتى مرحلة يطلب من الطفل أن يتعلم الكتابة ، ويظن بعض الدارسين أن الأطفال كانوا يتعلمون الكتابة عن طريق كتابة الحزب الذى سيحفظه فى اللوح الخاص به (٣٧) ، ولكن أدبيات التربية الاسلامية تذكر لنا طريقتين من طرق تعلم الكتابة ، الطريقة الأولى باستخدام ما يسمى برسم المصحف . وغاية تلك الطريقة : حفظ المصاحف الكريمة عن مخالفة المصحف الامام ، ذلك أن المسلمين كانوا يصرون على عدم مخالفة خط مصحف عثمان فى واو أو الف أو غير ذلك ، كذلك « فان القرآن لابد أن يكتب مفرجا باحسن خط ولا يصغر ولا تقرمط حروفه ولا يخلط به ما ليس منه » (٣٨) . اى أن تعليم الكتابة حسب تلك الطريقة كان يتم باستخدام « النص القرآنى » مع المحافظة على رسم المصحف من ناحية ، وتجويد الخط وتحسينه من ناحية أخرى .

وبجوار تعليم الكتابة عن طريق « النص القرآنى » أو رسم المصحف اشارت أدبيات التربية الاسلامية الى طريقة أخرى تستخدم الأدب لتعليم الكتابة ، ولقد لمعت أعلام فى تعليم الخط وتحسينه فى أواخر خلافة بنى أمية وأوائل خلافة بنى العباس مثل أبى على محمد بن على بن حسن بن مقلة الوزير (ت ٣٢٨) الذى قيل عنه أنه « أول من كتب الخط البديع » ثم ظهر فى سنة (٤١٣) صاحب الخط البديع على بن هلال بن البواب البغدادى الذى قيل عنه أنه « لم يوجد فى المتقدمين ولا فى المتأخرين من كتب مثله ولا قاربه » وصنف حذاق الخطاطين رسائل كثيرة فى طرق تحسين الخط مثل رسالة ياقوت المستعصمى وما أورده القلقشندى فى كتابه « صبح الأعشى » عن تحسين الخط (٣٩) ، وبذلك أصبح تعليم الكتابة فنا من الفنون له معلموه ، وله طرقه الخاصة : « ومبنى هذا الفن الاستحسانات الناشئة من مقتضى الطباع السليمة ، ويختلف بحسب الألف والعادة والمزاج بل بحسب كل شخص شخصى وغير ذلك مما يؤثر فى استحسان الصور واستيضاحها ولهذا يتنوع هذا العلم بحسب قوم قوم بل شخص شخص ، ولهذا لا يكاد يوجد خطان متماثلان فى كل الوجوه » (٤٠) ويبدو أن الطريقة الأولى فى تعلم الخط كانت شائعة فى بلاد المغرب وأفريقيا بينما ذاعت الطريقة الثانية فى بلاد المشرق

والاندلس (٤١) ، كذلك حفظ الأطفال بعض الأحاديث التى تتناول اصـــول الدين وفضائل الاســــلام وطلب العلم ومنزلة القرآن .. الخ ، وبعض الأشعار المختارة وتدربوا على ايرادها فى المناســـبات المختلفة (٤٢) ، وقصت عليهم حكايات الصالحين ، واخبار الأنبياء وسيرة الرسول صــلى الله عليه وســـلم ، وكانت هذه الأمور متداولة أما عن طريق « الحكاية الشفهية » أو عن طريق القراءة من كتب عدة مثل « صفوة الصفوة » لابن الجوزى ، وروض الرياحــين فى حكايات الأبرار والصـــالحين لليافعى ، وقصص الأنبياء لابن الجوزى وسيرة ابن هشام وسيرة محمد بن اسحاق وغير ذلك من المؤلفات (٤٣) .

كذلك تدرب الأطفال على العمليات الحسابية ، من الجمع والتفريق والتناسب والضرب والقسمة ، وشعر المربون المسلمون باهمية الحساب للمتعلم فى « ضبط المعاملات وحفظ الأموال وقضاء الديون وقسمة التركات بين الشركاء وغيرها ، ويحتاج اليه فى العلوم الفلكية وفى المساحة والطب، وقيل : يحتاج اليه فى جميع العلوم ، وبالجملة لا يستغنى عنه ملك ولا عالم ولا سوقة ، وزاد شرفا بقوله تعالى : « وكفى بنا حاسبين » (الأنبيـــاء آية ٤٧) وقوله تعالى : « ولتعلموا عدد السنين والحساب » (يونس : آية ٥) ، وقوله تعالى : « فاسأل العادين » (المؤمنون آية ١١٣) (٤٤) . وقد يدرس الطفل الى جوار ذلك بعض قواعد اللغة (النحو) لكى يحترز عن الخطأ فى تطبيق التراكيب العربية على ما يصدر عنه من بيان كتابى أو شفهى ، اذ اعتبروا الجهل بمبادىء النحو الأساسية « لحنا » يســـتدعى الضحك والسخرية (٤٦) .

وبجوار ذلك كله فان المعلم لابد ان يراقب احوال طلابه فى آدابهم وهديهم واخلاقهم وعباداتهم حتى لا يتبادر اليهم مساوىء الأخلاق وتتمكن منهم قبائح العادات ، ويصعب بعد ذلك مفارقتها ، وتؤكد أدبيات التربية الاسلامية على هذا الجانب الأخلاقى ، وترى أن سوء الأخلاق مؤثر على قدرة الطالب على تحصيل العلم والمثابرة على طلبه ، يقول الزرنوجى : « وينبغى لطالب العلم أن يحترز عن الأخلاق الذميمة فانها كلاب معنوية ،

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب أو صورة » وانما يتعلم الانسان بواسـطة ملك » (٤٧) . فكان العلم فى تصور الزرنوجى لا يستقيم مع سوء الخلق ، ويرى الزرنوجى أن نعـلم الطفل أيضا الآداب والسـنن ولا نكتفى بالفرائض فقط ، لأن التهاون فى السنن قد يؤدى الى التفريط فى الواجبات ، يقول الزرنوجى : « فينبغى لطالب العلم أن لا يتهاون بالآداب والسـنن ، ومن تهاون بالأدب حرم السنن ، ومن تهاون بالسنن حرم الفرائض ، ومن تهاون بالفرائض حـرم الآخرة » (٤٨) ، ويرى عن الشافعى قوله : (٤٩)

شكوت الى وكيع سوء حفظى .·. فأرشدنى الى ترك المعاصى
واخبرنى بأن العـلم نـور .·. ونور الله لا يهدى لعـاصى

وتتحدث أدبيات التربية الاسلامية عن الوسائل المختلفة التى ينبغى للمعلم أن يتبعها مع طلابه لكى يتأكد من تقدمهم العلمى والأخلاقى فى حدود قدرة الطالب ورغبـة ولى أمره : فهنـاك الترغيب والترهيب والايناس والايحاش والاعراض والاقبال والحمد مرة والتوبيخ مرة أخرى ما كان ذلك واقيا ، فان احتاج (المعلم) الى الاستعانة باليد لم يحجم عنه وليكن أول الضرب قليلا موجعا كما أشار به الحكماء قبل — بعد الارهاب الشـديد واعداد الشفعاء — فأن الضربة الأولى اذا كانت موجعة ساء ظن الصبى بما بعدها واشتد منها خوفه ، واذا كانت الأولى خفيفة غير مؤلمة حسـن ظنه بالباقى فلم يحفل به » (٥٠) ، كما يقول ابن سـينا والواقع أن أكثر أدبيات التربية الاسلامية تسمح باللجوء الى العقاب الجسمانى (الضرب) بعد استنفاد الوسائل الأخرى وان كانت تضع له بعض الحدود والشروط مثل : الا يضرب المعلم وهو غاضب ، حتى لا يكون الضرب لمجرد التشفى ويتجاوز دوره التربوى ، وأن يكون الضرب فى مكان مأمون من جسـم الطفل ، وأن يستخدم المعلم درة رطبة لينة ، وأن يكون الضرب من ثلاث الى عشر لا تزيد عن ذلك ... الخ (٥١) .

سن التعليم ومدته :

متى يبدأ الطفل فى التعلم ؟ حاول بعض الباحثين ان يحدد السن التى بدأت فيها عملية التعليم — فذهب ابراهيم سلامة عند تناوله للتعلم عند الزرنوجى ان الطفل بعد أن يتلقى التعليم فى المنزل يذهب الى الكتاب فى السابعة من عمره واستشهد على ذلك بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « علموا أولادكم الصلاة اذا كانوا بنى سبع وأضربوهم عليها اذا كانوا بنى عشر » (٥٢) . وواضح أن الحديث لا يستنتج منه ضرورة أن يبدأ التعليم فى السابعة ، وهناك شواهد كثيرة من كتب التراجم على أن الطفل كان يبدأ التعليم قبل ذلك بكثير ، فهذا ابن عبد الله التسترى حفظ القرآن وعمره ست او سبع سنوات ، والامام الشافعى حفظ القرآن وهو ابن سبع سنين (٥٣) مما يدل على انهم بدءوا التعليم قبل ذلك بكثير ، وابن سينا يذكر عن نفسه انه بدأ التعليم فى السادسة من عمره « فلما بلغت السادسة اسلمت نفسى للتعليم » واعتمد ابن سينا على تجربته الشخصية فنصح بان يبدأ الطفل التعليم فى هذه السن فقال : « واذا أتى عليه (الطفل) من أحواله ست سنين فيجب أن يقدم الى المؤدب ، والمعلم » ورأى انها سن مناسبة فيها « تشتد مفاصل الصبى ويستوى لسانه ويتهيأ للتلقين ويعى سمعه » (٥٤) . مما سبق يتضح انه لم يكن هناك سن معينة يبدأ عندها الطفل فى التعليم وانما كان الأمر متروكا لتقدير آباء الصبيان فاذا وجدوا أن الطفل بدأ فى التمييز والادراك دفعوا به الى « الكتاب » أو « المؤدب » . يقول أبو بكر بن العربى فى ذلك : « وللقوم فى التعليم سيرة بديعة وهو أن الصغير منهم اذا عقل بعثوه الى المكتب » (٥٥) . فالمعيار لم يكن تحديد سن معينة فيها يبدأ التعليم بل اختلف ذلك باختلاف نضج الصبيان وتقدمهم فى الفهم والتمييز . ولقد ظل علم النفس التربوى مدة طويلة يرى أن السادسة هى سن النضج المناسبة لبداية التعلم ، ولكن تغيرت تلك النظرة ورأينا بلادا مثل انجلترا يبدأ التعليم فيها من الخامسة ، مما يؤكد على أن الاستعداد للتعليم ليس مرتبطا بسن محددة بل له عوامل متعددة ترجع الى الفروق الفردية بين الأطفال فى معدل النمو والظروف الثقافية التى يعيش فيها كل طفل .

واذا كانت التربية الاسلامية لم تحدد سنا لبداية التعليم وتركت ذلك لتقدير الآباء والمعلمين فانها لم تحدد أيضا عدد السنوات التى لابد ان يقضيها الطفل فى تلك المرحلة . وليس صحيحا ما ذهب اليه الأهوانى أن الثانية عشرة كانت هى السن التى ينتهى عندها تعليم الصبى فى الكتاب فى الغالب . وقد اعتمد فى ذلك على نص للقابسى يقول فيه : « وانه ينبغى للمعلم أن يحترس بعضهم من بعض اذا كان فيهم من يخشى فساده بأن يناهز الاحتلام أو تكون له جرأة » . فقد أخذ من هذا النص أن قلة من الصبيان كان يظل فى الكتاب حتى سن الاحتلام الذى يتراوح عند الذكور بين الثالثة عشرة والخامسة عشرة أما اغلب الصبيان فقد كان ينتهى من حفظ القرآن قبل ذلك . ورأى الأهوانى مبنى على ان التعليم يبدأ فى السادسة ، وان اهم ما كان يعلم فى الكتاب هو حفظ القرآن ، فاذا بدأ الصبى فى تعلمه فى سن السادسة مثلا فانه يحتاج الى اربع سنوات أو الى خمس ليتم حفظ القرآن وهو المعروف بالختمة (٥٦) . ولكن شواهد « التربية الاسلامية » تدل على خلاف ذلك من عدم تحديد بداية سن التعليم ، وعدم تحديد نهاية تلك المرحلة الابتدائية فقد كان ذلك يتوقف على استعدادات الطفل وامكاناته العقلية ، ويتوقف على ما يريده الطفل او ولى أمره بعد ذلك من أنواع التعليم . ولم تكن هناك عوائق تحول دون الطفل النجيب وبداية التعلم مبكرا ، أو الانتهاء منه فى سن متقدمة ، فهذا قتادة يحفظ القرآن كله فى سبعة أشهر ، وهذا عبد الله التسترى يحفظه وعمره ست أو سبع سنوات ، وتاج الدين الكندى يكمل القراءات العشر وله عشرة أعوام ، والامام الشافعى يحفظ القرآن وهو ابن سبع سنين ثم يحفظ الموطأ ويستوعب مسائل الفقه حتى يقال له وهو ابن خمس عشرة سنة : افت يا ابا عبد الله فقد والله آن لك أن تفتى ، وكان سفيان بن عيينة اذا جاءه شىء من الفتيا أو التفسير التفت الى الشافعى وقال : سلوا هذا الغلام . أما ابن سينا فقد حفظ القرآن وشيئا من الأدب ومن أصول الدين وحساب الهندسة والجبر والمقابلة فى العاشرة من عمره (٥٧) وسواء كانت الدراسة فى الكتاب أو على يد المعلم الخاص « فقد كان الطفل يمضى فى دراسته الى حيث يحمله استعداده وامكانياته التعليمية ، وكان يتخرج من الكتاب

أو على يد المعلم الخاص حينما كان يكمل ما كان يتوقع من الطلاب اكماله اعتياديا حسب تقدير المعلم » (٥٨) .

المعلم :

اهتمت أدبيات التربية الاسلامية اهتماما كبيرا بشخصية المعلم ورفعت من منزلته ورأت أن وظيفته من أشرف الوظائف ، ذلك أن أشرف مخلوق على الأرض هو الانسان والمعلم مشتغل بتعليم هذا الانسان ، وتهذيبه وارشاده ومن ثم فان وظيفته هى أشرف المهن وافضلها على الاطلاق (٥٩) . وقد تناولت تلك الأدبيات ما ينبغى أن يكون عليه المعلم من خلق وعلم وورع ، وحددت واجباته نحو طلابه ، وواجبات طلابه نحوه بصورة مفصلة وأوجبت له من الاحترام والتوقير ما هو أهل له (٦٠) . يقول الزرنوجى : « اعلم أن طالب العلم لا ينال العلم ولا ينتفع به الا بتعظيم العلم وأهله ، وتعظيم الأستاذ وتوقيره ومن توقير المعلم أن لا يمشى أمامه ، ولا يجلس مكانه ، ولا يبتدىء بالكلام عنده الا باذن ، ولا يكثر الكلام عنده ولا يسأل شيئا عند ملاقاته ويراعى الوقت ولا يدق الباب بل يصبر حتى يخرج الأستاذ ، فالحاصل أن يطلب رضاه ويجتنب سخطه ويمتثل أمره فى غير معصية الله تعالى فانه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق (٦١) . ولذلك أدرك المربون المسلمون مبكرا كيف أن المعلم لا يمكن أن يقوم بدوره الا اذا نال ما يستحق من عناية واحترام وأن المعلم الذى يفتقد الشعور بالحرية والكرامة الشخصية لا يمكن أن يكون ذا تأثير ايجابى على الطلاب ، اذ أن فاقد الشىء لا يعطيه ، كذلك فان الطالب الذى يتأذى منه أستاذه « يحرم بركة العلم ولا ينتفع بالعلم الا قليلا » ويروون فى ذلك : (٦٢)

ان المعلم والطبيب كلاهما .·. لا ينصحان اذا هما لم يكرما
فاصبر لدائك ان جفوت طبيبه .·. واقنع بجهلك ان جفوت معلما

وقد نال المعلم فى التربية الاسلامية ما يستحق من عناية ورعاية مادية وأدبية بما فى ذلك معلم الكتاب أو « المؤدب الخصوصى » وتحفل أدبيات التربية الاسلامية وكتب التراجم بصور كثيرة من تلك العناية

والرعاية والتبجيل ، والتى وصلت أحيانا الى حد المبالغة ولكنها تعكس لنا روح العصر ، ومقدار توقير المعلم فى المجتمع الاسلامى . ومن ذلك ما حكى أن الخليفة هارون الرشيد بعث ابنه الى الأصمعى ليعلمه الأدب فرآه يوما يتوضأ ويغسل رجله وابن الخليفة يصب الماء على رجله ، فعاتب الأصمعى بقوله : « انا بعثته اليك لتعلمه وتؤدبه فلماذا لم تأمره بأن يصب الماء باحدى يديه ويغسل بالأخرى رجلك » (٦٣) .

ويرى بعض الدارسين أن « معلم الكتاب » لم يتمتع بهذا التقدير والاحترام ، وانما كان ذلك من نصيب معلمى المعاهد العليا ، ويستشهدون على ذلك ببعض ما رواه الجاحظ عن سوء تقدير الناس لبعض معلمى الكتاتيب فى عصره ويردون ذلك الى قلة بضاعة هؤلاء المعلمين فى العلم أو ما اشتهر عنهم من جشع وحرص على استغلال الوظيفة (٦٤) . بينما نجد باحثا آخر يرى أن « معلم الكتاب » لم يكن أهلا للاحترام والتقدير نتيجة « للتمايز الطبقى » الذى شهده المجتمع الاسلامى فى العصرين الأموى والعباسى ، وما ترتب على هذا التمايز الطبقى من طبقية فى التعليم بحيث أصبح هناك تعليم للأغنياء وآخر للفقراء وأبناء الطبقات المتوسطة وطبيعى أن يجتذب تعليم الأغنياء أفضل العناصر من المعلمين الذين ينالون كل التقدير والاحترام المادى والأدبى ، أما معلمو الفقراء وسواد الشعب (معلمو الكتاتيب) فهم يمثلون أوطأ درجات السلم المهنى ثقافيا واجتماعيا يقول هذا الباحث : « كان التعليم فى البداية واحدا لجميع الأطفال ، وكان المعلمون فى جميع المراتب يتمتعون باحترام عظيم وقد استمر معلمو المعاهد العليا يتمتعون بهذا الاحترام حتى النهاية ، غير أن منزلة معلم الكتاتيب هبطت مع مرور الزمن الى الدرجات السفلى من المراتب الاجتماعية . وكان سبب ذلك ظهور التمايز الطبقى فى التعليم فى العصر الأموى وفى العصر العباسى بصورة خاصة . اذ لم يعد الآباء المقتدرون ماليا يرسلون أولادهم الى الكتاتيب بل صاروا يستأجرون لهم المعلمين الخصوصيين . من هنا انقسم المعلمون الى ثلاث طبقات اجتماعية متميزة : أولها معلمو الكتاتيب الذين كانوا يقومون بتعليم الطبقات المتوسطة

وسواد الشعب وكانوا يمثلون أوطأ درجات السلم المهنى ثقافيا واقتصاديا واجتماعيا ، وثانى هذه الطبقات ، معلمو أبناء الطبقات العليا فى المجتمع : الأمراء والوزراء والأغنياء وكان هؤلاء يدعون « بالمؤدبين » على حين كان أعضاء الطبقة الأولى يسمون المعلمون . أما أبناء الخلفاء وولاة العهد فكان لهم معلموهم الخاصون بهم ، وكان هؤلاء من العلماء الأعلام ذوى الاطلاع الواسع فى الثقافة العربية والاسلامية وآدابها وكلام الملوك والحكماء وعلوم الأمم السالفة وكانوا بهذا يمثلون ذروة المهنة التعليمية ثقافيا واقتصاديا واجتماعيا وقد سموا بحق « كبار المؤدبين » وكان منهم سيبويه والكسائى والأصمعى » (٦٥) .

والواقع أن هذا التفسير الطبقى لمنزلة المعلم ونوعيته واعداده تفسير لا يستقيم مع الواقع التربوى الاسلامى . والا فهل كان الضحاك ابن مزاحم (١٠٥ هـ) والكميت بن زيد (١٢٦ هـ) وعبد الحميد الكاتب (١٣٢ هـ) وغيرهم من الأسماء اللامعة فى المجتمع الاسلامى والذين كانوا معلمى كتاتيب (٦٦) هل كانت مثل هذه الاسماء تحتل أوطأ السلم المهنى ثقافيا واقتصاديا واجتماعيا ؟ وهل هناك أدلة على أن هؤلاء العلماء الأعلام ذوى الاطلاع الواسع فى الثقافة العربية الاسلامية وآدابها وكلام الملوك والحكماء وعلوم الأمم السالفة أمثال سيبويه والكسائى والأصمعى ممن يذكرهم الكاتب ، قد اختصوا بالفعل بتعليم أبناء الخلفاء وولاة العهد فقط دون أن يكون لهم بجوار ذلك حلقاتهم العامة التى انتظمت من سماهم الباحث أبناء الطبقات المتوسطة وسواد الشعب ؟ الواقع أن الشواهد التعليمية الكثيرة تؤكد خلاف ذلك تماما . فقد نال معلم الكتاب ، ومعلم الأدب ، ومعلم الخط ما يستحقونه من الاحترام ، وظلوا متمتعين بتلك المنزلة فى عالمنا الاسلامى الى وقت قريب ، ولعلهم لم يعانوا شيئا من الهوان الا فى ظل الاتجاهات العلمانية ، وموجات الاستعمار والتغريب التى جرفت العالم الاسلامى خلال القرن التاسع عشر وما بعدها ، اذ أصبح احتقار معلم اللغة العربية والقرآن سياسة عامة ليس على مستوى المرحلة الابتدائية فقط بل وعلى جميع المستويات التعليمية (٦٧) .

ادارة التعليم وتنظيمه وتمويله :

ولعل اكثر الدراسات التى تناولت ادارة التعليم الاسلامى وتنظيمه وتمويله قد تناولته وهى متأثرة بالنظم المعاصرة ، ولم تستطع أن تدرك الفارق الكبير بين نظام ادارى وسياسى يقوم على القيادات التلقائية الشعبية فى الادارة وفى تقديم الخدمات Public Service (النظام الاسلامى) ، ونظام آخر يقوم على القيادات القانونية التى تتدخل السلطات فى تنصيبها ومن ثم يكون لها يد فى توجيهها وتبديلها (النظم الوضعية) (٦٨) ، ان التعليم كخدمة عامة Public Service قد قام بها المسلمون أنفسهم نحو أولادهم وهم الذين أشرفوا عليه تنظيما وادارة وتمويلا ، ولم تتدخل الدولة فى ذلك الا ما ورد من انشائها للكتاتيب الخاصة بالأيتام ، وتكليفها « رجال الحسبة » بمراقبة الكتاتيب للتأكد من أن المعلم « لا يدرس الا لعدد محدود من الصبيان ، فاذا كثر التلاميذ أمروه أن يعين مساعدين له يتناسب عددهم مع عدد التلاميذ بحيث يكون لكل فقيه عدد قليل من الصبيان ». قال ابن عبدون : ويجب للمؤدب ألا يكثر من الصبيان ، ويمنعون من ذلك فانه لن يستطيع أن يعلمهم شيئا على ما ينبغى » (٦٩) ، وأما ما وراء ذلك فقد ظل التعليم الاسلامى بجميع مراحله ، شأنا من شئون الأفراد لا تتدخل الدولة فى رسم سياسته أو متابعة برامجه أو الصرف عليه ، تلك هى القاعدة العامة أما الاستثناء فهو وارد أيضا فى كتب التربية الاسلامية ، عندما استخدمت الدولة الفاطمية الأزهر مثلا لنشر مذهبها الشيعى ، وعندما استخدم صلاح الدين الأيوبى « المدارس » لنشر المذهب السنى (٧٠) ، ولكن مع وجود هذه الشواهد التاريخية على تدخل الدولة فى التعليم الاسلامى فقد ظل هذا الاتجاه محدود التأثير ، وظل التعليم الاسلامى بصفة عامة ، والتعليم الابتدائى بصفة خاصة تعليما شعبيا ينظمه الشعب ويموله بعيدا عن تدخل الدولة .

واذا كانت الدولة الاسلامية لم تضع النظم التعليمية المحددة ولم تتحكم فى ادارة التعليم وطابع الدراسة ومناهجها وتركت ذلك ليكون شأنا

من شئون الأفراد — الا أن ذلك لم يمنعها من تشجيع التعليم بصفة عامة ، والعمل على تيسيره وتسهيله ، لقد كانت تمده فعلا بالمساعدة والتوجيه القوى الشامل عن طريق تقديم مكافآت للعلماء ، وتفريغ بعضهم لتثقيف الجماهير فى المساجد ، وفتح مؤسسات تربوية لغير القادرين على التعليم (مكاتب الفقراء والأيتام) وتقديم تسهيلات علمية (المكتبات) وانشاء مؤسسات متخصصة بفروع معينة من العلوم والمعارف (مثل المدارس والبيمارستانات) الى غير ذلك من ضروب تشجيع العلم وتيسيره وتسهيله والتى مارسها الخلفاء والحكام المسلمون عبر العصور ، أى أن الدولة الاسلامية كانت تمارس صورا متعددة من تشجيع التعليم وتيسيره ولكنها نادرا ما تدخلت تدخلا مباشرا فى ادارة التعليم وتنظيمه ، وفارق كبير ما بين التشجيع والتيسير وبين احكام الرقابة والسيطرة الادارية والتنظيمية على التعليم ، ولقد اعتمدت الدولة فى ذلك على « الروح الاسلامية » العامة التى تدفع المسلم الى طلب العلم وتحثه على ذلك من المهد الى اللحد ، واعتمدت على الروح الاسلامية الجماعية التى تحث الأفراد على التعاون فيما بينهم للقيام بالخدمات العامة ورعاية مصالح الآخرين .

فتعاليم الاسلام تدفع الناس الى ضرورة تعليم أولادهم ، وتدفع المعلمين الى ضرورة نشر علمهم ، واذا كان بعض المعلمين قد افتتح « كتابا » لتعليم الأطفال نظير أجر معين ، فقد وجد أيضا من لا يأخذ الأجر على التعليم أخذا بحديث عبادة بن الصامت قال : « كان رسول الله يشغل فاذا قدم الرجل مهاجرا على رسول الله صلى الله عليه وسلم دفعه الى رجل منا يعلمه القرآن ، فدفع الى رسول الله رجلا كان معى فى البيت أعشيه عشاء البيت ، وكنت أقرئه القرآن ، فانصرف الى أهله ، ورأى أن عليه حقا ، فأهدى الى قوسا لم أر أجود منها عودا ولا أحسن منها عطفا ، فأتيت الرسول فقلت : ما ترى يا رسول الله ؟ قال : جمرة بين كتفيك تعلقتها أو تقلدتها » (٧١) ، ولقد ناقشت أدبيات التربية الاسلامية موضوع جواز الأجر على التعليم ، ورغم أنها أجازته الا أن « الدوافع الاسلامية »

ظلت تدفع الكثيرين الى تعليم الناس مجانا ، وتأبى أن تحول العلم الى حرفة ، ولذلك رأينا بعض اعلام الثقافة الاسلامية يحترفون أعمالا أخرى يكتسبون منها ليباشروا التعليم « حسبة » ابتغاء وجه الله ، وظلت الكثير من المساجد طوال العصور الاسلامية وحتى عصرنا الحديث تقدم الوانا من « التعليم الاسلامى الأولى » للأطفال يقوم به معلمون بدون أجر ابتغاء وجه الله ، وكلما كان الدافع الاسلامى قويا كلما كثر عدد هؤلاء الذين يقدمون التعليم بدون أجر ، وكثر عدد هؤلاء الذين يفضلون كسب قوتهم بالعمل فى مجالات التجارة أو الحرف مع ممارسة تعليم الناس تطوعا ، ونصح طلابهم باتباع ذلك مثلهم (٧٢) .

أما هؤلاء الذين اتخذوا مكانا لتعليم الأطفال ، واخذوا أجرا نظير تفرغهم لهذا العمل فقد كانوا يديرون هذا الكتاب بأنفسهم اذا كان عدد الطلاب محدودا ، وقد يشترك معلمان أو اكثر فى التعليم اذا كان عدد الطلاب كبيرا ، ويدفع الآباء بأبنائهم الى هؤلاء المعلمين نظير أجر يدفعونه اليهم ، وقد يدفع هذا الأجر شهريا أو سنويا أو بمقدار تعلم الصبى ، ويقضى الصبى يوما دراسيا كاملا فى الكتاب تحت رعاية معلمه ، يبدأ هذا اليوم الدراسى من الصباح الباكر ويستمر حتى الظهر ، حيث ينصرف الأطفال لأداء الصلاة وتناول طعام الغداء ، ثم يرجعون بعد الظهر ويظلون بالكتاب حتى آخر النهار ، وجرت العادة أن تعطل الدراسة بالكتاب بعد ظهر الخميس وسحابة يوم الجمعة ، ثم يعود الطفل الى « مكتبه » صباح السبت (٧٣) .

ولا شك أن الأخذ بنظام اليوم الدراسى الكامل قد أتاح للمعلم الفرصة الكافية للاشراف على تربية الطفل ، كما أتاح للأطفال أن يعيشوا حياة جماعية يستفيدون فيها من تجارب غيرهم وينتفعون بهذا التفاعل الاجتماعى الذى يحدث فيما بينهم (٧٤) .

وكانت عملية التعلم تمضى بطريقة غير جامدة ، اذ لم يكن من اللازم أن يحفظ الصبى القرآن كله ، الا اذا كانت تلك رغبة أبيه ، ولم يكن من

اللازم أن يأخذ كل الأطفال كما معينا من الموضوعات الدراسية ، ولم يكن من اللازم أن يصل كل الأطفال الى نفس المستوى التحصيلى فى وقت محدد ، بل روعيت الفروق الفردية ، فهناك الأذكياء والموهوبون وهناك المتوسطون ، ويتشكل المنهج ، وتطول مدة التعليم أو تقصر وفق القدرة العلمية لكل طفل ، وقد جمع « الكتاب » الواحد مستويات تعليمية متعددة وقدم موضوعات دراسية مختلفة ، وروعى الأطفال العاديون والأطفال الموهوبون فى ذلك كله باضافة مواد دراسية Enrichment أو تكوين مجموعات خاصة Special Grouping واتاحة الفرصة للقادرين علميا أن يتقدموا بسرعة فى دراستهم Acceleration الى غير ذلك من الأساليب التى نحاول تطبيقها فى عصرنا الحديث فنصيب بعض النجاح والكثير من الفشل (٧٥) .

وكانت عملية « التقويم » عملية مستمرة تتم بصورة فردية فى الغالب ، فالمعلم يتابع الطفل فى قراءته للوحه قراءة نموذجية صحيحة ، ثم يمتحنه فيما حفظ كل يوم ، ويرى أعماله التجريبية ، فاذا أخطأ الصبى فى الكتابة والهجاء أو الحفظ ، وأهمل أو انصرف الى اللعب والعبث دون الدرس والعلم ، أو هرب من الكتاب ، عاقبه المعلم بالنصح تارة والعزل والتهديد مرة أخرى ، والضرب تارة ثالثة ان لم تفلح النصائح ولم يجد التهديد ، واذا جاز الصبى مرحلة التعلم فى الكتاب جاز امتحانا فيما حفظ من القرآن والخط وخلافه ، وكان اكمال الطفل لحفظ القرآن ويسمى « بالختمة » مناسبة علمية يكرم فيها المعلم والتلميذ ، وينالان من أسرة الصبى الكثير من الهدايا ، وكانت عملية التقويم هذه تتم فى الغالب بالتعاون بين الأستاذ وأهله ، فالمعلم على صلة دائمة بأسرة الصبى ، وهو يبلغهم عن أحوال طفلهم العلمية والأخلاقية ، باستمرار ويتشاور معهم فيما يطرأ من مشكلات . ولما كان الآباء يهتمون بنصيب طفلهم من العلم والأخلاق معا ، فقد شملت عملية التقويم البعدين معا ، البعد العلمى والبعد الأخلاقى .

وكان تمويل التعليم الابتدائى سواء كان تعليما خاصا فى المنازل أو تعليما عاما فى الكتاتيب ، يقوم به الآباء نحو أبنائهم ، أو يقوم به

القادرون نحو أقاربهم الفقراء ، أو غير أقاربهم من أبناء المسلمين ، وأبرز التطبيق العملى لمبادىء الاسلام صورا من التضامن الشعبى فى مجال الخدمات التعليمية ، وبرزت مصطلحات مثل « أهل القرية » و « أهل المصر » و « أهل الحضر » و « أهل الجماعة » — جماعة المسجد — كصور من صور التضامن الشعبى للقيام بالخدمات العامة ومنها الصحة والتعليم (٧٧) ، ومن هنا لم تكن الدولة محتاجة الى الصرف على التعليم وتمويله الا فى أضيق الحدود كما سبق أن ذكرنا . وبالرغم من ذلك ، أو لعله بسبب ذلك ، انتشرت مؤسسات التعليم الابتدائى فى كل مكان من أرجاء العالم الاسلامى ، بحيث لم توجد مدينة أو قرية من القرى الا ووجدنا فيها لونا من الوان هذا التعليم يتناسب وحاجات أفرادها يوفره « أهل جماعة القرية » لأطفالها ويتولون تنظيمه والاشراف عليه وتمويله (٧٨) .

تقييم التعليم الابتدائى الاسلامى :

بعد أن عرضنا لهذا التعليم الابتدائى الاسلامى نحب أن نعرض هنا بايجاز لبعض الآراء التى هاجمت هذا التعليم من حيث تنظيمه وأهدافه ومحتواه وسنرى أن تلك الهجمات تأخذ « الثوب العلمى » ظاهريا وتعتمد على بعض معطيات العلوم التربوية الحديثة دون أن تملك الأصالة العلمية التى تستطيع بها أن تتمثل تلك العلوم التربوية ، وأن تخضعها لمطالب مجتمعاتنا العربية والاسلامية ، كما سنلاحظ أيضا أن بعض هذه المثالب التى أخذها البعض على التعليم الابتدائى الاسلامى انما ظهرت فى أعين هؤلاء الدارسين كمثالب لعدم فهمهم لروح الاسلام وتعاليمه ، ولو توفر هذا الفهم لديهم لأدركوا فى الغالب أنها ليست مثالب بل مميزات وخصائص للتعليم الاسلامى .

من ذلك مثلا ما يقال من أن الهدف من التعليم الابتدائى الاسلامى انما كان هدفا دينيا بحتا يتركز فى حفظ القرآن وما يتصل به من تعليم القراءة والخط (٧٩) ، ولقد تجاهل القائلون بذلك تنوع المنهج فى تلك المرحلة واختلافه باختلاف الظروف على نحو ما بينا ، أما كل ما يقال

حول حفظ القرآن بدون فهم فى تلك المرحلة ومخالفـة ذلك لقواعد علـم النفس الحديث ، فهو قول يعود فى اكثره الى عدم تقدير المنزلة التى يحتلها القرآن فى حياة الجماعة الاسلامية خصوصا لدى الطبقة المثقفة التى ستقود المجتمع فيما بعد ، وغ عنك الافراد العاديين الذين لا يستغنون عن حفظ شىء من القرآن لاستخدامه يوميا فى صلواتهم .

كذلك فان هـذا القول يقلل من ادراك اهمية الدوافع الاجتماعية والنفسية التى كانت تدفع الطفل المسلم الى حفظ القرآن وتجعله يستسيغ هذا المجهود الذهنى الجاد ، فقد كان المجتمع ينظر نظرة اعزاز وتقدير لمن يحفظ القرآن ، يقول ابن حنبـل : « كان الرجـل اذا قرأ البقرة وآل عمران جد فينا » اى عظم بيننا ، فماذا عن الحافظ للقرآن الكريم كله ؟ اذ لا شك أن هـذا التقدير الاجتماعى قد دفع الكثير من أطفال المسلمين الى حفظ القرآن الكريم لينالوا احترام المجتمع وتقـديره . ان الطفـل يسعى دائما الى « التقدير الاجتماعى » ويسعى الى كسب رضاء الآخرين ، وما دام سيجد فى حفظ القرآن الكريم احتراما وتقديرا فلا عليه أن يفعل ذلك ، بجوار أن هذه السن هى أكثر الأعمار مناسبة للحفظ وكلما تقـدم الطفل فى السن كلما قلت ملكة الحفظ ، بجوار ان ما يحفظه فى تلك المرحلة يكون أوضح واوعى للتذكر، ولعل مايؤكد وجهة النظر هذه ماذهب اليه بلارد Ballard من انه « اذا استظهرنا قطعة من الشعر فان المقدار الذى نتذكره منها يزداد بعد بضعة أيام من تاريخ الحفظ بدلا من أن يبلغ أقصاه عقب الحفظ مباشرة ، وقد ينسى الانسان بعض الألفاظ وبعض العبارات التى كان يحفظها عن ظهر قلب ولكنه يستبدل بها عبارات والفاظا أخرى تبرز من نفسها بعد فترة الاستقرار ، وهـذا التذكر واضح جدا عند صغار الأطفال ولكن يقل كلما تقـدم الانسان فى السن فاذا وصلنا الى مرحلة الرجولة أخذ ينقرض أو يتلاشى » (٨٠) .

كذلك ينظر بعض الباحثين بعين الازدراء الى عملية الحفظ هـذه ويزون أنها نوع من التدريب على التذكر اللفظى وهى عملية من العمليات

العقلية الوضعية التى لا تقترن بالذكاء ولا قوة الادراك * . وايدوا وجهة نظرهم هذه « بأن كثيرا من البلهاء وضعاف العقول ينعمون بذاكرة قوية ، وبعض الأذكياء ذاكرتهم ضعيفة ، ولكن ازدراء الذاكرة والنظر اليهـا هـذه النظرة القليلة الأهمية فيه بعد عن الحقائق النفسية ، وتدل نتائج البحث فى الأمراض النفسية على أن فقدان الذاكرة يؤدى الى اضطراب الحياة العقلية وفساد السلوك ومما لا شك فيه ان الذاكرة الجيدة تخدم علماء الطبيعة والكيمياء والنبـات والحيوان لأنهم فى حاجة الى استظهار كثير من القوانين الرياضية والمعادلات الكيميائية التى تتألف منها مبادىء المعرفة الصحيحة الضرورية ، ولا يستطيع الانسان اجادة اللغة دون معرفة كثير من الألفاظ وقواعد النحو والصرف ، وقد ظن كثير من علماء النفس والتربية أن هناك تعارضا بين الذكاء والذاكرة ، والحقيقة على خلاف ذلك لأن موهبة الذكاء وحسن التفكير مما يخـدم الذاكرة فى سرعة التحصيل وجودة الحفظ وسهولة الاسترجاع وفى ذلك يقول وليم جيمس : « ان فن التذكر هو فن التفكير » (٨١) .

كذلك هوجمت التربية الاسلامية عموما والتربية فى المرحلة الابتدائية خصوصا لأنها لم تمتن « بالتربية الفنية » لدى الأطفال ، وما دامت مناهج تلك المرحلة لم تشتمل على الفنون الجميلة التى يشتمل عليهـا المنهـج المعاصر وخصوصا الموسيقى والتصوير ، فهذا يدل على انعدام الشعور بأهمية التربية الفنية والجمالية فى التربية الاسلامية ، وهذا وهم باطل كما يقول الأهوانى « فالفنون الجميلة فى الاصطلاح هى الموسيقى والتصوير

---

* فى الواقع ان قضية حفظ القرآن الكريم فى المرحلة الابتدائية من القضايا التربوية الهامة التى تستحق دراسة مستقلة تستخدم الأسلوب التجريبى لقياس الفروق بين أطفال يحفظون القرآن وآخرين لا يحفظون من حيث الطلاقة اللغـوية ، والنجاح الدراسى ، والقيم والاتجاهات ... الخ ، ودراسات أخرى تتناول أمثل الطرق التجريبية التي ينبغى اتباعهـا لحفظ القرآن فى تلك المرحلة .

والنحت والزخرفة والعمارة ، وعناية الغربيين اليوم — وهى عناية ورثوها عن اليونان — هى تعليم الموسيقى والتصوير ، أما الاسلام فقد استعاض بهذين الفنين بالنسبة للأطفال فنونا أخرى جميلة هى الخط والشعر والزخرفة العربية . ولا ينبغى أن يذهب عن بالنا أن القرآن نفسه فيه موسيقى سماوية أسمى من الشعر وبخاصة فى السور القصار ، ومن اجل ذلك يتغنى الأطفال بالقرآن عند حفظه فطرة وسليقة ويزين القراء التلاوة بالصوت الحسن » (٨٢) ، فاذا كانت التربية الغربية لهـا فنونها الجميلة الخاصة بهـا ، فهل يؤخذ على التربية الاسلامية أن تكون لها ايضا فنونها الجميلة الخاصة بها ، من لوحات خطية بديعة ، وزخرفة عربية منمقة ، وموسيقى قرآنية وشعرية ... الخ ؟ * .

كذلك اخـذ على التربية الاسلامية فى تلك المرحلة أنهـا اخذت باسلوب « العقاب الجسمانى » وصوروا المعلم على انه انسان فظ القلب ، يهوى بدرته على الأطفال بدون دراية بمعطيات علم النفس التى تذهب الى أن أخطاء الطلاب لا تدل على حاجتهم الى العقاب بقدر ما تدل على وجود شىء خاطىء فى المنهج أو فى طرق التدريس أو فى الظروف المادية والمعنوية للعملية التعليمية (٨٣) ، ولقد سبق أن ذكرنا متى يجوز استخدام أسلوب الضرب ؟ وشروطه . ونحب أن نؤكد هنـا أن ادبيات التربية الاسلامية قد حذرت من الافراط فى اللجوء الى هذا الأسلوب لما ينتج عنه من أضرار تربوية ونفسية ، يقول ابن خلدون : « ومن كان مرباه بالعسف والقهر سطا به القهر ، وضيق على النفس فى انبساطها وذهب بنشاطها ، ودعا الى الكسل وحمـل على الكذب والخبث ، وهو التظاهر بغير ما فى ضميره خوفا من انبساط الأيدى بالقهر عليه » (٨٤) . أى ان التربية

---

* يحتاج تعليم الفنون الجميلة فى تلك المرحلة الى دراسات أعمق حول الفنون الجميلة الاسلامية التى تتمثل فى الخط الكوفى والشعر والزخرفة العربية والموسيقى القرآنية وكيفية تدريس تلك الفنون الجميلة فى عصرنا الحديث وكيف نرعاها ونطورها فى مدارسنا المعاصرة .

الاسلامية انما استخدمت الضرب فى أضيق حدوده ، ورعت أن يكون استخدامه مؤثرا من الناحية التربوية ، وبلغة علم النفس فان ضربة العصا تؤلم الصبى فتؤدى الى امتناعه عما يفعل حتى لا يقع عليه الضرب مرة ثانية ، والانسان بطبيعته مفطور على الاقبال على ما يسره والابتعاد عما يؤلمه ، والذاكرة تلعب دورا هاما فى ذلك اذ يستعيد الصبى سبب أوجاعه ويستحضر فى ذاكرته الموقف الذى ضرب فيه فيعمل على ابعاد كل ذلك وبهذا يستقيم ، أما المبالغة فى الضرب فتؤدى الى البلادة وانعدام الألم الذى به يتم الانصراف عن الأفعال القبيحة والسلوك الذى يراد تغييره وعدم تكراره (٨٥) .

كذلك أخذ على التربية الاسلامية خصوصا فى تلك المرحلة انها تربية جادة صارمة لم تراع حاجات الأطفال الى اللعب والترويح على النفس ولم تعرف ألوان الألعاب التربوية والترويحية التى تعرفها مدارسنا فى العصر الحديث ، والواقع ان أدبيات التربية الاسلامية لم تغفل ضرورة الترويح عن الطفل دفعا للسآمة فابن سينا يحذر من أن يحمل الأطفال على ملازمة الكتاب مرة واحدة حتى لا يتعرضوا للسأم ، والغزالى يلفت نظر المعلم الى ضرورة الاهتمام بلعب الطفل والترويح عنه فيقول : « وينبغى أن يؤذن له (الصبى) بعد الانصراف من الكتاب ان يلعب لعبا جميلا يستريح اليه من تعب الكتب بحيث لا يتعب فى اللعب فان منع الصبى من اللعب وارهاقه الى التعلم دائما يميت قلبه ويبطل ذكاءه وينغص عليه العيش حتى يطلب الحيلة فى الخلاص منه راسا » ، ويقول فى مكان آخر ، « ويعود الصبى فى بعض النهار المشى والحركة والرياضة حتى لا يغلب عليه الكسل » (٨٧) ، والزرنوجى يحذر الصبى من ان يجهد نفسه جهدا يضعف النفس حتى ينقطع عن العمل بل يستعمل الرفق فى ذلك ، والرفق أصل عظيم فى جميع الأشياء ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الا أن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ولا تبغض نفسك فى عبادة الله تعالى ، فان المنبت لا ارضا قطع ولا ظهرا أبقى » (٨٨) ، لذلك كله فان الاسبوع الدراسى فى الكتاب خمسة أيام ونصفا فقط ولم يكن اليوم

الدراسى فى الكتاب يقضى كله فى الدراسة بل لم يخل الامر من أحاديث يتبادلها الأطفال وفترات راحة ينالونها . فاذا بقى بعد ذلك ظل من الصرامة والجدية فهى صرامة تقتضيها ظروف العصر وقلة التسهيلات العلمية والمادية الميسرة للطلاب فى ذلك الوقت ، وعظم الشعور بالمسئولية التربوية التى احس بها الآباء والمعلمون نحو تربية الصبيان .

كذلك اخذ على التربية الاسلامية فى تلك المرحلة انها ظلت طوال العصور الاسلامية عملا شعبيا يتم بصورة عشوائية غير منتظمة ، وان الدولة قد فشلت فى تقديم نظام تعليمى عام موحد لجميع الأطفال تشرف على تنظيمه وادارته . وان الخلافة الاسلامية قد فقدت فرصة تقديم نظام تعليم حكومى فى ثلاث مناسبات تاريخية هامة :

الأولى : عندما انشأ عمر بن الخطاب الدواوين ووضع لها نظمها الخاصة وكان فى امكانه أن يضع ايضا نظاما عاما للتعليم ولكنه لم يفعل .

والثانية : عندما امر الخليفة عبد الملك بن مروان بتعريب الدواوين ولم يقدم نظاما تعليميا عاما لتربية الكوادر اللازمة لهذا الأمر .

والثالثة : عندما حاول المامون أن يفرض رأيا فلسفيا فى خلق القرآن عن طريق القوة والارهاب دون ان يلجأ الى انشاء « نظام تعليمى » يربى الأفراد على تلك العقيدة الجديدة (٨٩) . ولقد سبق أن ناقشنا علاقة الدولة بالتعليم واظهرنا ان التعليم كان امرا من امور الأفراد ، ولم يكن شأنا من شئون الدولة بالفعل ، ولكن ذلك لم يمنع من انتشار هذا النوع من التعليم الابتدائى ، ولا يعيب نظام التربية الاسلامية ، أنه كان بعيدا عن سيطرة الدولة وتدخلها فى شئونه المالية والادارية بل ربما كان هذا من أعظم مميزات هذا النظام ، فقد جعلته اكثر اتصالا بحاجات الجماهير ، كما جعلته محور اهتمام الأفراد والجماعات ، بجوار ما اتاحه ذلك من حريات واسعة للطلاب والمعلمين ، وها هو التعليم الأمريكى كان وما زال شأنا من شئون الولايات وليس من واجبات الحكومة الفيدرالية ومن ثم فليس للولايات المتحدة نظام يسير التعليم القومى كتلك النظم التى توجد فى كثير من البلاد الاخرى وليس من اختصاص الحكومة

الفيدرالية أن تسير النظم المدرسية أو تتحكم فى طابع المدرسة أو فى مناهجها وان كان من واجبها أن تشجع التعليم وتعمل على تيسيره وانها لتمده فعلا بالمساعدة والتوجيه القوى الشامل عن طريق « مكتب التربيـة » الذى يتخذ كافة الطرق لعون الولاية فى جهودها وابتكاراتها (٩٠) وهذا ما فعلته الدولة الاسلامية نحو التعليم ، اذ قدمت له الوانا متعددة من المساعدة والتشجيع ولكنها لم تحاول أن تسيطر علية سيطرة كاملة .

ثم يأتى بعد ذلك هذا الشعور السائد بين الدارسين بأن تلك المرحلة الابتدائية بالذات كانت الغلبة فيهـا لسيطرة رجال الفقـه ذوى الاتجاه الدينى المتشـدد مثـل الغزالى ونصـير الدين الطوسى وابن جماعـة وابن سحنون وابن حجر الهيثمى والقابسى ... الخ وان أصحاب هـذا الاتجاه الدينى المتشدد فى التربية قد طبعوا التعليم فى تلك المرحلة بطابعهم الدينى الذى ركز على التدين والخلق الدينى المحافظ (٩١) . ورغم غلبـة الطابع الدينى والأخلاقى على تلك المرحلة بالفعل كما سبق أن ذكرنا . الا أن هـذا الطابع هو الذى أمد الطبقة المثقفة المسلمة عبر العصـور بشخصيتها الاسلامية المستقلة ، وجعلها لا تذوب فى غيرها من الثقافات ، واكسبها القدرة على نقل جميع الحضارات المختلفة دون أن تذوب فى واحدة منها . كما أن هذا الطابع الدينى والأخلاقى قد حفظ على المثقفين المسلمين « حدا أدنى من الثقافة المشتركة فيما بينهم وبذلك لم تفرقهم التخصصات المهنية فكريا وأيديولوجيا فيما بعد ، كذلك جعلتهم اكثر اتصالا بالشعب وثقافته ووجدانه وأمدتهم بأخلاقيات ومثل عالية يفتقدها انساننا المعاصر الذى يعانى من أزمة خلقية وروحية تهدد حضارته » (٩٢) .

كان هذا هو التعليم الابتدائى عند المسلمين بكل ظروفه وملابساته ومناهجه وأهدافه وادارته ، والذى تعرض له الطفـل المسلم ، قبـل أن يدخل المرحلة التاليـة من مراحـل التعليم المتخصص ، وهو تعليم — كما رأينا — كان يتيح للطفل أن يحصل على حظ وافر من كتاب الله ، ان لم يحفظه كله ، وكان يمكنه من اتقان مهارات القراءة والكتابة والخط والحساب ، مع العناية بأخلاقه وممارسته للشعائر الاسلامية ، وقد يضاف

الى ذلك كله معرفة بالآداب وفنون الشـــعر الذى يقال فى المناســبات المختلفة بجوار الكثير من قصص الانبياء والصالحين . وهو بذلك يعتبر تعليما غنيا وكافيا لانتقال الطفل الى المرحلة التالية من مراحل التعليم . كما يعتبر تعليما كافيا ومناسبا اذا انقطع الطفـــل عن التعليم وتوجــه الى صناعة أو مهنة يزاولها لكسب العيش .

وسوف نتتبع طفلنا المسلم « الذى لديه الاستعداد الكامل لمواصلة التعليم الى المرحلة التالية ، وسنتركز حديثنا لطبيعـــة البحث على هؤلاء الذين اختاروا الطب ميدانا لدراستهم وتخصصهم لنرى كيف تمت تربيتهم واعدادهم تربويا ومهنيا لممارسة تلك المهنة الطبية » . وهذا هو موضوع فصلنا الثالث » .

مراجـــع الفصــــل ومصـــادره

(١) راجع تحديد هذين المصطلحين فى أحمد حسن عبيد : **فلسفة النظــام التعليمى وبنيته السياسية التربوية** ، دراسة مقارنة ، الأنجلو المصرية ، ١٩٧٩ ، ص ١٤٠ .

(٢) راجع فى ذلك على ســـبيل المثــال : ابن الجزار القيروانى : **سياسة الصبيان وتدبيرهم** ، نشر وتقديم محمـــد الحبيب الهيلة ، الدار التونسية للنشر ، ١٩٦٨ ، شمس الدين الانبابى : **رسالة فى رياض الصبيان وتعليمهم وتأديبهم** ، مخطوط بمكتبة جامعة القـــاهرة رقم ٤٣٣ تعليم ، حسن عبد العال : **أصول تربية الطفــل فى الاســلام** ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، جامعة طنطا ، ١٩٨٠ ، الباحث : **فلسفة التربية عنـــد ابن سينا** ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٨٤ ، ص ١٠٩ — ص ١١٦ — ص ١٢٣ — ص ١٢٥ .

(٣) الباحث : **ديمقراطية التعليم فى عصور الازدهار الاسلامى دروس مستفادة** « من أبحاث مؤتمر ديمقراطية التعليم فى مصر » ، مرجع سابق ، ص ٩ — ص ١١ .

(٤) ابن حزم : **الفصل فى الملل والأهواء والنحل** ، مرجع سابق ، ص ٦٧ .

(٥) أحمد فؤاد الأهوانى : **التربية فى الاســلام** ، دار المعـــارف ، القـــاهرة ، ١٩٨٠ ، ص ٦٧ ، ســـعيد اسماعيل على : **معاهد التعليم الاسلامى** ، مرجع سابق ، ص ٧٧ — ص ٧٩ .

(٦) أحمد شلبى : **التربية الاسلامية نظمها ، فلسفتها ، تاريخها** ، مرجع سابق ، ص ٥٣ .

(٧) **نفس المرجع** ، ص ٥٤ .

(٨) **نفس المرجع** والمكان .

(٩) **نفس المرجع** ، ص ٥٥ .

(١٠) أحمد فؤاد الاهوانى : **التربية فى الاسلام** ، مرجع سابق ، ص ٦٧ .

(١١) عبد الغنى محمود عبد العاطى : **التعليم فى مصر زمن الأيوبيين والمماليك** ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب جامعة القاهرة ، ١٩٧٥ ، ص ٩١ — ص ٩٨ .

(١٢) محمد عبد الحميد عيسى : **تاريخ التعليم فى الأندلس** ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٨٢ ، ص ٤٦٧ .

(١٣) الباحث : **فلسفة التربية عند ابن سينا** ، مرجع سابق ، ص ٢٧ .

(١٤) **نفس المرجع** ، ص ١١٧ .

(١٥) محمد نبيل نوفل : **ابو حامد الغزالى ، فلسفته وآراؤه فى التربية والتعليم** ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية التربية جامعة عين شمس ، ١٩٦٧ ، ص ١٤١ .

(١٦) انظر مثلا : ابن سحنون : **آداب المعلمين** ، القابسى : **الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين واحكام المعلمين والمتعلمين** ، نشر أحمد فؤاد الأهوانى كملاحق لكتابه : **التربية فى الاسلام** ، مرجع سابق ، الغزالى : **أيها الولد** ، اللجنة اللبنانية لترجمة الروائع ، بيروت ، ط ٣ ، ١٩٦٩ .

طاش كبري زادة : **مفتاح السعادة ومصباح السيادة** ، مرجع سابق .

(١٧) — S. S. HUSAIN S. A. ASHRAF : **CRISIS IN MUSLIM Education,** Hodder and Starughton, London, King Abdulaziz University, Jeddah, 1979.

— Abdul Rahman Salih Abdullah; **Educational theory. Aquranic outlook,** umm Al-Qurn University, Makah, 1982, pp. 133 – 136.

(١٨) أحمد فؤاد الأهوانى : **التربية فى الاسلام** ، مرجع سابق ، ص ١٣ .

(١٩) ابن خلدون : **مقدمة ابن خلدون** ، لجنة البيان العربى ، تحقيق على عبد الواحد وافى ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، ص ٤٧٨ .

(٢٠) **نفس المرجع** ، ص ٤٨٩ .

(٢١) محمد صلاح الدين مجاور : **تدريس التربية الاسلامية اسسه وتطبيقاته التربوية** ، دار القلم ، بيروت ، ١٩٧٦ ، ص ٦٥ — ص ٩٩ ، حيث ناقش تلك القضية واقترح اختيار آيات معينة للحفظ .

(٢٢) القابسى : **الرسالة المفصلة لاحوال المتعلمين واحكام المعلمين والمتعلمين** ، مرجع سابق ، ص ٤٣ ، ب .

(٢٣) الباحث : **بحوث فى التربية الاسلامية** ، دار الفكر العربى ، القــاهرة ، ١٩٨٣ ، ص ٨٠ .

(٢٤) الباحث : **فلسفة التربية عند ابن ســينا** ، مرجع سابق ، ص ١٢٧ .

(٢٥) الغزالى : **احياء علوم الدين** ، مرجع سابق ، ج ٣ ، ص ٦٢ .

(٢٦) القابسى : **الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين واحكام المعلمين والمتعلمين** ، مرجع سابق ، ص ٤٤ ، ب .

(٢٧) **نفس المرجع** ، ص ٤٥ — ب .

(٢٨) شمس الدين الانبابى : **رسالة فى رياض الأطفــال وتعليمهم وتاديبهم** ، مرجع سابق ، ص ٢ .

(٢٩) أحمد فؤاد الأهوانى : **التعليم فى الاســلام** ، مرجع سابق ، ص ١٢٩ .

(٣٠) ملكة ابيض : **التربية والثقافة العربية فى الشــام والجزيرة خلال القرون الثلاثة الأولى** ، مرجع سابق ، ص ٢٥٩ .

(٣١) محمد جواد رضا : **الفكر التربوى الاسلامى مقدمة فى أصوله الاجتماعية والعقلانية** ، مرجع سابق ، ص ٢٦ — ص ٢٧ .

(٣٢) الباحث : **فلسفة التربية عند ابن ســينا** ، مرجع سابق ، ص ٤٠ — ص ٤٧ .

(٣٣) ابن خلدون : **مقدمة ابن خلدون** ، مرجع سابق ، ص ٤٧٩ — ص ٤٨٠ .

(٣٤) Bayard Dodge ; **Muslim Education in the Medieval times**, op. cit, pp. 3, 5.

(٣٥) السيوطى : **الاتقان فى علوم القرآن** ، مطبعة حجازى ، القاهرة ، ص ١٨١ .

(٣٦) القابسي : **الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين واحكام المعلمين والمتعلمين** ، مرجع سابق .

(٣٧) **نفس المرجع** ، ص ٦٩ — ب .

(٣٨) A. S. Tritton : **Materials of Muslim Education in The Middae Ages**, op. cit. p. 51.

(٣٩) طاش كبرى زادة : **مفتاح السعادة ومصباح السيادة فى موضوعات العلوم** ، مرجع سابق ، ج ٢ ، ص ٣٧٢ ، ص ٣٧٥ .

(٤٠) **نفس المرجع** ، ج ١ ، ص ٨٤ — ص ٨٨ .

(٤١) **نفس المرجع** والمكان

(٤٢) ابن خلدون : **مقدمة ابن خلدون** ، مرجع سابق ، ص ٤٧٧ — ٤٨٠ .

(٤٣) طاش كبرى زادة : **مفتاح السعادة ومصباح السيادة فى موضوعات العلوم** ، مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٢٢ .

(٤٤) **نفس المرجع** ، ص ٢٨٣ .

(٤٥) **نفس المرجع** ، ص ٣٩٠ .

(٤٦) **نفس المرجع** ، ص ١٤٤ — ص ١٤٥ .

(٤٧) الزرنوجى : **تعليم المتعلم طرق التعلم** ، مرجع سابق ، ص ٨٧ .

(٤٨) **نفس المرجع** ، ص ١٢٨ .

(٤٩) **نفس المرجع** ، ص ١٣١ .

(٥٠) الباحث : **فلسفة التربية عند ابن سينا** ، ص ١٥١ — ص ١٥٢ .

(٥١) احمد فؤاد الأهوانى : **التربية فى الاسلام** ، مرجع سابق ، ص ١٥ .

(٥٢) **نفس المرجع** ، ص ٨ .

(٥٣) احمد شلبى : **التربية الاسلامية نظمها فلسفتها تاريخها** ، مرجع سابق ، ص ٣٠٣ .

(٥٤) الباحث : **فلسفة التربية عند ابن سينا** ، مرجع سابق ، ص ١٢٥ .

(٥٥) ابن العربى : **أحكام القرآن** ، مطبعة السعادة ، القاهرة ، ١٣٣١ هـ ، ج ٢ ، ص ٢٩ .

(٥٦) أحمد فؤاد الأهوانى : **التربية فى الاسلام** ، مرجع سابق ، ص ٥٩ — ٦٠ .

(٥٧) أحمد شلبى : **التربية الاسلامية نظمها فلسفتها تاريخها** ، مرجع سابق ، ص ٣٠٣ .

(٥٨) محمد جواد رضا : **الفكر التربوى الاسلامى مقدمة فى أصوله الاجتماعية والعقلانية** ، مرجع سابق ، ص ٢٧ .

(٥٩) الباحث : **بحوث فى التربية الاسلامية** ، مرجع سابق ، ص ٧٦ — ٨٣ .

(٦٠) عمر محمد التومى الشيبانى : **من أسس التربية الاسلامية** ، المنشأة الشعبية للنشر والاعلان والتوزيع ، طرابلس ، ١٩٧٩ ، ص ٩١ — ص ٣٤٤ .

— George D. Shala : **The Arab Conception of the Ideal teacher as Revealed in Arabic pedagogical Literature,**
M. A. Thesis, University of London, Faculty of Arts, 1939.

(٦١) الزرنوجى : **تعليم المتعــلم طرق التعــلم** ، مرجع سابق ، ص ٧٨ — ص ٨٠ .

(٦٢) **نفس المرجع** : ص ٨١ — ص ٨٢ .

(٦٣) **نفس المرجع** : ص ٨٢ .

(٦٤) محمد منير مرسى : **التربية الاسلامية اصولها وتطورها فى البلاد العربية** ، عالم الكتب ، القــاهرة ، ١٩٧٧ ، ص ٩٧ .

— حسن عبد العال : **التربيــة فى القرن الرابع الهجرى** ، دار الفكر العربى ، القــاهرة ، ١٩٧٧ ، ص ٩٧ .

(٦٥) محمود جواد رضا : **الفكر التربوى الاسلامى مقدمة فى اصوله الاجتماعية والعقلانية** ، مرجع سابق ، ص ٢٦ .

(٦٦) عبد الله عبد الدايم : **التربية عبر التاريخ من العصور القديمة حتى أوائل القــرن العشرين** ، دار العــلم للملايين ، بيروت ، ١٩٧٨ ، ص ١٤٦ ، ص ١٤٧ .

(٦٧) الباحث : **بحوث فى التربية الاسلامية** ، مرجع سابق ، ص ٦٢ — ص ٦٣ .

(٦٨) مصطفى كمال وصفى : **مصنفة النظم الاسلامية الدســتورية والدولية والادارية والاقتصادية والاجتماعية** ، مكتبة وهبة ، القــاهرة ، ١٩٧٧ ، ص ٤٥١ ، ص ٤٧١ ، ص ٥٢٩ ، ص ٥٤٦ .

(٦٩) احمــد شلبى : **التربية الاسلامية نظمها فلسفتها تاريخهــا** ، مرجع سابق ، ص ٣٠٦ .

(٧٠) **نفس المرجع** ، ص ٣٥٣ — ص ٣٨٥ .

(٧١) ملكة أبيض : **التربية والثقافة العربيــة الاسلامية فى الشــام والجزيرة العربية خلال القرن الثالث للهجرة** ، مرجع سابق ، ص ٣٣١ — ص ٣٤٠ .

(٧٢) الباحث : **ديمقراطية التعليم فى عصــور الازدهار الاسلامى ، دروس مستفادة** ، مرجع سابق ، ص ٨ .

(٧٣) أحمد فؤاد الأهوانى : **التربية فى الاسـلام** ، مرجع سابق ، ص ٦٣ ، ص ٦٤ .

(٧٤) الباحث : **فلسفة التربيـة عند ابن سـينا** ، مرجع سابق ، ص ١١٨ ، ص ١١٩ .

(٧٥) حسين فوزى النجار : **ثورة التعليم** ، النهضة المصرية بالقاهرة ، ١٩٥٨ ، ص ٥٨ — ص ٦٢ .

(٧٦) أحمد فؤاد الأهوانى : **التربية فى الاسـلام** ، مرجع سابق ، ص ٦٤ .

(٧٧) الباحث : **ديمقراطية التعليم فى عصور الازدهار الاسـلامى ، دروس مستفادة** ، مرجع سابق ، ص ٧ .

(٧٨) **المرجع السابق** ، ص ١١ .

(٧٩) — Khalil ; A. Totah : **The contrbution of the Arabs To Education.** Publications Teachers College, columbia University, New York, 1926. pp. 94 - 95.

(٨٠) الباحث : **فلسفة التربية عند ابن سـينا** ، مرجع سابق ، ص ١٢٦ — ص ١٢٧ .

(٨١) أحمد فؤاد الأهوانى : **التربية فى الاسـلام** ، مرجع سابق ، ص ١٨٨ ، ص ١٨٩ .

(٨٢) **نفس المرجع** ، ص ١٨ .

(٨٣) الباحث : **فلسفة التربيـة عند ابن سـينا** ، مرجع سابق ، ص ١٥٢ .

(٨٤) أحمد فؤاد الأهوانى : **التربية فى الاسـلام** ، مرجع سابق ، ص ١٥ .

(٨٥) راجع قانون الأثر عند ثورنديك ، ص ٢٠٦ — ص ٢٠٨ ، ورأى ليفين فى الثواب والعقاب ، ص ٣٩٦ — ص ٤٠٠ من كتاب أحمد زكى صالح : **التعلم أسسه ونظرياته** ، النهضة المصرية ، القـاهرة ، ١٩٥٩ م .

(٨٦) الباحث : **فلسفة التربيـــة عند ابن ســـينا** ، مرجع سابق ، ص ١٥٠ — ص ١٥١ .

(٨٧) الباحث : **بحوث التربية الاسلامية** ، مرجع سابق ، ص ٨٠ .

(٨٨) الزرنوجى : **تعليم المتعـــلم طرق التعـــلم** ، مرجع سابق ، ص ٩١ .

(٨٩) — Al-Tibawi : **Arabic And Islamic themes, Historical Educational and litterery studies**, London, Luzas, 1974, p. 96.

(٩٠) حسين فوزى النجار : **ثورة التعليم** ، مرجع سابق ، ص ٢٣ .

(٩١) محمد جواد رضا : **الفكر الاسلامى التربوى مقدمة فى اصوله الاجتماعية والعقلانية** ، مرجع سابق ، ص ٥٧ — ص ٧٧ .

— أحمد فؤاد الأهوانى : **التربية فى الاسلام** ، مرجع سابق ، ص ٤٦ — ص ٧٢ .

(٩٢) الباحث : ازمة التربية الخلقيـــة فى مصر وجهة نظر فى **بحوثه فى التربية الاسلامية** ، مرجع سابق ، ص ٥٣ — ص ٦٧ .

الفصل الثالث

الاعداد التربوى والمهنى للطبيب ، المرحلة الثانية المتخصصة

FURTHER EDUCATION.



مقـــدمة :

كان التعليم الابتدائى كما سبق أن ذكرنا يمـد الصـبى المسـلم بأساسـيات الثقـافة الاسـلامية ، ويعـده الى مرحلة أعلى للتعليم Further Education ، أو الى مرحلة من الاعداد الحرفى أو اليدوى اذا أراد أن يكتفى بذلك ، وينصرف الى تعلم حرفة أو عمـل يدوى . والتعليم اليدوى أو العملى كتعلم التجارة والصياغة والنجارة وغيرها من الحرف انما « يحصل بالمواظبة على استعمال تلك الصناعة » (٢) ، أى بالتدريب العملى عليها والممارسة لمهاراتها المختلفة * . أما التعليم النظرى فهـو الذى يكتسب « بقول مسموع أو معقول من شأنه أن يوقع اعتقادا أو رأيا لم يكن أو يوقع تصورا ما ، لم يكن » (٣) . أى انه يحتاج الى تحصـيل الآراء والأقوال والأفكار العقلية والنقلية . وهذا التعليم النظرى بمصادره العقلية والنقلية هو الذى يمثل منهاج المرحلة الأعلى المتخصصة من التعليم الاسلامى . ولقد تعددت فروع هذا التعليم بتعدد العلوم الاسلامية حتى وصلت الى ثلاثمائة علم عند صاحب « مفتاح السعادة » (٤) . وظهرت كثير من المؤلفات الاسلامية محاولة أن تصنف تلك العلوم العديدة بحيث تقدمها الى الدارس المسلم ذاكرة له أهم مباحث كل علم ، وأهم ما كتب فيه من مؤلفات (٥) . يقول الفارابى فى مقدمة كتابه « احصاء العلوم » : « قصدنا فى هذا الكتاب أن نحصى العلوم المشهورة علما علما ، ونعرف جمل ما يشتمل عليه كل واحد منها ، وأجزاء كل ما له منها أجزاء ، وجمل ما فى كل واحد من أجزائه « حتى اذا أراد الدارس » أن يتعلم علما من هذه العلوم وينظر فيه ، علم على ماذا يقدم وفى ماذا ينظر ، وفى أى شىء سيفيد بنظره ، وما غناء ذلك ، وأى فضيلة تنال به ، ليكون اقدامه على ما يقدم عليه من العلوم على معرفة وبصيرة لا على عمى وغرر » ... وحتى يستطيع « أن يقيس بين العلوم فيعلم ايها افضل ، وأيهـا انفع ، وأيها

---

* فى الواقع أن التعليم الحرفى أو اليدوى عند المسلمين يحتاج دراسة وافية ، يأمل الباحث أن يفرغ لها فى القريب العاجل .

أتقن وأوثق وأقوى وأيها أوهن وأوهى وأضعف » ولكى يتبين له اذا كان يحســــن علما منها « هل يحســــن جميعه أو بعض أجزائه وكم مقدار ما يحسنه ؟ » (٦) .

ولا شك أن الصبى المسلم عندما كان ينتهى من دراسته الابتدائية كان يقبل على عالم واسع من العلوم والمعارف العقلية والنقلية تصــورة لنا أمثال هذه المؤلفات ، ولذلك كان لابد من توجيهــــه تربويا الى أنواع محددة من الدراسات . وكانت عملية التوجيـــه التربوى والمهنى للطالب تتم واضعة فى حسابها ميول الطالب العقلية من ناحية ، وما يريده له ولى أمره من أنواع التعليم من ناحية أخرى . يقول ابن سينا : « واذا فرغ الصبى من تعلم القرآن وحفظ أصول اللغة نظر عند ذلك الى ما يرد أن تكون صناعته فوجـــه لطريقه . فاذا أراد (مدبره) به الكتابة أضــاف الى دراسة اللغة دراسة الرسائل والخطب ومناقلات الناس ومحاوراتهم وما أشبه ذلك وطورح الحساب ودخل به الديوان وعنى بخطه ، وان أريد أخرى أخذ به فيها بعد أن يعلم مدبر الصبى أن ليس كل صناعة يرومها الصبى من تعلم القرآن وحفظ أصول اللغة نظر عند ذلك الى ما يراد أن الآداب والصناعات تجيب وتنقاد بالطلب والمرام دون المشاكلة والملاءمة ، اذن ما كان أحد غفلا من الآداب وعاريا من صناعة ، واذا لأجمع الناس كلهم على اختيار أشرف الآداب وأرفع الصناعات » (٧) . فالتعليم بعـد المرحلة الابتدائية تعليم تخصصى يعد الطالب المسلم لحرفة أو مهنة يمارسها فى المجتمع . فاذا كان الصبى قد أظهر فى المرحلة السابقة ميولا أدبيــة وجودة فى حفظ الشعر والأدب ، فمن الأفضل أن يوجه توجيها أدبيـــا ليصبح كاتبا أو أديبا * . واذا مال الى الفقه أو الحديث أو التفســير وجه الى ذلك ، واذا أظهر ميلا الى الدراسات العقلية والفلسفية كانت دراسته التالية موجهة لاتقان تلك الدراسات . ويحذر ابن سينا أن يوجه

---

* فى الواقع أن تربيــة الأديب أو تربية الكاتب عند المســلمين ، من الموضوعات التى تستحق دراسة مستقلة أيضا ، والتى يود الباحث أن ينتهى من اعدادها قريبا باذن الله .

الصبى الى نوع من الدراسات لا يريده ، أو لا يظهر استعدادا عقليا لمتابعته والتخصص فيه ، لأن فى ذلك مضيعة لوقت الطالب وجهده فيما لا جدوى منه . ويستدل على ذلك « بسهولة بعض الآداب على قوم وصعوبتها على آخرين ، ولذلك نرى واحدا من الناس تواتيه البلاغة وآخر يواتيه النحو وآخر يواتيه الشعر وآخر يواتيه الخطب ، وآخر يواتيه النسب ، ولهذا يقال بلاغة القلم وبلاغة الشعر . فاذا خرجت من هذه الطبقة الى طبقة أخرى ، وجدت واحدا يختار علم الحساب وآخر يختار علم الهندسة ، وآخر يختار علم الطب ، وهكذا تجد سائر الطبقات اذا أقتليتها طبقة طبقة حتى تدور عليها جميعا . ولهذه الاختيارات وهذه المناسبات والمشاكلات أسباب غامضة وعلل خفية تدق على افهام البشر وتلطف عن القياس والنظر ولا يعلمها الا الله جل ذكره » (٨) واذا كنا لا نستطيع الوصول الى حقيقة هذه الفروق العقلية لأنها من علم الله حتى يعمر هذا الكون باختلاف البشر فيما لديهم من قدرات ، وحتى لا يجمع الناس كلهم على اختيار أشرف الآداب وأرفع الصناعات ، ويترفعوا عن غير ذلك من المهن فلا تستقيم الحياة (٩) الا انه يمكن ملاحظة آثار هذه الفروق ورصد مظاهرها المختلفة ، وتوجيه الطلاب توجيها تربويا بناء على ذلك . يقول ابن سينا : « فلذلك ينبغى لمؤدب الصبى اذا رام اختيار الصناعة للصبى — أن يزن أولا طبع الصبى ويسبر قريحته ويختبر ذكاءه فيختار له احدى الصناعات بحسب ذلك ، فاذا اختار له احدى الصناعات تعرف قدر ميله اليها ورغبته فيها ، ونظر هل جرت منه على عرفان أم لا ، وهل أدواته وآلاته مساعدة له عليها أم خاذلة ثم يبت العزم ، فان ذلك أحزم فى التدبير وأبعد من أن تذهب أيام الصبى فيما لا يواتيه ضياعا »(١٠).

فهذه المرحلة الأعلى أو التالية Further Education المتخصصة ، لا تكون الا بعد أن يكون الصبى قد مر بالمرحلة السابقة من التعليم ، وبعد أن يكون « مدبر الصبى » سواء كان ولى أمره أو أستاذه — أحدهما أو كلاهما — قد وزن طبع الصبى وسبر قريحته واختبر ذكاءه واختار له الصناعة (التوجيه التربوى والمهنى) الذى يناسبه وعرف قدر ميل الصبى لهذا الاتجاه التعليمى ، ورغبته فيه ، واقباله عليه ، وقدرته العقلية على

متابعته بنجاح بحيث لا يتعرض الصبى للفشل الدراسى أو يذهب وقته سدى ، وسنقصر حديثنا فى الصفحات التالية — لطبيعة البحث — على هؤلاء الذين اختاروا الطب صناعة لهم ، لنرى كيف تمت تربيتهم واعدادهم الاعداد التربوى والمهنى المناسبين .

أولا : دوافع ازدهار التعليم الطبى فى المجتمع الاسلامى

لا شك أن الاقبال على نوع معين من التعليم يتأثر الى حد كبير بمقدار ما يوفره هذا التعليم لصاحبه من مزايا أدبية ومادية ، وقد مر بنا فى الفصل الأول كيف حث الاسلام على طلب القوة والصحة ودعا الى الأخذ بأسبابهما ، مما يمثل دافعا من دوافع الاقبال على الدراسة الطبية ، ودعوة الى البحث عن أسباب المرض وكيفية علاجه ، وأسباب الصحة وكيفية الحفاظ عليها . وكان ذلك يعطى الدارس للطب الشعور بأنه يدرس علما نافعا من الناحية الشرعية . ولقد نظر العلماء المسلمون الى « علم الطب » على أنه من علوم « فروض الكفاية » ، التى ينبغى أن يشتغل بها عدد كاف من المسلمين يكفى حاجات المجتمع ، والا أثم المسلمون . يقول الزرنوجى : « وأما حفظ ما يقع فى الأحايين ففرض على سبيل الكفاية اذا قام (به) البعض فى بلدة ، سقط من الباقين ، فان لم يكن فى البلدة من يقوم به اشتركوا جميعا فى المأثم ، فيجب على الامام أن يأمرهم بذلك ويجبر أهل القرية على ذلك » (١١) . ويقول طاشى كبرى زاده: « علم الطب : وهو علم يبحث فيه عن بدن الانسان من جهة ما يصح ويمرض لحفظ الصحة وازالة المرض .. وموضوعه ، بدن الانسان من حيث الصحة والمرض ، ومنفعته بينة لا تخفى . وكفى بهذا العلم شرفا وفخرا قول الامام الشافعى رضى الله عنه : العلم علمان : علم الطب للأبدان ، وعلم الفقه للأديان ، ويروى عن الامام على بن أبى طالب كرم الله وجهه : العلوم خمسة : الفقه للأديان ، والطب للأبدان ، والهندسة للبنيان ، والنحو للسان ، والنجوم للأزمان » (١٢) . وتكثر الاشارة لأهمية الطب سواء فى كتب تصنيف العلوم ، أو أدبيات التربية الاسلامية ، أو تراجم الأطباء أو مقدمات كتب الطب . يقول ابن أصيبعة فى مقدمة كتابه : عيون الأنباء فى طبقات الأطباء : « لما كانت صناعة الطب من أشرف

الصنائع واربح البضـــائع وقد ورد تفضـــيلها فى الكتب الالهية والأوامر الشرعية ، حتى جعل علم الابدان قرينا لعلم الأديان ، وقد قالت الحكماء : ان الطب نوعان : خير ولذة ، وهذان الشيئان انما يتم حصولهما للانسان بوجود الصحة . لأن اللذة المستفادة من هذه الدنيا والخير المرجو فى الدار الأخرى لا يصل الواصل اليها الا بدوام صحته وقوة بنيته وذلك انما يتم بالصناعة الطبية لانها حافظة للصحة الموجودة ورادة للصـــحة المفقودة ، فوجب اذا كانت صناعة الطب من الشرف بهذا المكان وعموم الحاجة اليه داعية فى كل وقت وزمان ان يكون الاعتناء بها أشد والرغبة فى تحصـــيل قوانينها الشكلية والجزئية أكد واجد » (١٣) . بل سنجد المولوى التهانوى فى مؤلفه « كشاف اصطلاحات الفنون » ينقل استحباب المسلمين « تعلم كل انســـان من الطب قدر ما يمتنع به عما يضر بدنه » (١٤) . أما الزرنوجى المربى فيقول انه « لابد لطالب العلم من القوة ومعرفة ما يزيد فيه وما يزيد فى العمر والصحة ليتفرغ فى طلب العلم « لذلك » لابد ان يتعلم شيئا من الطب ويتبرك بالآثار الواردة فى الطب التى جمعها الامام ابو العباس المستغفرى فى كتابه المسمى «بطب النبى عليه السلام» (١٥). ويقول خضر على بن الخطاب الطبيب فى مقدمة مخطوطه : « شفاء الأسقام ودواء الآلام » : « لما رأيت أن علم الطب اجل المفاخر والسعادات واجمل المآثر والصناعات اذ به يحصل حياة النفوس والأرواح وصحة الابدان والأشباح ، وبه يكون الخلاص من الأمراض والأسقام ، والمناص من الأعراض والآلام ، ومعلومه لا يتغير بتغير الملك والأديان ، ومحصـــوله لا يختلف باختلاف الأمكنة والأزمنة ... تركت الرقاد زمانا وارتكبت السهاد ، وآنا مشغوفا بتحقيق المسائل الطبية معرجا على مشاهدة الأعمال التجريبية » (١٦) . ويقول مظفر الدين العينتابى المعروف بابن الأمشاطى فى مقدمة مخطوطه ، « شرح اللمحة العفيفة المسمى تأسيس الصحة » : « فلما كان علم الأبدان الذى جعل قرينا لعلم الأديان مما تعم الحاجة اليه فى كل حين وأوان ... الخ » (١٧) . ولعل هذه النصوص القليلة التى أوردناها على سبيل الاستشهاد أن توضح المنزلة الادبية التى احتلتهـــا الدراسات الطبية فى المجتمع الاســـلامى ، مما يمثل حافزا أدبيا واجتماعيا للاقبال على تلك الدراسة .

وهناك دافع أدبى آخر يتمثل فى أن الدراسات الطبية بدأت فى المجتمع الاسلامى كدراسات وافدة لها مصادرها اليونانية والسريانية والفارسية والهندية وظلت كذلك لفترة حتى بدت وكأنها صناعة غير اسلامية وغير عربية يكاد أن يحتكرها أهل الذمة من غير العرب ، بل وتكاد تحتكرها أسر معينة يتوارثها الأبناء عن الآباء (١٨) ، وحتى كاد أن يستقر فى أذهان العوام أنها صناعة لا يجيدها عربى أو مسلم . ومثلت تلك الظاهرة تحديا عقليا وحضاريا لا يمكن أن يقبله المسلم المثقف ، فسعى الى تغييرها واثبات قدرة العقل العربى المسلم على التفوق فى ميدان الطب . يروى لنا الجاحظ بأسلوبه الأدبى الناقد الساخر « أن طبيبا مسلما عربيا اسمه « أسد بن جانى » لم يقصده فى احدى السنين الوبئية التى نشأ فيها المرض على الرغم من علمه المعترف به وحذقه ومهارته الا القليل من المرضى ، ولما سأله أحد معارفه عن السبب فى هذا أجاب : « أما واحدة فانى عندهم مسلم ، وقد اعتقد القوم قبل أن انطبب بل قبل أن أخلق أن المسلمين لا يفلحون فى الطب ، واسمى أسد وكان ينبغى أن يكون صليبا أو جبرائيل أو يوحنا أو بيرا (ويعنى بذلك أن يكون الأسم سريانيا أو آراميا ، وكنيتى أبو الحارث وكان ينبغى أن تكون أبو عيسى أو أبو زكريا أو أبو ابراهيم ، ويعنى بهذا أن يكون مسيحيا أو يهوديا بدلا من كونه مسلما) وعلى رداء من قطن أبيض وكان ينبغى أن يكون رداء من حرير أسود ، ولفظى لفظ عربى وكان ينبغى أن تكون لغتى لغة أهل جنديسابور (وهى بلدة فى الجنوب من فارس اشتهرت بالطب) » (١٩) .

كان الطب فى بدايته أجنبى اللغة ، أجنبى الزى والمصادر ، وقد يكون هذا جائزا فى بداية الطب الاسلامى ، وطالما راعى هؤلاء الذميون الأعاجم أصول الصنعة وآدابها وأخلاقها ، ولم يستغلوا تلك المهنة الاستغلال السىء من أجل المزيد من الثروة والنفوذ . ولكن الأمر فيما يبدو لم يمض غالبا على هذا المنوال ، اذ تطالعنا شواهد كثيرة على مخالفة آداب المهنة ، والسعى وراء مزيد من الثروة والنفوذ . ويكفى أن نذكر هنا قصة يوحنا بن ماسويه طبيب المأمون ، الذى نال من الثروة والنفوذ فى

بلاط الخليفة ما لم ينله طبيب ، ومع ذلك لم يتورع عن خيانته والاشتراك في قتله . يقول ابن أصيبعة نقلا من الصولى فى كتاب « الأوراق » قال : « كان المأمون نازلا على البدندون (نهر من اعمال طرسوس) فجلس يوما واخوه المعتصم عليه ، وجعلا أرجلهما فيه استبرادا له ، وكان أبرد الماء وارقه والذه . فقال المأمون للمعتصم : احببت الســـاعة من ازاذ (نوع من التمر) العراق آكله واشرب من هذا الماء البارد عليه ، وسمع صوت حلقة البريد وأجراسه ، فقيل هذا يزيد بن مقبل بريد العـــراق ، فأحضر طبقا من فضة فيه رطب ازاذ ، فعجب من تمنيه وما تم له . فاكلا وشربا من الماء ونهضا ، وتودع المأمون واقال ، ثم نهض محموما وفصد ، وظهرت في رقبته نفخة تعتاده ويراعيها الطبيب الى ان تنضج وتفتح وتبرأ فقال المعتصـــــم للطبيب وهو ابن ماســـــويه : ما أطرف ما نحن فيـه تكون الطبيب المفرد المتوحد فى صـــناعتك ، وهذه النفخة تعتاد أمير المؤمنين ، فلا تزيلها عنه وتتلطف فى حســـــم مادتها حتى لا ترجع اليه ، والله لئن عادت هذه العلة عليه لأضربن عنقك . فاستطرق ابن ماســـــويه لقول المعتصم وانصرف . فحدث به بعض من يثق به ويأنس اليـــه فقال له : « تدرى ما قصد المعتصم ؟ قال : لا ، قال : امرك بقتله حتى لا تعود النفخة اليـــه ، والا فهو يعلم أن الطبيب لا يقدر على دفـــع الأمراض عن الأجسام ، وانما قال لك لا تدعه يعيش ليعود المرض عليـــه » . فتعالل ابن ماســـويه وأمر تلميذا له بمشـــاهدة النفخة والتردد الى المأمون نيابة عنه ، والتلميذ يجيئه كل يوم ويعرفه حال المأمون وما تجـــدد له ، فأمره بفتح النفخة ، فقال أعيذك بالله ، ما احمرت ولا بلغت الى حد الجرح ، فقال له : امض وافتحها كما اقول لك ، ولا تراجعنى ، فمضى وفتحهـــا ومات المأمون رحمه الله » . وبعد أن يورد ابن أصيبعة تلك الواقعة يعلق عليها بقوله : « اقول : انما فعل ابن ماســـويه ذلك لكونه عديما للمروءة والدين والأمانة وكان على غير ملة الاسلام ، ولا له تمسك بدينه ايضـــا كما حكى عنه يوسف بن ابراهيم فى أخباره المتقـــدمة ، ومن ليس له دين يتمسك به ويعتقد فيه فالواجب الا يدانيه عاقل ولا يركن اليه حازم » (٢٠).

واذا كان ابن أصيبعة يورد لنا كثيرا من الأمثلة على جشع هؤلاء الأطباء عديمي المروءة والدين والأمانة ممن كانوا على غير ملة الاسلام فان ذلك لم يمنعه من أن يترجم للكثير منهم ، وان يعترف بفضلهم فى ميدان الطب ، وان يذكر مؤلفاتهم الطبية . كذلك فعل البيهقى فى كتابه تاريخ « حكماء الاسلام » ، اذ ترجم لأهل الاسلام كما ترجم لمن لم يمتل ملته بدون غرض أو هوى . فقد ترجم « لنحو عشرين منهم من أصل مائة وخمسة عشر حكيما وأعطاهم حقهم غير منقوص عادا لهم جزءا من اجزاء العلم الاسلامى ،ومفخرة من مفاخر تلك الأقطار ، كأهل صناعتهم من المسلمين حذو القذة بالقذة » (٢١) ، مما يدل على ان روح التعصب الدينى لم تكن وراء هذا التحامل على هؤلاء الأطباء غير العرب او المسلمين بل كان تقريرا للواقع . غير أن ذلك لم يمنع من وجود عدد من هؤلاء جمعوا بين العلم واخلاق المهنة . ويسوق لنا ابن اصيبعة أمثلة على ذلك نرى أن نورد أحدها هنا وهي تتعلق بحنين بن اسحاق . فقد سمع الخليفة المأمون بعلمه فأمر باحضاره ، وقرر له راتبا جيدا « وكان يسمع بعلمه ولا يأخذ بقوله دواء يصفه حتى يشاور فيه غيره . وأحب امتحانه حتى يزول ما فى نفسه عليه ظنا منه أن ملك الروم ربما كان عمل شيئا من الحيلة به . فاستدعاه يوما وأمر بأن يخلع عليه ، وأحضر توقيعا فيه اقطاع يشتمل على خمسين ألف درهم ، فشكر له حنين هذا الفعل ثم قال ، بعد اشياء جرت ، أريد أن تصف لى دواء يقتل عدوا نريد قتله ، ولم يمكن اشهاره ، ونريده سرا . فقال حنين : يا أمير المؤمنين انى لم اتعلم الا الأدوية النافعة ، وما علمت أن أمير المؤمنين يطلب منى غيرها ، فان أحب أن امضى واتعلم فعلت ذلك . فقال : هذا شيء يطول . ورغبه وهدده ، وهو لا يزيد على ما قاله ، الى أن أمر بحبسه فى بعض القلاع ، ووكل به من يوصل خبره اليه ، وقتا بوقت ، ويوما بيوم فمكث سنة فى حبسه ودأبه النقل والتفسير والتصنيف ، وهو غير مكترث بما هو فيه . فلما كان بعد سنة أمر الخليفة باحضاره واحضار أموال يرغبه فيها ، واحضر سيفا ونطعا وسائر آلات العقوبات . فلما حضر قال : هذا شيء قد كان ، ولابد مما قلته لك ، فان أنت فعلت فقد فزت بهذا المال ، وكان

لك عندى اضعافه ، وان امتنعت قابلتك بشر مقابلة ، وقتلتك شر قتلة .
فقال حنين : قد قلت لأمير المؤمنين انى لم احسن الا الشىء النافع ، ولم
اتعلم غيره . فقال الخليفة : فانى أقتلك . فقال حنين : لى ربى يأخذ بحقى
غدا فى الموقف الاعظم . فان اختار امير المؤمنين أن يظلم نفسه فليفعل .
فتبسم الخليفة وقال له : يا حنين طب نفسا وثق الينا ، فهذا الفعل كان
منا لامتحانك ، لأنا حذرنا من كيد الملوك واعجبنا لننتفع بعلمك » . فقبل
حنين الأرض وشكر له ، فقال الخليفة : يا حنين ما الذى منعك من الاجابة
مع ما رايته من صدق عزيمتنا فى الحالين فقال حنين : شيئان يا أمير
المؤمنين . قال : وما هما ؟ قال : الدين والصناعة . قال : كيف ؟ قال :
الدين يامرنا بفعل الخير والجميل مع اعدائنا فكيف اصحابنا واصدقائنا ؟
ويبعد ريحرم من لم يكن كذا ، والصناعة تمنعنا من الاضرار بأبناء الجنس
لأنها موضوعة لنفعهم ومقصورة على مصالحهم ومع هذا فقد جعل الله فى
رقاب الأطباء عهدا مؤكدا بايمان مغلظة أن لا يعطوا دواء قتالا ،
ولا ما يؤذى . فلم أر ان أخالف هذين الأمرين من الشريعتين . ووطنت
نفسى على القتل ، فان الله ما كان يضيع من بذل نفسه فى طاعته ، وكان
يثيبنى . فقال الخليفة : انهما لشريعتان جليلتان ، وأمر بالخلع فخلعت
عليه ، وحمل المال بين يديه ، وخرج عنده وهو احسن الناس حالا
وجاها » (٣٢) .

واذا كان حنين قد اعتصم بدينه وأخلاق مهنته أمام هذا الاختبار
القاسى ، والذى يعكس الكثير من سوء الظن وخشية مؤامرات العدو
الرومى ، فقد كان هناك كثيرون آخرون يتاجرون بالمهنة ويتحكمون بها فى
حياة الناس ، لذلك كان من الطبيعى أن يتجه المسلمون الى العلوم الطبية
ويقبلون عليها دراسة وممارسة حتى يحولوها الى علوم عربية اسلامية ،
وان يتجه الحكام المسلمون الى انشاء المدارس الطبية التى يتفرغ فيها
الطلاب المسلمون لدراسة الطب على يد أساتذة مسلمين (٣٣) . ولعل

المستنصر بالله « حين شرط أن يكون فى مدرسته (المستنصرية) طبيب حاذق مسلم وعشرة أنفس مسلمين يشتغلون عليه بعلم الطب ، انما فعل ذلك بعد أن رأى أهل الذمة قد استولوا على الطب واستفحل أمرهم وأخذوا يفسدون هذا العلم بقصد الثراء » (٢٤) . وقس على ذلك سائر المدارس الطبية والبيمارستانات الاسلامية التى انشئت فى كثير من العواصم ، بحيث لم تمض مدة طويلة حتى زال هذا الاحتكار ، وأصبح الطب عربى اللغة ، اسلامى الروح والتقاليد ، يقول داود الانطاكى فى مقدمة كتابه « تذكرة أولى الألباب » : « فانى حين دخلت مصر ورأيت الفقيه الذى هو مرجع الأمور الدينية يمشى الى أوضع يهودى للتطبب به ، فعزمت على أن أجعله كسائر العلوم يدرس ليستفيده المسلمون » (٢٥) .

وبهذا الفهم الذكى وتلك الروح الجديدة كان الشافعى يقول : « لا أعلم علما بعد الحلال والحرام أنبل من الطب » . وكان يستنكر الا يقبل المسلمون على دراسة الطب بهمة عالية ويقول : ضيعوا ثلث العلم ووكلوه الى اليهودوالنصارى . وكان يقول : ان أهل الكتاب قد غلبونا على الطب . وحرص الشافعى مع عظمته فى علم الشريعة وبراعته فى العربية أن يكون بصيرا بالطب (٢٦) . ولقد كانت ثمرة هذا الحماس لتقريب الطب وتعميمه بين المسلمين ، أن أصبحت « المعلومات الطبية » شائعة بين الناس يتداولها المثقفون العاديون . وهذا هو المتنبى يصاب بالحمى وهو فى مصر فيصفها وصف العارف بأعراضها ، الخبير بعلاماتها فيقول : (٢٧)

وزائرتى كأن بها حياء .·. فليس تزور الا فى الظلام
بذلت لها المطارف والحشايا .·. فعافتها وباتت فى عظامى
يضيق الجلد عن نفسى وعنها .·. فتوسعه بانواع السقام
اذا ما فارقتنى غسلتنى .·. كأنا عاكفان على حرام
كأن الصبح يطردها فتجرى .·. مدامعها بأربعة سجام
أراقب وقتها من غير شوق .·. مراقبة المشوق المستهام
ويصدق وعدها والصدق شر .·. اذا ألقاك فى الكرب العظام

وابن بطلان الطبيب يؤلف فى الطب بأسلوب أدبى وقصصى ممتع كتاب : « دعوة الأطباء على مذهب كليلة ودمنة » فيمزج الطب بالأدب ، ويقربه الى القارىء العادى (٢٨) . وبذلك تحول الطب من علم أجنبى الى علم عربى اسلامى يستفيد به المثقف العادى فضلا عن أصحاب التخصص وطلاب الصنعة . واذا كان الجيل الأول من الأطباء المسلمين كانوا يعدون أنفسهم اشبه بتلامذة للقدماء الافريقيين فى حين أنهم وصلوا الى نتائج جديدة رائعة ، فان الأجيال التالية قد أدركت أنها قادرة على الابداع والوصول الى ما لم يصل اليه الاغريق من قبلهم ، وصاروا يعدون أنفسهم استمرارا لانجازات أساتذتهم المسلمين دون سواهم (٢٩) .

بجوار هذه الدوافع الأدبية والاجتماعية والدينية التى دفعت الكثيرين الى دراسة الطب ، كان هناك الدافع المادى والاقتصادى متمثلا فى هذا العطاء السخى الذى كان يناله الطبيب فى صورة أجور وهدايا وتلك المنزلة العالية التى كان يحتلها لدى العامة والخاصة والحكام . وتمتلىء صفحات « عيون الأنباء » لابن أصيبعة بهذه الأجور والهدايا التى نالها الأطباء من العامة والخاصة على السواء (٣٠) . فلا غرابة أن يترك محمد ابن زكريا الرازى صناعة الذهب ويتجه الى دراسة الطب . يروى البيهقى « كان محمد بن زكريا الرازى فى بدء أمره صائغا ثم اشتغل بعلم الاكسير ، فذهب الى طبيب ليعالجه ، فقال له الطبيب : لا أعالجك حتى آخذ منك خمسمائة دينار . فدفع ابن زكريا الى الطبيب الدنانير ، وقال هذا هو الكيمياء لا ما اشتغلت به . فترك صناعة الاكسير ، واشتغل بعلم الطب ، حتى نسخت تصانيفه تصانيف من قبله من الأطباء المتقدمين » (٣١) . كذلك نال الأطباء الحظوة لدى الحكام والأمراء وذوى النفوذ ، وتبع ذلك كثير من المزايا المادية والأدبية . يقول نظامى العروضى السمرقندى فى أهمية الطبيب بالنسبة للحاكم : « فقوام الملك بالكاتب ، وتخليد الاسم بالشاعر ، ونظام الأمور بالمنجم ، وصحة البدن بالطبيب » (٣٢) ولعل خير ما نختم به هذا المبحث هو قول الرازى فى هذا الشأن « ولو لم يكن لصناعة الطب وللأطباء من الفضل الا ما أنا ذاكره لكانت فيه كفاية . فانه

قد اجتمع لهم خمس خصال لم تجتمع لغيرهم : الأولى اتفاق أهـل الملل والأديان على تفضيل صناعتهم . والثانية : اعتراف الملوك والسـوق بشـدة الحاجـة اليهم ، اذ هم المفزع والغياث ، حين لا ينفع عدة ولا عشيرة . والثالثة : مجاهدة ما غاب عن ابصارهم (من الأمراض) ، والرابعـة : اهتمامهم الدائم بادخـال السرور والراحـة على غيرهم . والخامسة : الاسم المشتق من أسماء الله تعالى . ولو لم يكن من فضـل الطبيب الا أن الانسان ربما يتشوق اليه حين يسأم أكرم الناس اليـه وأخصهم لديه ، فانه في العلل الصعبة ربما كره الانسان لقاء أهله وولده ويشتاق الى الطبيب ، ويتروح برؤيته ، وتطيب نفسه بحضوره ومشاهدته، لكان فيه مندوحة عن غيره » (٣٣) .

ثانيا : التعليم الطبي بين التخصص العميق والتخصص الضيق :

ان الدارس للطب الاسلامي سوف يلاحظ أن أعلامه لم يكونوا من أصحاب التخصص الضيق الذين يقتصرون على معرفة علومهم التخصصية فقط ، بل نراهم الى جوار ذلك أدباء وفلاسفة ورياضيين وعلماء فلك الخ. ويخطىء براون عندما يرجع ذلك الى مجرد أن جملة المعارف لم تكن حينئذ من الضخامة بحيث تتحدى قدرة شخص واحد على الاسـتيعاب ، وانه لذلك فنادرا ما كنا نجد طبيبا في العصر الوسيط (يقصد العصر الاسلامي هنا) يقتنع بأن يقصر اهتمامه على العلوم الطبية وحدها أو لا يرغب أن تشمل دراسته الفلك والتنجيم والموسيقى والرياضة بل والأخلاق وما وراء الطبيعة والسياسة (٣٤) . وذلك أن تلك الظاهرة لا تعود الى قلة معارف العصر فقط ، بل الى طبيعة النظرة الاسلامية الى وحدة المعرفة وترابط العلوم . اذ تعرض لنا كتب تصنيف العلوم الاسلامية هذه العلوم في صورة شجرة واحدة متعددة الفروع والأغصان ولكنها جميعا تزيد الانسان معرفة بالله وقربا منه . وهذا التصور الاسـلامي للمعرفة نراه بوضوح عند دراستنا لمصنفات مثل احصاء العلوم للفارابى ، ورسائل اخوان الصفا ، ومفاتيح العلوم للخوارزمى وغيرها من المؤلفات (٣٥) . وهو تصور يستند الى نصوص اسلامية مثل قوله تعالى : « سـنريهم آياتنا في الآفاق وفي

أنفسهم » (فصلت : آية ٥٣) . ولا شك أن هذا التصور الاسلامى يختلف عن النظرة التخصصية الضيقة التى سادت العصر الحديث ، والتى سخر أحد العلماء من جدواها قائلا : « انها معرفة الأكثر والأكثر عن الأقل والأقل » (٣٦) . ولقد كانت تلك النظرة التخصصية الضيقة سببا فى عزل « العلم الحديث » عن النظرة الشاملة الى الكون والحياة والانسان وعلاقة ذلك كله بالله (٣٧) .

لقد أدرك المسلمون مبكرا العلاقة بين العلوم بعضها ببعض ، وأن التخصص لا يعنى انفصال هذه العلوم ، بل ان بعض العلوم ضرورى لدراسة البعض الآخر ، وفى ذلك يقول ابن سينا : « تعاون العلوم هو ان يؤخذ ما هو مسألة فى علم مقدمة فى علم آخر ، فالعلم الذى فيه المسألة معين للعلم الذى فيه المقدمة . وهذا على وجوه ثلاثة : أحدها ، أن يكون أحد العلمين تحت الآخر فيستفيد العلم السافل فى مباديه من العالى مثل الموسيقى من العدد والطب من الطبيعى والعلوم كلها من الفلسفة الأولى ، واما أن يكون العلمان متشاركين فى الموضوع كالطبيعى والنجومى فى جرم الكل ، فأحدهما ينظر فى جوهر الموضوع كالطبيعى والآخر ينظر فى عوارضه كالنجومى ، فان الناظر فى جوهر الموضوع يفيد الآخر المبادىء مثل استفادة المنجم من الطبيعى أن الحركة الفلكية يجب أن تكون مستديرة ، واما أن يكون العلمان متشاركين فى الجنس واحدهما ينظر فى نوع بسيط كالحساب والآخر فى نوع أكثر تركيبا كالهندسة ، فان الناظر فى الأبسط يفيد الآخر مبادىء كما يفيد العدد الهندسة مثل ما فى عاشرة اقليدس » (٣٨) . ولذلك فان الدارس للطب كان يجد نفسه محتاجا الى أن يقرأ قراءات واسعة فى شتى العلوم والمعارف التى تخدم مهنته بطريقة مباشرة أو غير مباشرة . وهذا هو التخصص العميق وليس مجرد التخصص الضيق الذى ساد عصرنا الحديث . يقول عبد المجيد عابدين فى تقديمه كتاب : « مقدمة فى تاريخ الطب العربى » : « ولعل هذا الكتاب خير دليل نسوقه الى الذين انزووا فى قمقم التخصص الضيق لا يغادرونه الا لماما . فالعلماء الذين لا يعرفون من الأدب والتاريخ الا اخبارا طائرة

لا غناء عنها ، والادباء والمؤرخون الذين لا يعرفون من العلوم وتاريخها الا معرفة خاطفة باهته لا تفترق كثيرا عن الجهل ، هؤلاء وأولئك جميعا لا ينهجون الطريقة المثلى ، ولا يزال تطور المعرفة يثبت لنا يوما بعد يوم أن المعرفة الانسانية شبكة متصلة لا يغنى بعضها عن بعض . ولست اعنى بهذا أن يكون المثقف متخصصا فى كل علم وفن . فهذا لا سبيل الى القول به ، بل اننى أعلم علم اليقين اننا الآن فى عصر شعاره التخصص العميق ، ولكن التخصص العميق كما نفهمه لن يؤتى ثمرته المرجوة الا اذا اتخذنا من المعرفة البشرية الواسعة وسيلة الى تحقيق هذا التخصص . وفرق بين التخصص الضيق وهذا التخصص العميق الذى نقصده . ولن يتاح للمتخصص هذا العمق الا اذا اتخذ من تخصصه محورا لدائرة واسعة من المعرفة تشمل كل ما تصل اليه طاقته من الوان الثقافات القديمة والحديثة العربية وغير العربية » (٣٩) .

ولقد ساعد على ذيوع تلك النظرة المتعمقة فى دراسة العلوم ، دين يجعل طلب العلم من المهد الى اللحد ، وادبيات تربوية تحث الطالب على التوسع فى العلوم والمعارف بقدر ما يستطيع ، ومجتمع يجزل العطاء للأفراد بقدر ما يتقنون من علوم ومعارف متعددة . يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا بورك لى فى صحبة لا ازداد فيها علما » ويقول تعالى : « وقل رب زدنى علما » (طه ، آية ١١٤) « وفوق كل ذى علم عليم » (٤٠) (يوسف ، آية ٧٦) . ويقول طاش كبرى زاده موجها طالب العلم فى عصره : « ثم انك ان اخطرت بالبال ، أيها الطالب للفضل والكمال ، ان الفنون كثيرة ، وتحصيل كلها بل جلها يسيرة ، مع أن مدة العمر قصيرة ، وتحصيل آلات التحصيل عسيرة ، فكيف الطريق الى الخلاص عن هذا المضيق ، فتأمل فيما قدمت اليك من العلوم اسما ورسما، وموضوعا ونفعا ، وفيما اخترت من التفصيل فى طريق التحصيل ، ومن آداب بها فرس التمنى يثمر .. فان سهل عليك تحصيل تلك العلوم كلها فحبذا وقل : « الحمد لله الذى هدانا لهذا » (الأعراف : آية ٤٣) كما قال أفلاطون : ما من علم مستقبح الا والجهل به أقبح ، وكما قال القائل :

احرص على كل علم تبلغ الأملا ولا تموتن بعلم واحد كسلا
النحل لما رعت من كل فاكهة ابدت لنا الجوهرين الشمع والعسلا
الشمع فى الليل ضوء يستضاء به والشهد يبرى باذن البارىء العللا

وان اعجلك الوقت وخشيت ان يخترمك الشواغل بالفوت ، فخذ ما قال القائل :

ما حوى العلم جميعا احد لا ولو مارسه الف سنة
انما العلم منيع غوره فخذوا من كل علم احسنه » (٤١)

ولقد كتب هارون الرشيد الى الأمصار بعطاء كل متعلم على قدر علمه فى رسالة وجهها الى الأمصار يقول فيها : « أما بعد : فانظروا من التزم الأذان عندكم فاكتبوه فى الف من العطاء ، ومن جمع القرآن واقبل على العلم وعمر مجالس العلم ومقاعد الأدب فاكتبوه فى الفى دينار من العطاء ، ومن جمع القرآن وروى الحديث وتفقه فى العلم واستبحر فاكتبوه فى اربعة آلاف من العطاء ، وليكن ذلك بامتحان الرجال السابقين لهذا الأمر من المعروفين به من علماء عصركم وفضلاء دهركم فاسمعوا قولهم واطيعوا أمرهم فان الله تعالى يقول : « أطيعوا الله واطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » (سورة النساء : الآية ٥٩) وهم أهل العلم » (٤٢) ورغم اشتهار كل عالم بفرع أو أكثر من فروع العلم كالطب والهندسة أو الفلك او الفقه او الأدب ... (٤٣) الخ ، ورغم أنه على أساس تلك الشهرة ، كان ينال الحظوة من الأمراء والكبراء ، الا أن كتب الحضارة الاسلامية تذكر انه كان لكل طائفة من العلماء رزق محدود من لدن الأمراء ، وأن بعض العلماء كان يأخذ رزقا أكثر من طائفة واحدة أمثال الزجاج المتوفى عام ٣١٠ هـ فقد كان له رزق فى الندماء ، ورزق فى الفقهاء ، ورزق فى العلماء (٤٤) . وكان سيف الدولة بن حمدان « اذا اكل الطعام حضر على مائدته أربعة وعشرون طبيبا ، وكان بينهم من يأخذ رزقين لأجل تعاطيه علمين ، ومن يأخذ ثلاثة لتعاطيه ثلاثة علوم ، وكان من جملتهم عيسى الرقى المعروف بالتفليسى ، وكان مليح الطريقة وله كتب فى المذهب وغيرها . وكان ينقل من السريانى الى العربى ، ويأخذ اربعة ارزاق ،

رزقا بسبب الطب ، ورزقا بسبب النقل ، ورزقين بسبب علمين آخرين » (٤٥) .
بل ان مدى ما يتقن الانسان من علوم كان احد العوامل التى تؤثر حتى على ثمن الجوارى . فقد عرضت جارية موهوبة للبيع على هارون الرشيد بثمن باهظ ، ووافق الخليفة على دفع هذا الثمن بشرط أن تجيب الجارية على أى سؤال يوجهه اليهـا أعلم الحاضرين فى تلك الفروع من المعرفة التى كانت تدعى النبوغ فيها . وبدأ كبار علماء الدين والتفسير والطب والفلك والفلسفة والبلاغة والشطرنج يمتحنونها الواحد تلو الآخر ، وفى كل فرع من هذه الفروع لم تكتف الجارية باجاباتها البارعة ، على كل ما وجه اليها من أسئلة ، ولكنها كانت تطرح على أستاذ كل فرع فى نهاية الامتحان عددا من الأسئلة لم يحر لهـا جوابا . وكان الامتحان الخاص بالطب يشتمل على موجز علم التشريح وعلم وظائف الأعضاء وتشخيص الأمراض من واقع الأعراض ، وعلم الأمراض والصحة والتغذية الى غير ذلك من فروع الطب (٤٦) . واذا كان هـذا هو تقدير المجتمع لثقافة الجوارى ، فماذا عن تقديره لثقافة العلماء ؟ وهل نستغرب بعد ذلك هذا الاقبال على التخصص العلمى بالمعنى العميق ، وهـذا التبحر فى علوم الطب وغيرها من العلوم الخادمة أو المساعدة ؟ وهل اتضح لنـا بعض أسرار هـذا التفوق العلمى فى ميدان الطب الذى حققه العلماء المسلمون فى مدة وجيزة ، بحيث حولوا العلوم الطبية من دراسات دخيلة الى علوم عربية اسلامية أصيلة ؟ . .

ثالثـا — مؤسسات التعليم الطبى :

بعد أن تحدثنا عن العوامل المادية والأدبية التى دفعت الى دراسة الطب ، وبعد أن بينا أن الاتجاه الى تعليم الطب كان اتجاها يأخذ بالتخصص العميق ، نريد أن نعرض هنا لأهم المؤسسات التربوية التى مارست هـذا التعليم الطبى .

١ — المساجد :

منذ أنشأ رسول الله صلى الله عليه وسلم مسجده فى المدينة كمكان للعبادة والتعليم وادارة شئون المسلمين (٤٧) ، ومنذ نزل قوله تعالى :

« الذين ان مكناهم فى الأرض اقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور » (الحج ، الآية ٤١) ، اصبح تقليـدا اسلاميا أن يهتم الحكام المسلمون بانشاء المساجد كرمز لقيام دولة الاسلام وسيادته على الأقطار الداخلة فيـه . وتمثـل المساجد الجامعة الكبيرة فى العواصم الاسلامية رموزا حضارية لسيطرة الاسلام السياسية والدينية والثقافية ، وكانت تلك المساجد عبر العصور أماكن علم وعبادة وقيادة وتوجيه ، ويذكر المؤرخون امثلة لذلك : جامع عمرو بن العاص بالفسطاط الذى انشىء سنة ٢١ هـ ، وجامع العسكر الذى أنشىء عام ١٣٣ هـ وجامع احمد بن طولون الذى انشىء عام ٢٥٩ هـ ، والجامع الأزهر الذى أنشىء عام ٣٦١ هـ ... الخ (٤٨) . اذ كانت هـذه المساجد الجامعـة مركزا للنشـاط الدينى والاجتماعى ، ومكانا للاحتفالات الدينيـة فى الأعيـاد والمناسبات الاسلامية ، ومقرا لرجال القضاء والحسبة يباشرون منه تنفيذ أحكامهم ، ومؤسسـة للتعليم بشتى أنواعه النقليـة والعقلية ، يجلس بجوار اعمدته الأساتذة والمعلمون فيلتف الطلاب حولهم وينهلون من علومهم ومعارفهم . ولعل فيما يذكره ابن تغرى بردى ، والمقريزى عما كان يدور فى الجامع الأزهر ان يعطى صـورة عامة عما كانت تعج به تلك المساجد الجامعـة من أوجه النشـاط الدينى والثقـافى والاجتماعى والسياسى والاقتصـادى (٤٩) .

وبجوار هذه المسـاجد الجامعة فى العواصم ، انتشرت المسـاجد فى مدن العـالم الاسلامى ، وقراه ، لكى تقوم بدورها الدينى والتربوى فى حياة المسلمين (٥٠) . ولقد اشرنا فى الفصل السابق الى دور المسجد فى التعليم الابتدائى ، ويهمنا هنا ان نبرز دوره فى التعليم الأعلى المتخصص Further Education ، وبالذات التعليم الطبى موضـوع الدراسـة . فقد يظن البعض أن « التعليم الطبى » كان خارج اهتمام دائرة المساجد ، لأن علم الطب كان نوعا من فروع « العـلم الطبيعى » وهو من العلوم العقلية لا النقلية ، أو على اساس ان دراسة الطب تحتاج الى أدوات وتجهيزات خاصة ، وممارسات عملية ليس مكانها المسجد ، ولكن هناك اشارات عديدة تنفى ذلك ، وتؤكد ان أعلام الطب الاسلامى قد مارسوا

تدريس الطب فى المساجد الجامعة وغير الجامعة ، فالبيهقى عند ترجمته للقاضى الفيلسوف محمد الأفضل عبد الرازق يقول : « وكان القاضى عبد الرازق ببخارى يدرس فى مسجد محلته الطب والحساب حتى توفى بها ، وكان محترما مكرما » (٥١) . وابن أصيبعة يذكر أن موفق الدين عبد اللطيف البغدادى كان يدرس الطب فى الجامع الأزهر طوال مدة اقامته فى مصر . وينقل عن سيرته الذاتية التى كتبها البغدادى نفسه : « وكانت سيرتى فى هذه المدة ، اننى اقرىء الناس بالجامع الأزهر من أول النهار الى نحو الساعة الرابعة ، ووسط النهار يأتى من يقرأ الطب وغيره ، وآخر النهار ارجع الى الجامع الأزهر فيقرأ قوم آخرون ، وفى الليل اشتغل مع نفسى » (٥٢) . ولقد نزل البغدادى مصر فى عهد صلاح الدين الأيوبى عام ٥٨٣ هـ ، وظل بها حتى سنة ٥٩٧ هـ ، واشتغل فى تلك الفترة بالتدريس ودراسة الخواص النباتية والطبيعية ومزاولة الطب ، والتف حوله جمهرة من الأساتذة والطلاب (٥٣) . ومثل هذه الشواهد تؤكد أن الطب عندما عرب ، واشتغل به الأطباء المسلمون ، فانهم ادخلوه ضمن فروع العلم الاسلامى ، أو شجرة المعرفة الاسلامية ، ومن ثم وجد طريقه الى المسجد ، اهم المؤسسات التعليمية فى حياة المسلمين . ومن المرجح أن يكون « التعليم الطبى » الذى مارسه العلماء فى المساجد مقتصرا على « الجانب النظرى » من الدراسات الطبية ، تاركين الجانب العملى والتطبيقى الى المدارس والبيمارستانات . ويظل التعليم الطبى يدرس فى رحاب المسجد بصورة أو بأخرى طوال العصور الاسلامية وحتى مطلع العصر الحديث ، عندما يصبح « التعليم الطبى » مقترنا مرة أخرى باللغة الأجنبية ، وبالأخذ من مصادر غير عربية أو اسلامية ، وعندما يسود الاعتقاد الخاطىء أن المساجد للعبادة ، وللتعليم الدينى فى احسن الأحوال ، اما العلوم الحديثة فلها مؤسساتها المستحدثة المأخوذة عن الغرب (٥٤) . وهنا ينفصل الطب عن شجرة « المعرفة الاسلامية » ، وينمو بعيدا عن « روح المسجد » وهيمنة تعاليم الاسلام وسيطرة اللغة العربية على أبحاثه ودراساته .

٢ — المدارس الطبية :

ظهرت المدارس كمؤسسات تعليمية متخصصة فى تقديم الوان العلوم النقلية والعقلية ومنها الطب ، ووقف الدارسون أمام ظهورها محاولين تفسير أسبابه ، ولماذا لم يكتف المسلمون بالمساجد لتحقيق تلك الغاية ؟ وراوا أن ظهورها كان تطورا طبيعيا لتنوع العلوم وشدة اقبال الناس على حلقات العلم حتى حفلت كثير من المساجد بعدة حلقات دراسية لا بحلقة واحدة ، وكان ينبعث من كل حلقة من هذه الحلقات صوت المدرس يلقى الدرس ، واصوات الطلاب يسألون ويناقشون وكانت تتلاقى الأصوات المتصاعدة من الحلقات المختلفة فتحدث فى المسجد شيئا قليلا او كثيرا من الضجيج يمنع الصلاة والعبادة من أن تؤدى على وجهها ، وشىء آخر هو ان العلوم تطورت بتطور الزمن وتقدم المعارف وأصبحت هناك مواد تستدعى دراستها كثير من الحوار والنقاش والجدل كعلم الكلام وعلم الجدل والمناظرة ، ومثل هذه المواد تنافى طبيعة تدريسها مع ما يجب ان يكون عليه رواد المساجد من هدوء وجلال ، ثم تبعا لراى Von Kremer « كان هناك جماعة اشتغلوا بالتعليم معظم وقتهم وحاولوا إن يرتزقوا عن طريق حرف بسيطة كانوا يقومون بها مع التدريس ولكنهم فشلوا فى الحصول على مستوى مناسب من العيش ، فلم يكن بد حينئذ من انشاء المدارس لتضمن لهم جرايات تقوم بحاجاتهم » (٥٥) . ورغم وجاهة هذه الأسباب السابقة الا انها تتغافل السبب الجوهرى الذى يتمثل فى « روح الخير العام » الذى يسود المجتمع الاسلامى ، والذى يلتمس افضل أبواب الانفاق فى سبيل الله ، وافضل اسباب الحصول على رضاء الله . ولا شك أن الانفاق على نشر العلم والتعليم كان من أهم ابواب هذا الانفاق — يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اذا مات ابن آدم انقطع عمله الا من ثلاث : صدقة جارية ، او علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له » . وفهم المسلمون ان الوقف على التعليم هو افضل انواع الصدقات الجارية فظهرت الأوقاف التعليمية وزادت ايراداتها ، واندفع الخلفاء والأمراء والأثرياء والعلماء الى انشاء أنواع متعددة من المدارس يتفرغ فيها الطلاب والأساتذة لدراسة علوم معينة يحددها

الواقف (٥٦) . ولقـد امتاز التعليم فى المدارس بانه تعليم نظامى طـول الوقت (٥٧) Full time ويقول « خودابخش » : « ان عددا كبيرا من الطلاب كان يسكن هذه المدارس التى يمكن تشبيهها بالكليات الداخلية فى جامعتى اوكسفورد وكمبردج » (٥٨) .

ولقد كانت معظم هذه المدارس آية من آيات الفن الاسلامى انفقت فى بنائهـا الأموال الطائلة وحبست عليهـا الأوقاف العظيمة ، وجعلت الرواتب السخية لأساتذتها وطلابها والموظفين بها . فمدرسة السلطان حسن (٧٥٧ هـ) على سبيل المثال تعد من اعظم الآثار الاسلامية فى العالم واروعها فى مصر . وتلخص لنا واجهتها الرئيسية جميع خصائص الفن الاسلامى . ففيها الخط الكوفى والخط النسخى وفيها الزخارف التى نقلها المسلمون من الامم والزخارف التى ابدعوها وصـارت من اخص مميزات منهم (٥٩) . وتصميم المدرسة من الداخل وما به من افنية ومبان رائعـة يعطى صورة جيدة لتصميم المبانى المدرسية ، ومحتويات المبنى المدرسى . ونفس الصورة نجدها فى تصميم المدرسة المستنصرية وما اشتملت عليه من حمامات ومطابخ وحدائق وساعة عجيبة الصنع عملت لترشد الناس الى اوقات الصلاة والدراسة كما أنها عملت بشكل غريب لطيف لتكون زينة تحلى باب المدرسة . ولقد استوقف جمال هذه الساعة انظار المؤرخين فنقلوا لنا وصفها واسم صانعها نور الدين على بن تغلب الساعاتى . ويقول صاحب الحوادث الجامعة : « وفى سنة ٦٣٣ هـ تكامل بناء الايوان الذى انشىء مقابل المدرسة المستنصرية وعمل تحته صفة يجلس فيهـا الطبيب وعنده جماعته الذين يشتغلون عليه بعلم الطب ، ويقصده المرضى ويداويهم ، وبنى فى حائط هذه الصفة دائرة وصور فيهـا صورة الفلك وجعل فيها طاقات لطاف لها ابواب لطيفة ، وفى الدائرة بازان من ذهب فى طاستان من ذهب ، ووراءهما بندقتان من شبه (نحاس يصبغ فيصفر ويشبه الذهب بلونه) لا يدركهما الناظر . فعند مضى كل ساعة ينفتح فما البازين ويقع منهما البندقتان وكلما سقطت بندقة انفتح باب من ابواب تلك الطاقات ، والباب من ذهب فيصير حينئـذ مفضضا ، واذا وقعت البندقتان فى الطاستين تذهبـان الى موضعهما ثم تطلع اقمار من ذهب

فى سماء لازوردية فى ذلك الفلك مع طلوع الشمس الحقيقيـــة ، وتدور مع دوراتها وتغيب مع غيبوبتها فاذا جاء الليل فهناك اقمار طالعة من ضوء خلفها كلما تكاملت ساعة تكامل ذلك الضوء فى دائرة القمر ، ثم يبتدىء فى الدائرة الأخرى الى انقضاء الليل وطلوع الشمس فيعلم بذلك أوقات الصلاة » (٦٠) . كذلك نلاحظ ان المسجد كان يمثل جزءا هاما من المبنى المدرسى ، وان افتتاح المدرسة كان يؤرخ له بتاريخ أول صلاة اقيمت فيها . فعنـــد التاريخ لافتتاح مدرسة الطب التى انشأها مهـــذب الدين يقول ابن اصيبعة : « وابتدأ بالصلاة فى هذه المدرسة يوم الجمعة صلاة العصر ثامن ربيع الأول سنة ثمان وعشرين وستمائة » (٦١) . ولا شـــك أننـــا لو درسنا تصميم المبانى المدرسية الاسلامية وما اشتملت عليه من مرافق ، وما روعى فيهـــا من اصول هندســـية وفنية واســـلامية ، لاستفدنا كثيرا فى تطوير تصميمات حديثـــة لمدارسنا نراعى فيهـــا تلك القيم الجماليـــة والاسلامية .

ويروى لنا المؤرخون ان علماء ما وراء النهر اصابهم الهم والحزن عندما كوشفوا ببناء المدارس ببغداد ، وأنهم اقاموا مأتم العلم وقالوا : كان يشتغل به أرباب الهمم العالية والأنفس الذكية الذين يقصدون العلم لشرفه والكمال به فيأتون علماء ينتفعون بهم وبعلمهم ، ، واذا صار عليه أجرة تدانى اليه الأخساء وأرباب الكسل (٦٢) . الا أن هذا الخوف سرعان ما تبدد ، اذ ارتفع أكثر علماء المدارس وطلابهـــا الى مستوى المسئولية العلمية ، ومارســوا واجبهم العلمى دون الخضوع لأهواء الحكام ، بحيث كانوا محترمين لهم كرامة وحرمة ، يسعى اليهم الخلفاء والملوك والأمراء وهم لا يسعون الى احد منهم (٦٣) . وبذلك انتشرت المدارس انتشارا كبيرا ، حتى أن المقريزى يذكر لنا ثلاثا وستين مدرسة كانت فى القـــاهرة وحدها ، والرحالة ابن جبير يصف لنا حوالى ثلاثين مدرسة كانت فى بغداد ، وكانت جميعها تفوق اجمل القصور جمالا وروعة (٦٤) . والنعيمى الدمشقى يفرد مؤلفا خاصا يصف فيه مدارس دمشق وحدها (٦٥) . ويهمنا ان نلفت النظر هنا الى توفر التجهيزات العلمية لتلك المدارس وبالذات المدارس الطبية موضوع الدراسة ، ونسبة المدرستين الى عدد الطلاب ، والمستوى

المعيشى الجيد للطلاب والعلماء . ويكفى ان نذكر هنا انه فى مدرسة الطب بالمستنصرية ، كان هناك طبيب ، يعلم عشرة طلاب فقط ، وكان هـذا الطبيب مسئولا عن علاج طلاب واعضاء هيئة تدريس المستنصرية بمدارسها المختلفة ، مما يعتبر مجالا حيويا له ولتلامذته لاجراء التجارب ومعالجة المرضى ، كذلك ضمت المستنصرية دار كتب عامرة بأنواع المؤلفات بلغ عددها عند الافتتاح ثمانين الف كتاب عدا ما حمل اليها بعد ذلك ، وكانت هـذه الدار تساعد طلاب المستنصرية على النسخ والمطالعة والتاليف ، كذلك فقد توفر للطلاب والعلماء المستوى المادى والادبى والحرية العلمية مما اتاح لهم التفرغ للعلم والبحث (٦٦) .

كذلك ينبغى الاشارة هنـا الى ان انشاء المدارس لم يكن عملا حكوميا رسميا فقط ، وان الحركة الواسعة التى قام بهـا نظام الملك فى بلاد الشـام ، وصلاح الدين الأيوبى فى مصر من انشـاء عـدد كبير من المدارس لا يمكن ان يحجب الحقيقة ، وهى ان الأفراد ايضا قد انشاوا الكثير من المدارس ومنها المدارس الطبيـة ، ولقد سبق ان ذكرنا كيف ان المسلمين قد ادركوا الحاجة الي تعريب التعليم الطبى والحاجة الى كسر احتكار غير العرب والمسـلمين لصناعة الطب مما دفعهم الى الاهتمام بانشاء المدارس الطبية حكاما وافرادا . وكان بعض الأطباء مثل رضى الدين الرحبى « يرى ان لا يقرىء احدا من اهل الذمة اصـلا صناعة الطب ، ولا ان يجده اهلا لها . وكان يعطى الصناعة حقها من الرئاسة والتعظيم . وقال لى انه لم يقرىء فى سائر عمره من أهل الذمة سوى اثنين لا غـير احدهما الحكيم عمران الاسرائيلى والآخر ابراهيم بن خلف السـامرى بعد ان ثقلا عليه بكل طريق وتشفعا عنده بجهات لا يمكن ردهم . وكل منهما نبغ وصار طبيبا فاضلا » (٦٧) . ومما يدل على ان انشاء المدارس الطبية لم يقتصر على الطبقات الحاكمة ما رواه ابن اصيبعة فى ترجمة شرف الدين الرحبى : « ولما وقف شيخنا مهذب الدين عبد الرحيم بن على رحمه الله الدار التى له بدمشق وجعلها مدرسة يدرس فيها صناعة الطب وينتفع المشتغلون بقراءتهم فيها ، اوصى ان يكون مدرسها شرف الدين بن الرحبى ،

لما قد تحققه من علمه وفهمه ، فتولى التدريس بها مدة ... الخ » (٦٨) ، ثم صار المدرس فيها بعد الحكيم بدر الدين المظفر رئيس الأطباء فى ذلك الوقت (٦٩) . ولقد وقف مهذب الدين لتلك المدرسة « ضياعا وعدة أماكن يستغل ما ينصرف فى مصالحها ، وفى جامكية المدرس وجامكية المشتغلين بهـــا » (٧٠) .

ويقف احمد شلبى عند ظاهرة قلة عدد مدارس الطب ، بالقياس الى عدد المدارس الأخـرى ، ويرجع ذلك الى أن الطب كان لا يدرس فى مدارس خاصة الا قليـلا ، والغالب أن يدرس فى المستشفيات ليمكن التطبيق العملى للنظريات الطبية التى يلقيها الأساتذة على الطلاب (٧١) . ويمكن أن يضاف الى ذلك أن عدد المؤسسـات التعليمية الطبية انما يتوقف على مقدار حاجة المجتمع الى عدد معين من الأطباء ، وهو عدد أقل قطعا من عدد غيرهم من المثقفين . ولعـل فى وجود ستة آلاف دارس لاطب وحوالى ألف ممارس طبى فى بغداد وحدها (٧٢) ، ما يكفى لكى يجعـل الواقفين يتجهون بأوقافهم الخـيرية الى مؤسسات تعليميـة أو خدمات اجتماعية أخرى يشعرون بحاجة المجتمع اليهـا أكثر وأكثر . كذلك فانه مع تعريب التعليم الطبى وتيسيره للدارسين ، دخل الطب المساجد ، وعقدت له حلقات فى منازل الأطباء ودور الكتب وغـيرها من مؤسسات التعليم ، مما قلل الحاجة بالفعل لتخصيص مزيد من الأوقاف لانشـاء « مدارس الطب » ، وهذا يفسر لنا لماذا جاءت « مدارس الطب » أقل عددا من غيرها من المدارس فى المراجع والمصادر العربية . ولكنها على كل حال ، قلة تلغى دورها كمؤسسة تخصصت فى تقديم التعليم الطبى .

٣ ـ البيمارسـتانات :

كلمة البيمارستان ، كلمة فارسية مركبة من كلمتين (بيمار) بمعنى مريض او عليل او مصاب ، (وستان) بمعنى مكان أو دار ، فهى اذن دار المرضى ، ثم اختصرت فى الاستعمال فصارت مارسـتان كما ذكرها الجوهرى فى صحاحه (٧٣) . ويرى المسلمون أن ابقراط كان أول من اخترع البيمارسـتانات واوجدها ، وذلك أنه عمل بالقرب من داره فى موضـع

من بستان كان له موضعا مفردا للمرضى وجعل فيه خدما يقومون بمداواتهم وسماه أخسندوكين ، اى مجمع المرضى (٧٤) . اما فى الاسلام ، فان الوليد ابن عبد الملك الخليفة الأموى (فى سنة ٨٨ هـ / ٧٠٦ م) يعتبر أول من بنى البيمارستان ، وجعل فيه الأطباء وأجرى لهم الأرزاق ، وأمر بالحجر على المجذومين لئلا يخرجوا فتنتشر العدى بين الناس ، واجرى عليهم وعلى العميان الأرزاق (٧٥) . ومنذ هذا التاريخ أصبح بناء البيمارستانات عملا من اعمال الخير يقوم به الخلفاء والسلاطين والملوك والأمراء وأهل الخير على العموم صدقة ، وحسبة ، وخدمة للانسانية وتخليدا لذكراهم (٧٦) . وانتشرت البيمارستانات فى كل العواصم العربية والاسلامية فى مرو والرى ودمشق وانطاكية ومكة والمدينة والقاهرة والقيروان ومراكش وغرناطة وغيرها (٧٧) . ولدينا معلومات موثقة على نحو اربع وثلاثين من هذه المؤسسات الموزعة فى أرجاء العالم الاسلامى من ايران الى المغرب ومن شمال سورية الى مصر (٧٨) . لعل من اشهرها بيمارستان المقتدرى والسيدة فى بغداد وبيمارستان ابن طولون والداودى فى القاهرة ، ومستشفى السلطان صلاح الدين الأيوبى ، ومستشفى يعقوب المنصور فى مراكش (٧٩) .

ولقد تم اختيار الأماكن المناسبة لاقامة تلك المؤسسات الطبية ، واختيار اشهر أطباء العصر للعمل بها كأطباء وأساتذة فى نفس الوقت . من ذلك أن عضد الدولة عندما اراد بناء البيمارستان العضدى جمع الأطباء واستشارهم فى الموضع الذى يجب أن يبنى فيه المارستان ، وكان الرازى فى جملة من اجتمع على هذا الأمر ، فأمر أن يعلق بعض الغلمان فى كل ناحية من جانبى بغداد شقة لحم ، ثم اختار الموضع الذى لم تتغير فيه رائحة اللحم بسرعة موضعا لبناء تلك المستشفى ، ثم أمر عضد الدولة أن يحضروا له ذكر الأطباء المشهورين حينئذ ببغداد واعمالها ، فكانوا متوافرين على المائة ، فاختار منهم نحو خمسين بحسب ما علم من جودة أحوالهم وتمهرهم فى صناعة الطب ، فكان الرازى منهم ، ثم أنه اقتصر من هؤلاء ايضا على عشرة ، فكان الرازى منهم ، ثم اختار من العشرة ثلاثة فكان الرازى إحدهم . ثم انه ميز فيما بينهم فبان له أن الرازى افضلهم ، فجعله ساعور

(متفقد المرضى ورئيس الأطباء) البيمارستان العضدى ، وعين معه أربعة وعشرين طبيبا من مختلفى التخصصات ، فكان من الطبائعيين أبو الحسن بن كشكرايا المعروف بتلميذ سنان ، وابو يعقوب الأهوازى وبنو حسنون وغيرهم . وكان فى البيمارستان من الكحالين الفضلاء أبو نصر بن الدحلى ، ومن الجراحين أبو الخير وأبو الحسن بن تفاح وجماعته ، ومن المجبرين المشار اليهم أبو الصلت (٨٠) .

وقد اغدق الملوك والسلاطين والأمراء وأهل الخير على بناء تلك البيمارستانات واعدادها وتجهيزها بكل ما تحتاج اليه من أطباء وادوية وأسرة وخدمات ، بحيث اتسعت خدماتها لتشمل القادرين وغير القادرين المقيمين من أهل البلدة والغرباء والوافدين عليها ، المسلمين وأهل الذمة على السواء (٨١) . كذلك فقد توافر لتلك المؤسسات أن تكون اماكن صحية من حيث تصميم حدائقها وافنيتها ونافوراتها جنبا الى جنب مع تصميم بنائها الهندسى واقسامها الطبية بجوار ما نالته من رعاية وعناية الحكام . يقول ابن جبير عند وصفه لبيمارستان صلاح الدين بالقاهرة : « ومما شاهدناه أيضا من مفاخر هذا السلطان المارستان الذى بمدينة القاهرة . وهو قصر من القصور الرائعة حسنا واتساعا ، أبرزه لهذه الفضيلة تأجرا واحتسابا ، وعين قيما (رئيس الأطباء) من أهل المعرفة ووضع لديه خزائن العقاقير ، ومكنه من استعمال الأشربة واقامتها على اختلاف أنواعها . ووضعت فى مقاصير (غرف) ذلك القصر أسرة يتخذها المرضى مضاجع كاملة الكسى . وبين ذلك القيم خدمة (أطباء ممارسون) يتكفلون بتفقد أحوال المرضى بكرة وعشية ، فيقابلون من الأغذية والأشربة بما يليق بهم . وبازاء هذا الموضع ، موضع مقتطع للنساء المرضى ، ولهن أيضا من يكفلهن ، ويتصل بالموضعين المذكورين موضع آخر متسع الفناء به مقاصير عليها شبابيك الحديد اتخذت مجالس للمجانين ، ولهم أيضا من يتفقد فى كل يوم أحوالهم ، ويقابلها بما يصلح لها ، والسلطان يتطلع هذه الأحوال كلها بالبحث والسؤال ، ويؤكد فى الاعتناء بها والمثابرة عليها غاية التأكيد » (٨٢) . أما فى المغرب فان عبد الواحد المراكشى يقدم لنا وصفا لمستشفى مراكش ، يكاد يعكس نفس الملامح

العامة للبيمارستانات فى الاسلام . يقول : « بنى يعقوب المنصور فى مدينة مراكش بيمارستانا ما اظن ان فى الدنيا مثله ، وذلك أنه تخير له ساحة فسيحة باعدل موضع فى البلد ، وامر البنائين باتقانه على احسن الوجوه ، فاتقنوا فيه من النقوش البديعة والزخارف المحكمة ما زاد على الاقتراح ، وامر ان يغرس فيه مع ذلك جميع الأشجار والمشمومات والمأكولات ، واجرى فيه مياها كثيرة ، تدور على جميع البيوتات (حجرات المستشفى) ، زيادة على اربع برك فى وسط احداها رخام ابيض ، ثم امر له من الفرش النفيسة من انواع الصوف والكتان والحرير والأديم وغيره بما يزيد على الوصف ويأتى فوق النعت ، واجرى له ثلاثين دينارا فى كل يوم برسم الطعام وما ينفق عليه خاصة خارجا عما جلب اليه من الأدوية ، واقام فيه من الصيادلة لعمل الأشربة والأدهان والاكحال ، وأعد فيه للمرضى ثياب ليل ونهار للنوم من جهاز الصيف والشتاء ، فاذا برىء المريض فان كان فقيرا أمر له عند خروجه بمال يعيش به ريثما يستقل ، وان كان غنيا دفع اليه ماله وتركته وسببه . ولم يقصره على الفقراء دون الاغنياء ، بل كل مريض بمراكش من غريب حمل اليه وعولج الى أن يستريح أو يموت . وكان المنصور فى كل جمعة بعد صلاته يركب ويدخل (البيمارستان) يعود المرضى ويسال عن أهل بيته (الأقسام الداخلية) ، يقول : كيف حال القومة (الأطباء المارسين) عليكم ؟ الى غير ذلك من السؤال ثم يخرج . ولم يزل مستمرا على ذلك الى أن مات ، رحمه الله » (٨٣) .

ولم تكن مهمة هذه البيمارستانات فى الغالب قاصرة على مداواة المرضى بأقسامها الداخلية والخارجية ، بل كانت فى نفس الوقت معاهد علمية ، ومدارس لتعليم الطب يتخرج منها المتطببون والجراحون « الجرائحيون » والكحالون كما يتخرجون اليوم من مدارس الطب (٨٤) . بل لعل طلبة الطب فى العصر الاسلامى قد أتيح لهم من فرص التدريب العملى والملاحظة السريرية ، وتفرغ الأساتذة للتعليم To train doctors واعطاء المثل الجيد للممارسة To set an Example to practice ما لم يتح

لاكثر طلاب الطب لدينا الآن . فقد تعدد وجود الأطباء فى البيمارستان الواحد ، مما أتاح للطلاب رؤية كثير من أمثلة الفحص والعلاج Clinical demonstration والحكم السريرى الجيد Clinical judgement (٨٥) .
وعلى سبيل المثال ، فان البيمارستان الكبير بدمشق كان يضم بجوار مهذب الدين الدخوار رئيس أطباء عصره ، والحكيم عمران « وهو من أعيان الاطباء وأكابرهم فى المداواة والتصرف فى أنواع العلاج ، فتضاعفت الفوائد المقتبسة من اجتماعهما ، ومما كان يجرى بينهما من الكلام فى الأمراض ومداواتها ومما كانا يصفاه للمرضى » (٨٦) . وكان معهما ايضا فى نفس البيمارستان الشيخ رضى الدين الرحبى — الذى كان مسئولا عن العيادة الخارجية — « وهو من اكبر الأطباء سنا واعظمهم قدرا واشهرهم ذكرا ، وكان يجلس على دكة ويكتب لمن يأتى الى البيمارستان ، ويستوصف منه للمرضى اوراقا يعتمدون عليها ويأخذون بها من البيمارستان الأشربة والأدوية التى يصفها » . ويذكر لنا ابن أصيبعة انه كان بعد أن « يفرغ الحكيم مهذب الدين والحكيم عمران من معالجة المرضى المقيمين بالبيمارستان (الأقسام الداخلية) وانا معهم ، أجلس مع الشيخ رضى الدين الرحبى فاعاين كيفية استدلاله على الامراض ، وجملة ما يصفه للمرضى وما يكتب لهم ، وابحث معه فى كثير من الأمراض ومداواتها » (٨٧) .

كذلك فقد ضمت تلك البيمارستانات « مكتبات طبية » يرجع اليها الطلاب والأساتذة ، اذ لا يكتفى الاساتذة بالشرح ، بل يأخذون الطلاب الى المكتبة ، ويدلونهم على المراجع فى موضوع الدرس . وقد يظل الطلاب فى قراءات ومناقشات مع الأساتذة داخل المكتبة بالساعات الطوال . ويصف لنا ابن أصيبعة صورة من ذلك عند ترجمته لأبى المجد بن ابى الحكم الذى كان طبيبا بالبيمارستان الكبير الذى انشأه نور الدين زنكى (١١١٨ — ١١٧٤) بدمشق . فقد كان أبو الحكم « يدور على المرضى به ، ويتفقد احوالهم ، ويعتبر امورهم ، وبين يديه المشارفون والقوام لخدمة المرضى فكان جميع ما يكتبه لكل مريض من المداواة والتدبير لا يؤخر عنه ولا يتوانى فى ذلك ... وكان بعد فراغه من ذلك وطلوعه الى القلعة

وافتقاده المرضى من اعيان الدولة * ، يأتي ويجلس في الايوان الكبير الذى للبيمارستان وجميعه مفروش ، ويحضر الاشتغال . وكان نور الدين رحمه الله قد وقف على البيمارستان جملة كبيرة من الكتب الطبية ، وكانت في الخرستانين (الخزانتين) اللتين في صدر الايوان ، فكان جماعة من الأطباء والمشتغلين يأتون اليه ، ويقعدون بين يديه ثم تجرى مباحث طبية ويقرىء التلاميذ ، ولا يزال معهم في اشتغال ومباحثة ونظر في الكتب مقدار ثلاث ساعات ، ثم يركب الى داره » (٨٨) . ولعل ما كان يفعله ابو الحكم يعطى صورة لعمل عضو هيئة التدريس بالبيمارستانات الاسلامية . فهو يمارس الكشف والعلاج وحوله الطلاب ، ثم بعد ذلك ينصرف معهم الى القراءة والمناقشة والبحث الطبى في الحالات المرضية التى تستدعى ذلك ، ويعجب الدارس لاهتمام المسلمين بالمكتبات الملحقة بتلك البيمارستانات وتزويدها باعداد ضخمة من الكتب والمراجع المختلفة ، حتى ذكر أن عدد الكتب التي وجدت في مستشفى قلاوون بالقاهرة قد بلغت حوالي مائة الف مجلد ، اخذت أغلبها من دار الحكمة بالقاهرة (٨٩) . مما أتاح للطلاب والأساتذة جوا علميا مناسبا .

وطبيعى في ظل هذه الظروف العلمية ، أن يشعر طلاب الطب في البيمارستانات بعد تخرجهم بالثقة العلمية والعملية في أنفسهم ، اذ كان العمل كطبيب ممارس بالبيمارستان دليلا كافيا على حذق الطبيب وكفاءته ، ويروى ابن أصيبعة قصة تعكس ذلك ، ذلك أن الفضل اخبر جبرائيل طبيب الرشيد ذات مرة ، أن ماسويه يزعم انه اعرف الناس بالكحل مما اثار الغيرة في نفس جبرائيل — وكان بينه وبين ماسويه منافسة — فقال للفضل : ومن هذا ؟ لعله الذى يجلس بالباب ؟ فقال له : نعم . قال جبرائيل : هذا كان أكارا (فلاحا) لى فلم يصلح للكروث (للزراعة)

---

* لاحظ كيف بدأ أبو الحكم يتفقد الأقسام الداخلية للجمهور العادى ، ثم بعد ذلك توجه الى افتقاد المرضى من أعيان الدولة ، ثم بعد ذلك انتقل الى التدريس . وقارن ذلك بما يحدث بكليات الطب من انصراف الأساتذة بعياداتهم الخاصة عن واجبهم التعليمى والأكاديمى .

فطردته ، وقد صار الآن طبيبا ! وما عالج الطب قط ! فان شئت فأحضره وانا حاضر . وتوهم جبرائيل — لانه طبيب الخليفة ورئيس اطباء عصره — انه يدخل بين يديه ويتذلل له . فامر الفضل باحضاره ، فدخل وسلم وجلس بحذاء جبرائيل . فقال له جبرائيل : يا ماسويه ، اصرت طبيبا ؟ فقال له : لم ازل طبيبا ، انا اخدم البيمارستان منذ ثلاثين سنة ، تقول لى هذا القول ! ففزع جبرائيل ان يزيد فى المعنى ، فبادر وانصرف فى الحال وهو خجل ، كذلك عندما دخل ماسويه على الخليفة هارون الرشيد وساله : تحسن شيئا من الطب سوى الكحل ؟ فقال : نعم يا امير المؤمنين، وكيف لا احسن وانا قد خدمت المرضى بالبيمارستان منذ ثلاثين سنة ؟ فادناه منه (٩٠) مما يدل على ان الخدمة فى البيمارستان (الطبيب الممارس)، كان دليلا كافيا على كفاءة الطبيب .

٤ — منازل الأطباء :

لم يكتف الأطباء المسلمون بتدريسهم فى المساجد ، والمدارس ، والبيمارستانات بل نجد لأكثرهم « مجالس طبية » كانت تعقد فى منازلهم ويحضرها الطلاب . ويبدو أن تلك المجالس كانت اقرب الى « السيمينارات العلمية » المتخصصة التى تمتاز « بالتعمق العلمى » من ناحية وشيوع روح « الزمالة العلمية » من ناحية أخرى . ويصف لنا ابن أصيبعة تلك الجلسات العلمية ، وكيف كانت تدار ، من ذلك الجلسة التى كان يحضرها ابن أصيبعة لكى يقرأ على موفق الدين يعقوب بن سقلاب شيئا من كلام أبقراط . يقول : « فكنت أرى من حسن تأنيه فى الشرح وشدة استقصائه للمعانى بأحسن عبارة وأوجزها واتمها معنى ، ما لا يتيسر احد على مثل ذلك ولا يقدر عليه . ثم يذكر خلاصة ما ذكره ، وحاصل ما قاله ، حتى لا يبقى فى كلام ابقراط موضع الا وقد شرحه شرحا لا مزيد عليه فى الجودة ، ثم انه يورد نص ما قاله جالينوس فى شرحه لذلك الفصل على التوالى الى آخر قوله : ولقد كنت اراجع شرح جالينوس فى ذلك فاجده قد حكى جملة ما قاله جالينوس باسره فى ذلك المعنى ، وربما الفاظ كثيرة من الفاظ جالينوس يوردها باعيانها من غير أن يزيد فيها ولا ينقص . وهذا

شيء تفرد به فى زمانه » (٩١) . أما جلسة مهذب الدين عبد الرحيم بن على فكانت تأخذ صـــورة أخرى ، وذلك انه كان رحمـــه الله ، اذا تفرغ من البيمارستان وافتقد المرضى من اعيان الدولة وأكابرهم وغيرهم ، يأتى الى داره ثم يشرع فى القراءة والدرس والمطالعة ، ولابد له مع ذلك من نسخ ، فاذا فرغ منه أذن للجماعة فيدخلون اليه ، ويأتى قوم بعد قوم من الأطباء والمشتغلين . وكان يقرأ كل واحد منهم درسه ، ويبحث معه فيه ، ويفهمه اياه بقدر طاقته ، ويبحث فى ذلك مع المتميزين منهم ، ان كان الموضـــع يحتاج الى فضل بحث ، أو فيه بحث يحتاج الى تحرير . وكان لا يقرىء أحدا الا وبيده نسخة من ذلك الكتاب يقراه ذلك التلميذ ، ينظر فيه ويقابل به ، فان كان فى النسخة الذى يقرأ غلط أمر باصلاحه . وكانت نســـخ الشـــيخ مهذب الدين التى تقرأ عليه فى غاية الصحة ، وكان اكثرها بخطه . وكان ابدا لا يفارقه الى جانبه مع ما يحتاج اليه من الكتب الطبية ومن كتب اللغة كتاب الصحاح للجوهرى ، والمجمل لابن فارس وكتـــاب النبات لأبى حنيفة الدينورى . فكان اذا فرغت الجماعة من القراءة يعود هو الى نفســـه ، فيأكل شـــيئا ثم يشرع بقية نهاره فى الحفظ والدرس والمطالعة ويسهر أكثر ليله فى الاشتغال (٩٢) . أما فى منزل الشيخ الرئيس ابن سينا فقد كان يجتمع كل ليلة فى داره طلبة العلم ، وتلميذه أبو عبيـــد يقرأ من كتاب الشفاء نوبة ، ويقرأ المعصومى من القانون نوبة ، وابن زيلة يقرأ من الاشارات نوبة ، وبهمن يار يقرأ من الحاصل والمحصول نوبة ، فاذا فرغوا حضر المغنون واشتغلوا بالشراب ؟ وكان التدريس بالليـــل لعدم الفراغ بالنهار (٩٣) . وهكذا تتعدد صور تلك الجلســـات العلميـــة من الشرح والتفســـير ، لمراجعة المؤلفات الطبية وتصـــحيح الترجمات والطبعات ، للمناقشة والبحث وتحرير الرسائل (٩٤) . ولا شك أن تلك الجلسات العلمية الخاصة كانت فرصة لمزيد من الاحتكاك العلمى ، وتبادل الآراء والأفكار الطبية المختلفة .

٥ — المكتبات المتخصصة للدراسات العليا : (Further Education)

يعجب الدارس للعناية التى وجههـــا المســـلمون لاقامة الكثير من المكتبات ، وهذا العدد الهائل من دور الكتب ودور العلم المنتشرة فى انحاء

العالم الاسلامى . لقد كان عددها يزداد باستمرار كما وكيفا . وتنوعت أغراضها حتى شملت جميع الأغراض التى تؤسس المكتبات من أجلهـــا لذلك « نجد فى دنيا الاسلام جميع أنواع المكتبات : المكتبات العامة المفتحة للجمهور على اختلاف أنواعه وأجناسه وثقافاته ، والمكتبات الخاصة التى يمتلكها أفراد معينون لخدمة أغراضهم الشـــخصية ، والمكتبات الملحقة بالمســاجد والجوامع والربط والخانقاة ، ومكتبات الدولة التى ينشـــئها الخليفـــة أو الأمير أو حاكم الولاية ، والمكتبات المخصصـــة للدراسات العليا ، والمكتبات التابعة للمدارس والجامعات على اختلاف أنواعهـــا : والمكتبات الموجودة فى المشافى والمارستانات ، وما شابه » (٩٥) . ولقــد تعودت كثير من الدراســـات أن تنســب فضـــل ظهور « دار الحكمـــة » — المكتبات المتخصصة للدراسات العليا — الى عصر المأمون العباسى ، اذ شاهد عصره أكبر حركة للترجمـــة وجمع الكتب وتيســـيرها ، للباحثين والدارسين . ولكن بالعودة الى المصادر الاسلامية وجدت شواهد كثيرة تدل على أن فكرة جمع الكتب وترجمتها وتيسيرها للدارســـين والباحثين يمكن أن ترجـــع الى زمن الخليفـــة معـــاوية ، أو الأمير خالد بن يزيد . ولقد اوضح يوسف العش فى دراســـــته القيمة حول المكتبات العربيـــة "Les Bibliothéques Arabs, P. 17" ، أن خالد بن يزيد احتفظ بمكتبة جده معاوية (بيت الحكمة) واغناها بمجموعات الحديث وكتب الكيمياء والفلك والطب والفلسفة ، وانه انشا حركة لترجمة الكتب الأجنبية الى اللغـــة العربية وجمع حوله العلماء فى كل مجال . وهـــذه الأعمال تجعل منـــه الرجل الذى أعطى لمؤســـســـة بيت الحكمة طابعها الخاص الذى تطور فى عصر المـــأمون » (٩٦) . كذلك ورد فى ترجمـــــة ماسرجويه الطبيب المصرى الذى كان معاصرا للخليفة مروان بن الحكم (٦٤ — ٦٥ هـ) أن ماسرجويه « كان فى أيام بنى امية ، وانه تولى فى الدولة المروانية تفســـير كتاب اهرن بن اعين الى العربية الذى وجده عمر بن عبد العزيز ، رحمه الله فى خزائن الكتب ، فامر باخراجه ووضعه فى مصلاه ، واستخار الله فى اخراجه الى المســـــلمين للانتفاع به ، فلما تم له فى ذلك أربعون صباحا أخرجه الى الناس وبثه فى ايديهم » (٩٧) . كذلك يذكر المؤرخـــون أن أبا

جعفر المنصور طلب من ملك الروم أن يرسل اليه بكتب التعاليم مترجمة فبعث له بكتاب اقليدس وبعض كتب الطبيعيات (٩٨) . أى أن فكرة نقل الكتب من اللغات الأجنبية الى العربية وتيسيرها لطلاب الدراسات العليا فكرة سابقة لعصر المأمون ، الا أن المأمون قد أعطى تلك البدايات الأولية دفعة قوية بحبه للعلوم العقلية وشغفه بنشر العلم ، ولم تقتصر مهمة دار الحكمة فى عصره على الترجمة ، وجمع الكتب بل ألحقت بها مكتبة واسعة للمخطوطات وعدد كبير من الاختصاصيين الأكفاء بترجمتها وأنشىء الى جانبها مرصد فلكى ، والى جانب المرصد مدرسة لتدريس الفلك (٩٩). وبذلك صارت مثوى العلماء للدراسة والمناقشة والبحث العلمى المتخصص، حتى لقد اعتبرها هانز « أول جامعة اسلامية » تمارس التعليم العالى والبحث العلمى بالمعنى المعاصر (١٠٠) . وصارت دار الحكمة بصورتها الأخيرة فى عصر المأمون هى المثال الذى احتذاه كثير من الملوك والسلاطين والأمراء فى القاهرة وقرطبة وبلاد ما وراء النهر وغيرها (١٠١) .

وسيقرأ الباحث كيف ان الكتب الأجنبية لم تكن تترجم مرة واحدة ، بل كانت تترجم أكثر من مرة ، يترجمها أكثر من مترجم ، وأن الباحثين فى ذلك العصر كانوا يقارنون بين الترجمات الجيدة والرديئة . فكتب جالينوس فى الطب على سبيل المثال ترجمها حنين بن اسحاق ، وكان فصيحا بليغا عالما بآراء جالينوس ، وترجمها غير ابن اسحاق ، ولذلك يقول ابن أصيبعة : « وجدت بعض الكتب الستة عشر لجالينوس ، وقد نقلها من الرومية الى السريانية سرجس المتطبب ، ونقلها من السريانية الى العربية موسى بن خالد الترجمان ، فلما طالعتها وتأملت ألفاظها تبين لى بين نقلها وبين الستة عشر التى هى نقل حنين تباين كثير وتفاوت بين . وأين الألكن من البليغ والثرى من الثريا » (١٠٢) . وسيقرأ الباحث كيف أن المأمون كان يعطى حنينا من الذهب زنة ما ينقله من الكتب الى العربى مثلا بمثل ، ولذلك كان حنين يتعمد أن تأتى الترجمة فى أكبر عدد من الصفحات ، وفى أثقل نوع من الأوراق فكان يكتب حروفا كبيرة فى أسطر متفرقة ، ورقها كل ورقة بغلظ ما يكون من هذه الأوراق المصنوعة يومئذ ثلاث ورقات أو أربع . « وكان قصد حنين بذلك تعظيم حجم الكتاب

وتكثير وزنه ، لأجل ما يقابل به من وزنه دراهم ، وكان ذلك الورق يستعمله بالقصد ، ولا جرم أنه لغلظه بقى هذه السنين المتطاولة من الزمان »(١٠٣).
وسيقرأ الباحث الشيء الكثير عن حرص الملوك والأمراء والسلاطين على تزويد تلك المكتبات بالجديد من المؤلفات ، وارسالهم البعوث بحثا عن الكتب الجديدة لشرائها واستجلابها الى تلك المكتبات ، وحرصهم الا تخرج الكتب من بلادهم بالبيع .. من ذلك ان الأفضل بن أمير الجيوش سمع أن رجلا من العراق كان قد اتى الى الديار المصرية ليشـــترى كتبا ويتوجه بها ، وأنه اجتمع مع افرائيم بن الزفان الطبيب المصرى المشهور ، واتفق معه على ان يشـــترى منه عشرة آلاف مجلـد من الكتب التى بمكتبته الخاصة — وكان بها اكثر من ثلاثين الف مجلد — ولكن الأفضل حرصـا منه على أن تظل الكتب بالديار المصرية ولا تنقل الى موضع آخر ، بعث الى افرائيم بثمن الكتب ونقلها الى دار الكتب (١٠٤) . ولما سمع الصاحب أمين الدولة وزير الملك الصالح اســماعيل بكتاب « طبقات الأطباء لابن اصيبعة من جمـــاعة من الأطباء ، وكان فى دار كتبه عشرين الف مجلد ، حرص على شراء الكتاب الجديد وارســل فى طلبه وكافا مؤلفه على ذلك بان أرسل اليه « المال الجزيل ، والخلع الفاخرة وتشكر ، وقال أشتهى منك كلما تضمه من الكتب تعرفنى به » (١٠٥) .وعندما يطالع الباحث مجرد أسماء المؤلفات الطبية الواردة فى كتاب واحد مثل كتاب « طبقات الأطباء » لابن اصيبعة فانه ســيدرك ضخامة هذا الكم الهائل من الكتب الطبية المترجمة والمؤلفة ، ما بين مختصرات ومراجع موسعة ورسائل صغيرة * ،

* حاول الباحث أن يضم هذا البحث ثبتا باسماء الكتب الطبية الواردة فى كتاب ابن أصيبعة كأحد ملاحق البحث ، وأن يرتبها ترتيبا أبجديا بحسب الأقطار الاسلامية : العراق والجزيرة ، بلاد ما وراء النهر ، بلاد المغرب ، مصر ، الشام ، وشرع فى ذلك فعلا ، ولما وصل الى صفحة ٥٦ من الكتاب وهو حوالى ثمانمائة صفحة كان قد جمع أسماء حوالى أربعمائة مؤلف مما جعل اعداد هذا الثبت ياخذ وقتا وجهدا طويلا ، ويغطى صفحات عديدة لا تتحملها الدراسة الحالية .

ويشعر بهذا الجو العلمي الغني الذى أتيح للنمو الأكاديمى للطبيب . وهى ظروف قلما تتوافر لكثير من مكتباتنا الطبية وغير الطبية فى عصرنا الحديث (١٠٦) . يضاف الى ذلك التسهيلات والخدمات المكتبية التى كانت تقدمها تلك المكتبات المتخصصة (١٠٧) ، مما وفر للطلاب والأساتذة ظروفا بحثية مساعدة على البحث والدراسة فى شتى المجالات ومنها الطب .

رابعا — مناهج التعليم الطبي النظرى :

من الطبيعى ان تتأثر مناهج اعداد الطبيب عند المسلمين فى بداية الامر بآخر المدارس اليونانية واشهرها وهى مدرسة الاطباء الاسكندرانيين ولقد ظهر هذا الأثر اليونانى فى امرين : الأمر الأول : هو الاعداد الثقافى العام اللازم لكى يصبح المتعلم طبيبا حكيما . والأمر الثانى : الاعداد المهنى المتخصص لتلك المهنة . اما من الاعداد الثقافى العام فان حنين بن اسحاق بعد أن يسرد بعضا من حكم وآداب أرسطو — طاليس يقول : « وهذا الصنف من الآداب اول ما يعلمه الحكيم للتلميذ فى أول سنة مع الخط اليونانى ، ثم يرفعه من ذلك الى الشعر والنحو ثم الى الحساب ثم الى الهندسة ، ثم الى النجوم ثم الى الطب ثم الى الموسيقى ثم بعد ذلك يرتقى الى المنطق ، ثم الى الفلسفة ، وهى علوم الآثار العلوية ، فهذه عشرة علوم يتعلمها المتعلم فى عشر سنين » (١٠٨) . وتتكرر هذه العلوم فى منهج اعداد جالينوس الطبيب فهو يقول : « ان أبى لم يزل يؤدبنى بما كان يحسنه من علم الهندسة والحساب والرياضيات التى تؤدب بها الأحداث حتى انتهيت من السن الى خمس عشرة سنة ، ثم أنه سلمنى فى تعليم المنطق ، وقصد بى حينئذ فى تعليم الفلسفة وحدها ، فرأى رؤيا دعته الى تعليمى الطب فاسلمنى فى تعليم الطب ، وقد أتت على من السنين سبع عشرة سنة » (١٠٩) . ويشير هذان النصان الى أن دراسة الطب كانت احدى الدراسات العقلية اللازمة لاعداد الفيلسوف ، وانه كان يسبق دراسة الطب : دراسة الشعر والنحو والحساب والنجوم . وسنجد أن هذه الدراسات السابقة لتعلم الطب تتكرر دراستها عند الأطباء المسلمين مما يوحى أنها اصبحت متطلبا تعليميا سابقا لدراسة الطب . فابن سينا قبل أن يدرس الطب يتعلم حساب الهندسة والجبر والمقابلة على يد

استاذه محمود المساح ، ويتعلم المنطق وشيئا من الفلسفة الطبيعية على يد الحكيم ابى عبد الله الناتلى (١١٠) . والكندرى قبل أن يدرس الفلسفة يدرس الحساب والمنطق وتأليف اللحون وطبائع الاعداد وعلم النجوم والطب (١١١) . ويبدو أن دراسة المنطق كأحد المباحث العقلية ، اكتسبت اهمية كبيرة فى اعداد الطبيب لأنها تمكن الطبيب من دقة النظر وسلامة القياس (١١٢) ، وسنجد أن احمد بن الاشعث يؤلف كتابه « الأدوية المفردة » لمن تجاوز درجة تعلم الطب الى درجة الفقه فى الطب ، وهو الذى يستطيع ان يفرع ويقيس ويستخرج منه ما هو فيه بالقوة مما لم يذكره المؤلف (١١٣) . ومنذ ان الف جالينوس كتابه باسم « أن الطبيب الفاضل يجب أن يكون فيلسوفا » ، وجدنا ان كبار الأطباء المسلمين هم ايضا من الفلاسفة المشهورين . ويقول الرازى فى تسمية الطبيب الناجح : « ان من يريد أن يصل الى مرتبة عالية فى الطب فيجب أن يكون قادرا على فهم ما يقرأ ، وان يكثر القراءة فى الكتب ، ودائم الاتصال بالفلاسفة والمفكرين ، وأن يدرس الهندسة والنجوم ، والا فانه لا يعرف الأزمنة وحال البلدان ، كما يجب أن يعرف المنطق والا فلن يحسن تقسيم اجناس الأمراض الى أنواعها ، ولا يعرف صواب من أصاب وخطأ من اخطأ ، وكان ابن رضوان الطبيب المصرى يرى أيضا أن لقب الطبيب يجب الا يطلق الا على من يتعاطى الفلسفة والطب معا ، والا فليس طبيبا بل متطببا » ، ولكن هذا الاتجاه الذى ربط الطب بالفلسفة سرعان ما واجهه اتجاه معارض رأى أن ابقاء الطب مرتبطا بالفلسفة قد يعوق تقدمه وتطوره الى الأحسن ، وكان أول دعاة هذا الاتجاه عبد الله بن جبرائيل (ت ٤٥٠ هـ) « الذى دعا الى قطع العلاقة بين الطب والفلسفة وتدريس الطب كموضوع مستقل بنوعية معارفه ، وأن يكون تعليمه بالتطبيق أكثر من اعتماده على الجانب النظرى » (١١٤) . ولقد تدعم هذا الاتجاه الأخير بكثرة المؤلفات الطبية التى تعتمد على الملاحظات السريرية وتجارب الأطباء العملية ، وكثرة البيمارستانات التى كانت مجالا خصبا لتقديم امثلة عملية للفحص والعلاج والممارسة الاكلينيكية .

كذلك فان منهج الاعداد المهنى للطبيب عند المسلمين قد تأثر أيضا

فى البداية بمدرسة الأطباء الاسكندرانيين من حيث تقديم كتب جالينوس الستة عشر على سبع مراحل ، تشمل كل مرحلة مجموعة معينة من الكتب . اما المرحلة الأولى ، فقد جعلوها بمثابة المدخل الى صناعة الطب ، فان كان الطالب متفرغا للدراسة وله استعداد عقلى لمواصلة التعليم انتقل الى المرحلة الثانية ، وهكذا يزال الطالب يتقدم فى دراسته حتى المرحلة السابقة حيث يصبح طبيبا « لا يخفى عليه شىء من صناعة الطب » . أما الطالب الذى يظهر عدم استعداده للدراسة ، فانه يتوقف عند المرحلة الأولى التى يستفيد بها ، بأن يستطيع تعاطى أعمال الطب الجزئية السهلة (١١٥) . ولكن هذا المنهج الاسكندرى فى دراسة الطب سرعان ما وجه اليه النقد من حيث عدم كفاية المحتوى الدراسى ، وعدم سلامة تنظيم الموضوعات . فقد رأى الأطباء المسلمون ان هذه الكتب الستة عشر ليست كافية ، وان هناك كتبا لجالينوس وغير جالينوس لابد أن تضاف وتدرس . كذلك فان ترتيب تقديم هذه الكتب للطالب لابد أن يعاد النظر اليه ، بحيث يؤخر التشريح مثلا وتقدم دراسة وظائف الأعضاء، يقول « أبو الفرج بن هندو فى كتاب « مفتاح الطب » : ان هذه الكتب التى اتخذها الاسكندرانيون من كتب جالينوس وعملوا لها جوامع وزعموا انها تغنى عن متون كتب جالينوس ، وتكفى كلفة ما فيها من التوابع والفصول، قال أبو الخير الخمار ، وهو استاذ أبى الفرج بن هندو : « انا أظن انهم قد قصروا فيما جمعوه من ذلك ، لأنهم يعوزهم الكلام فى الأغذية والأهوية والأدوية » . قال : والترتيب أيضا قصروا فيه ، لأن جالينوس بدأ من التشريح ثم صار الى القوى والأفعال ثم الاسطقسات » . ورغم ذلك حاول بعض الأطباء المسلمين ان يدافع عن هذا المنهج من حيث المحتوى والترتيب . يقول أبو الحسن على بن رضوان فى « كتاب المنافع » : انما اقتصر الاسكندرانيون على الكتب الستة عشر من سائر كتب جالينوس فى التعليم ليكون المشتغل بها اذا كانت له قريحة جيدة وهمة حسنة وحرص على التعليم ، فانه اذا نظر فى هذه الكتب اشتاقت نفسه بما يرى فيها من عجيب حكمة جالينوس فى الطب الى ان ينظر فى باقى ما يجد من كتبه » .

ولعل دفاع أبى الفرج بن هندو امام هجمات أستاذه أبى الخير الخمار هو

أوفى دفاع وأشمله ، فهو يذكر أن الاقتصار على تلك الكتب الستة عشر انما جاء لأنها كتب دراسات تحتاج الى معلم يدرسـها مع الطالب ، أما ما سوى ذلك ، فيستطيع الطالب ان يحصله بنفسه دون مراجعـة أو مذاكرة أو مطارحة . كذلك فان الموضوعات أو الكتب التى يريد أبو الخير ان يضيفها الى الدراسة كتب ستاتى حتما لأن الطبيب مضطر الى معرفتها بنفسه واضافتها الى الموضوعات التى درسها مع أسـاتذته فيما قبل ، وسيمكنه أن يفعل ذلك بسهولة ما دام قد درس الكتب الستة عشر وفهمها واستوعبها . أما الهجوم على ترتيب الموضوعات الدراسية ، فان الترتيب المنطقى لهـا غير مهم فى نظر ابن هندو ، والمهم عنـده أن تدرس تلك الموضوعات على اى حال . ورغم أنه يعترف أن ترتيب أبى الخير المقترح هو أكثر منطقية الا انه يفضل أن يحافظ على ترتيب الاسكندرانيين « لأن العلـم حاصـل على كل حال ، وخرق اجمـاع الحـكماء معـدود من الخرق » (١١٦) .

وإذا كان للمنهج الاسكندرى فى تعليم الطب ان يستمر مع هذا النقد ، فقد كان استمرارا الى حين . اذ بظهور أعلام الطب الاسلامى وظهور ألوان متعددة من التاليف الطبى ، بدا واضحا أن المؤلفات العربيـة تمثل مرحلة أعلى فى تطور التعليم الطبى ، اذ استفادت بكل المؤلفات السابقة وزادت عليها وتجنبت ما فيها من قصور . وهذه هى سنة تطور العلوم . يقول الرازى : « فان الصناعات لا تزال تزداد وتقرب من الكمال على الأيام وتجعل ما استخرجه الرجل القديم فى الزمان الطويل (فى متناول) الذى جاء من بعده فى الزمان القصير حتى يحكمه ، ويصير سببا يسهل له استخراج غيره به ، فيكون مثل القدماء فى هذا الموضع مثل المكتسبين ، ومثل من يجىء من بعـد مثل المورثين ، المسهل لهم ، ما ورثوا اكتسابا اكثر وأكثر » (١١٧) . وهذا اعتراف من الرازى بفضل القدماء مع التأكيد على تطور الطب بتقـدم العصور . ولقد تعددت انواع المؤلفات الطبية فى العصر الاسلامى بحيث يمكن تقسيمها الى اربعة انواع :

(أ) **النوع الأول** : كتب ابتدائية على صفة مدخل لعـلم الطب ، وهى كتب مختصرة وسهلة المنال والحفظ مثل كتاب : « ما الفارق » للرازى

وهو مؤلف من أسئلة وأجوبة دقيقة على كل سؤال للتشخيص التفريقى بين الأمراض المتشابهة . وكتاب تقويم الأبدان لابن جزلة ، وهو تقويم مؤلف من مربعات ومستطيلات ليس على الطالب الا ان ينظر فى الكلمة التى يبحث عنها حتى يجد الجواب مقسما كما يريده (١١٨) . وكتاب الأسباب والعلامات لنجيب الدين السمرقندى ، وما لا يسع الطبيب جهله لجمال الدين الكتبى وغيرها من المختصرات (١١٩) .

(ب) النوع الثانى : الكتب المطولة المستقصى فيها كل فروع الطب واقسامه ولعل كتاب القانون لابن سينا ، وكتاب « الحاوى » فى الطب للرازى يمثلان هذا النوع من الكتب المطولة ، التى تعتبر موسوعات طبية * .

فقانون ابن سينا على سبيل المثال شمل اعمال البدن Physiology
وتشريح البدن Anatomy وعلم الأحوال Pathology
وعلم الأسباب Aetiology وعلم العلامات Symptomatology
وعلم التشخيص Diagnosis ، والنبض Sphygmology
والقارورة Urinology ، والبراز Stool
وعلم حفظ الصحة Hygiene, (Preservation of Health)
وتدبير الأطفال Pediatrics, (Regimen for infants)
وتدبير البالغين Regimen for Adults
وتدبير المشايخ Geriatrics (Regimen for old ages)
والرياضة Exercise, Gymanastice
وتدبير المسافرين Regimen for Travellers
وطرق العلاج المختلفة Various Methods of treatment سواء العلاج بالضد Heteropathy أو العلاج بالمثل Homeopathy والعلاج بالتدبير

---

* كان الباحث يود أن يضمن بحثه فهرست كتابى القانون لابن سينا ، والحاوى للرازى كملاحق للدراسة ، حتى يأخذ القارىء فكرة عن موسوعية مثل هذه المؤلفات ، ولكن اتضح أن ذلك سوف يأخذ صفحات كثيرة (ثمنية وعشرون صفحة على الأقل) فاكتفى بما ذكره هنا .

والعلاج بالغذاء Treatment by Nutrition — Regiminal Treatment والعلاج بالدواء Treatment by Medicine ، والعلاج باليد Manipulation (surgery) (١٢٠) .

اما كتاب الحاوى للرازى فربما كان اشمل مؤلف كتبه رجل طب ، اذ يحتوى على المعلومات الطبية الكاملة التى وردت فى اللغة اليونانية والسريانية والعربية بالاضافة الى تجاربه وخبرته الطبية الخاصة . والكتاب يتناول جميع أمراض البدن من الراس وحتى القدم : فالجزء الأول : يتناول أمراض الرأس ، والثانى : أمراض العين ، والثالث : أمراض الأذن والأنف والأسنان ، والرابع : أمراض الرئة ، والخامس : أمراض المرىء ، والمعدة ، والسادس : الاستفراغات والتسمين والهزال ، والسابع : أمراض الثدى والقلب والكبد والطحال ، والثامن : فى قروح الامعاء وأورامها والمغص ، والتاسع : فى أمراض الرحم والحمل ، والعاشر : فى أمراض الكلى ومجارى البول وغيرها ، والحادى عشر : فى أمراض الحيات والديدان فى البطن والبواسير والحدب والنقرس والدوالى وداء الفيل وغيرها ، والثانى عشر : فى السرطان والأورام والدمامل وغيرها (١٢١) . ونرى الرازى عند مناقشته لأى مرض من هذه الأمراض يبدأ بذكر كل ما أورده الاغريق والسريان والعرب والفرس والهنود عن هذا المرض ثم ينتهى بعرض آرائه وتجاربه الخاصة (١٢٢) .

(ج) **النوع الثالث** : الكتب المعدة للأطباء الممارسين يرجعون اليها عند ممارسة المهنة ، وهى كتب مجردة فى الأغلب من ذكر أقوال السابقين فى كل حالة ، وتكتفى بعرض الحالة والعلاج الشائع لها ، وكانت تسمى فى الغالب « كناشات » . و « الكناش » كتاب طبى يضعه أحد الأطباء المشهورين لنفسه أو طلابه أو لغيره من الأطباء الممارسين يودعه خلاصة تجاربه الطبية مثل : « التذكرة المفيدة والذخيرة الحميدة » لعز الدين ابن السويدى (١٢٣) ، وفردوس الحكمة فى الطب لأبى الحسن على بن سهل الطبرى (١٢٤) ، أو مجرد كناش « فلان » ، اذ كثيرا ما يورد ابن أصيبعة عند ترجمته لأطبائه عبارة : وله من الكتب كناشه ، وهو الذى يعرف به

وينسب اليه ، وهو ما استخرجه وجربه فى أيام حياته ، أو وله « كناش لطيف » ... الخ (١٢٥) . وفى الغالب فان الأطباء لم يؤلفوا هذه الكناشات الا فى أواخر أيام حياتهم ، بعد أن تكون لهم خبرات واسعة فى ميدان الممارسة العملية تستحق التسجيل . يقول على بن رضوان : « وكنت منذ السنة الثانية والثلاثين الى يومى هذا أعمل تذكرة لى واغيرها فى كل سنة الى أن قررتها على هذا التقدير الذى استقبل به السنة الستين من ذلك » (١٢٦) . والذى يقرأ ابن أصيبعة سوف يلاحظ الكثرة الهائلة لهذا النوع من المؤلفات .

(د) **النوع الرابع** : كتب ورسائل وضعت فى موضوعات طبية خصوصية واقتصرت على معالجة هذا الموضوع الخاص مثل : كتاب منافع الأغذية ودفع مضارها ، للرازى (١٢٧) ، وكتاب فى الفالج ، وكتاب فى هيئة العين له أيضا ، وكتاب فى القولنج ، وآخر فى النبض لابن سينا ، والجامع لمفردات الأدوية والأغذية لابن البيطار ، وتذكرة الكحالين لعلى بن عيسى الكحال ، والعشر مقالات فى العين المنسوب لحنين بن اسحاق ، ومنهاج الدكان ودستور الأعيان فى أعمال وتركيب الأدوية النافعة للأبدان لابن أبى نصر العطار (١٢٨) الى غير ذلك من المؤلفات العديدة التى تتناول موضوعا واحدا مثل أمراض المفاصل ، والمولودين لسبعة أشهر ، وأمراض القلب ... الخ (١٢٩) .

والدارس لكتاب واحد مثل عيون الأنباء فى طبقات الأطباء يستطيع أن يجد اثباتا طويلة من أسماء الكتب والمؤلفات الطبية . ولقد حاول الباحث بالفعل أن يحصى تلك المؤلفات وأن يصنفها على تلك الأقسام الأربعة السابقة ، أو يصنفها حسب بلدان المؤلفين ، ولكن وجد أنه عمل يحتاج الى وقت وجهد كبير ، يرجو أن يتفرغ له فيما بعد ، ولكن المهم هنا أن نلفت الانتباه الى أن « التعليم الطبى » تحول بالتدريج من التركيز على المنهج السكندرى فى « تعليم الطب » الى التركيز على تلك المؤلفات الاسلامية . ولذلك فان السمرقندى (٥٠٠ — ٥٥٢ هـ) عندما يعرض لمناهج اعداد الطبيب ، فان المؤلفات الاسلامية فى الطب تحتل أهمية بارزة

فى هذا المنهج ، يقول السمرقندى : « وعلى الطبيب أن يحصل فى علم الطب .. فصول بقراط ، ومسائل حنين بن اسحاق ومرشد محمد بن زكريا الرازى وشرح النيلى الذى اجمل هذه المؤلفات . وعليه أن يطالعها بعد قراءتها على استاذ مخلص . ثم ان عليه أن يستقصى استقصاء تاما الكتب المتوسطة وهى : ذخيرة ثابت بن قرة ، او المنصورى لمحمد ابن زكريا الرازى ، او الهداية لأبى بكر الأجوينى او الكفاية لأحمد بن فرج ، او الأغراض لسيد بن اسماعيل الجرجانى وذلك على استاذ مخلص . ثم عليه بعد ذلك ان يحصل على احد الكتب المفصلة مثل : « الست عشرة رسالة » لجالينوس ، او الحاوى لمحمد بن زكريا الرازى ، او كامل الصناعة او صدباب (مائة باب) لأبى سهل المسيحى او القانون لأبى على ابن سينا ، او الذخيرة للخوارزمى . وان يقرا هذا الكتاب فى وقت الفراغ . فاذا اراد ان يستغنى عن هذه الكتب كلها ، فقد يكتفى بالقانون ، فان سيد الكونين وامام الثقلين يقول : « كل الصيد فى جوف الفرا » . فكل ما ذكرت موجود فى القانون مع زيادات كثيرة . وكل من يحيط علما بما فى المجلد الأول من القانون لا يخفى عليه شىء من اصول علم الطب وكلياته . ولو بعث بقراط وجالينوس الى الحياة لحق لهما ان يسجدا لهذا الكتاب (١٣٠) .

ولقد كان طالب الطب يتتلمذ فى الغالب لأستاذ مشهور ، يقرأ عليه تلك الكتب ، ويتدرج معه من المختصرات الى المتوسطات ، ثم الى الكتب المفصلة . وكانت التلمذة ضرورية لحسن تخرج الطالب . لأن « المعلم » يعطى فكرة عن الكتاب ، وصاحبه ، واسلوبه فى التاليف ويشرح الغامض منه ويناقش المحتوى ويتاكد من حسن فهم الطالب . وبعد مرحلة « القراءة على المعلم » ، تاتى مرحلة « الاطلاع الذاتى » والتبحر فى الدراسات الطبية . ويبدو انه بازدياد التاليف الطبى وكثرة الشروح والمبسوطات ظهر « اتجاه تعليمى » محدود يرى أن تعليم الطب ليس محتاجا الى وجود المعلم ، وان الطب اصبح من العلوم السهلة التى يستطيع أن يحصلها الطالب بنفسه ويقرأ فيها منفردا . وكان ابن سينا وابن رضوان خير مثلين لهذا الاتجاه ، اذ تعلما الطب بدون معلم ، ولابن رضوان كتاب

يعرض فيــه رايه فى هــذا الموضوع ، ويوضح فيــه أن تحصيل الطب من الكتب أوفق فى تحصيله على يد معلمين . وقد رد ابن بطلان على هذا الكتاب فى مؤلف افرده لذلك واورد فيه العلل التى لأجلهــا صار المتعلم من افواه الرجال افضــل من التعلم من الكتب . اذ لا شــك أن التعلم من انســان ناطق أدعى لصحة الفهم من التعلم من جماد ، وهو الكتاب — كذلك فان الكتب قد تكون صعبة الأسلوب ، أو مشتملة على مصطلحات علمية لا يدركها الطالب منفردا ، وقد توجد بهــا من الأخطاء ما يصــد عن العلم أو يفســد المعنى المراد « مثــل التصحيف العارض من اشتباه الحروف مع عدم اللفظ ، والغلط بزوغان البصر وقلة الخبرة بالاعراب ، أو عدم وجوده مع الخبرة به ، أو فساد الموجود منه . واصطلاح الكتاب ما لا يقرأ وقراءة ما لا يكتب ، ونحو التعليم ونمط الكلام ومذهب صاحب الكتاب ، وسقم النسخ ورداءة النقل ، وادماج القارىء مواضع المقاطــع وخلط مبادىء التعليم ، وذكر الفاظ مصطلح عليهــا فى تلك الصناعة ، والفاظ يونانية لم يخرجها الناقل من اللغة كالثوروس ، وهذه كلها معوقة عن العلم وقد استراح المتعلم عن تكلفها عند قراءته على المعلم ، واذا كان الأمر على هذا فالقراءة على العلماء افضل واجــدى من قراءة الانســان لنفسه » (١٣١) . واذا تتبعنا سيرة حياة أكثر الأطباء المسلمين الذين ترجم لهم ابن أصيبعة لوجدنا ان الغالبية العظمى تعلمت على يد أستاذ أولا ، ثم تابعت القراءة ولازمت الاطلاع الذاتى فيما بعد ، مما يؤكد على غلبــة هذا الاتجاه فى التعليم الطبى النظرى .

ويلاحظ اننا نستخدم هنا مصطلح « التعليم الطبى النظرى » وفق التعريف السينوى الذى يشمل دراسات الطب ســواء ما اتصل بأصول الطب وعلومه الأساسية ، أو ما يتصل بكيفية مباشرته . أما الممارسة الطبية الفعلية ، أو التعليم السريرى فسوف نعالجه فيما بعد عند حديثنا عن أساليب الاعداد التربوى والمهنى للطبيب . ويعرف ابن سينا ميدان هذا التعليم النظرى فيقول : « الطب علم تتعرف منه احوال بدن الانسان من جهة ما يصح وتزول عنه الصحة ؛ ليحفظ الصحة حاصلة ويستردها زائلة » ويرى ابن سينا ، أن من الطب ما هو نظرى ، ومنه ما هو عملى ،

لكن لا يصح الظن « أن أحد قسمى الطب هو تعلم العلم ، والقسم الآخر هو المباشرة للعمل » لأن كلا من القسمين « علم ، لكن أحدهما علم أصول الطب والآخر علم كيفية مباشرته » . والقسم الأول يفيد التصور بالفكر من غير بيان كيفية عمل ، مثل القول : « بأن أصناف الحميات ثلاثة » . والقسم الثانى يفيد رأيا يبين كيفية عمل ، وان لم يصاحبه مزاولة حركة بدنية مثل القول : « بأن الأورام الحارة يجب أن يقرب اليهـا فى الابتداء ما يردع ويبرد » (١٣٢) . فالتعليم الطبى النظرى بهذا المعنى يقابل التعليم بالممارسة ، والتعليم بالملاحظة السريرية ، ومن ثم فقد شمل هذا التعليم خبرات الأطباء السابقين فى الميدان . ولقد أدرك المسلمون أهمية هـذا التعليم النظرى للنجاح فى ميدان الممارسة العملية ، يوضح ذلك ما ذكره الرازى فى كتابه المنصورى فى الطب : « هـذه صناعة لا تمكن الانسان الواحد اذ لم يحتذ فيها على مثال من تقدمه ، أن يلحق فيهـا كثير شىء ولو أفنى جميع عمره فيها ، لأن مقدارها أطول من مقدار عمر الانسان بكثير ، وليست هذه الصناعة فقط ، بل كل الصناعات كذلك . وانما أدرك من أدرك من هـذه الصناعة الى هذه الغاية فى الوف من السنين الوف من الرجال . فاذا اقتدى المقتدى أثرهم صار أدركهم ، فكم عساه يمكنه أن يشاهده فى عمره ، وكم مقدار ما تبلغ تجربته واستخراجه ولو كان أذكى الناس وأشدهم عناية بهذا الباب ، على أن من ينظر الى الكتب ولم يفهم صورة العلل فى نفسه قبل مشاهدتها ، فهو وان شاهدها مرات كثيرة أغفلها ومر بها صفحا ولم يعرفها البتة » (١٣٣) . واذا كان الرازى يؤكد هنـا على أهميـة التعليم النظرى فى اعداد الطبيب فانه لم يقلل من أهمية الممارسة ومزاولة المهنة ، بل هو يوضح هذه العلاقة المتبادلة بين الاعـداد النظرى الجيـد ، والممارسة العملية والملاحظة السريرية المستمرة عندما يقول فى كتابه المرشد أو الفصول : « ليس يكفى فى أحكام صناعة الطب قراءة كتبها ، بل يحتـاج مـع ذلك الى مزاولة المرضى ، الا أن من قرأ الكتب ثم زاول المرضى يستفيد من قبـل التجربة كثيرا . ومن زاول المرضى من غير أن يقرأ الكتب يفوته ويذهب عنه دلائل كثيرة

ولا يشعر بها البتة ، ولا يمكن ان يلحق بها فى مقدار عمره ولو كان اكثر الناس مزاولة للمرضى ، ما يلحقه قارىء الكتب مع أدنى مزاولة ، فيكون كما قال الله عز وجل : « **وكاين من آية فى السموات والارض يمرون عليها وهم عنها معرضون** » (١٣٤) (سورة يوسف : الآية ١٠٥) .

خامسا : طرق الاعداد التربوى والمهنى :

لقد تعددت طرق التدريس وأساليب الاعداد التربوى والمهنى عند المسلمين ، تعددا ساعد على جودة « التعليم الطبى » ، وزاد من كفاءته الداخلية والخارجية ، ويمكن ان نلمس جودة هذا التعليم الطبى بما انتجه لنا من حضارة طبية زاهرة ، وبما وصل اليه من مستحدثات فى ميدان الوقاية والعلاج . ولعلنا نستطيع ان نوجز الطرق المستخدمة فى تربية الطبيب واعداده وتدريبه على النحو التالى :

١ — الملاحظة السريرية والممارسة :

ادرك المسلمون أن التعليم الطبى النظرى لا يمكن أن يغنى عن الملاحظة السريرية ، والممارسة العملية ، فالطبيب لا يصبح طبيبا الا اذا جمع بين التعليم الطبى والنظرى والملاحظة السريرية والممارسة العملية . وفى ذلك يقول الفارابى : « فان الطبيب انما يصير معالجا كاملا بقوتين : احداهما القوة على الكليات والقوانين التى استفادها من كتب الطب والأخرى القوة التى تحصل له بطول المزاولة لأعمال الطب فى المرضى ، والحنكة فيها بطول التجربة والمشاهدة لأبدان الأشخاص . وبهذه القوة يمكن الطبيب أن يقدر الأدوية والعلاج بحسب بدن بدن فى حال حال » (١٣٥) . فقراءة الكتب الطبية لا تكفى فى احكام صناعة الطب كما يقول الرازى « بل يحتاج مع ذلك الى مزاولة المرضى » (١٣٦) . ولقد كان لانتشار البيمارستانات فى العالم الاسلامى اثره فى ازدهار التعليم الطبى عن طريق الملاحظة السريرية والممارسة . ويحفل كتاب ابن اصيبعة بالحديث عن مشاهدات الطلاب لكبار الأطباء وهم يجرون فحوصاتهم المختلفة بدقة وعناية (١٣٧) . فهذا موفق الدين يعقوب بن سقلاب « وكان شديد البحث واستقراء الأعراض بحيث انه كان اذا افتقد مريضا لا يزال يستقصى منه

عرضا عرضا ، وما يشكوه وما يجده من مرضه حالا حالا ، الى أن لا يترك عرضا يستدل به على تحقيق المرض الا ويعتبره ، فكانت معالجاته لا مزيد عليها فى الجودة » (١٣٨) . وعلى بن رضوان يوضح لطلابه طريقة التشخيص الكاملة بقوله : « تعرف العيوب هو أن تنظر الى هيئة الأعضاء والسحنة والمزاج وملمس البشرة ، وتتفقد أفعال الأعضاء الباطنة والظاهرة ، مثل أن تنادى من بعيد فتعتبر بذلك حال سمعه ، وأن تعتبر بصره بنظر الأشياء البعيدة والقريبة ، ولسانه بجودة الكلام ، وقوته بشيل الثقل والمسك والضبط والمشى وأنحاء ذلك ، مثل ان تنظر مشيه مقبلا ومدبرا ، ويؤمر بالاستلقاء على ظهره ممدود اليدين قد نصب رجليه وصفهما ، وتعتبر بذلك حال احشائه ، وتتعرف حال مزاج قلبه بالنبض وبالأخلاق ، ومزاج كبده بالبول وحال الأخلاط ، وتعتبر عقله بأن يسأل عن أشياء ، وفهمه وطاعته بأن يؤمر بأشياء ، وأخلاقه الى ما تميل بأن تعتبر كل واحد منها بما يحركه أو يسكنه ، وعلى هذا المثال أجر الحال فى تفقد كل واحد من الأعضاء والأخلاق . أما فيما يمكن ظهوره للحس فلا تقتنع فيه حتى تشاهده بالحس ، وأما فيما يتعرف بالاستدلال فاستدل عليه بالعلامات الخاصة . وأما فيما يتعرف بالمسألة فابحث عنه بالمسألة . حتى تعتبر كل واحد من العيوب فتعرف هل هو عيب ، حاضر ، أو كان أو متوقع ، أم الحال حال صحة وسلامة » (١٣٩) . وهى طريقة كما ترى شاملة فى الفحص السريرى لا تكاد تترك عرضا من الأعراض الا وتوقفت عنده ولا وسيلة من وسائل التشخيص الا أوصت به . ولما كان التشخيص عن طريق النبض يحتاج الى مهارة فائقة خصوصا فى غياب « الأجهزة الطبية الخاصة بقياسه » فقد لفت الأطباء المسلمون نظر الطلاب الى ضرورة التدريب عليه لاكتساب المهارة الخاصة بالتشخيص عن طريقه . يقول المجوسى : « ان العلم بأمر النبض صعب ومعرفته عسرة المأخذ ، وذلك من ثلاثة أشياء : أحدها أنه لا يسهل على الانسان أن يتدرب فى مجسة العروق دربة يصير بها الى معرفة التغير اليسير الحادث فى النبض . والثانى : أنه يحتاج (الطبيب) عند جس الشريان أن يعرف أجناس النبض كلها فى زمان يسير وهى عشرة أجناس ، والثالث : أن نبضات العروق ليس لها شبيه ولا مقياس يقاس به ويتعلم

عليه ، ولذلك قد يجب على الطبيب أن يرتاض فى جس العروق زمانا طويلا رياضة تامة بعناية وفهم » (١٤٠) .

ولقد أعطى كبار الأطباء أمثلة جيدة لممارسة مثل هـذه الفحوصات الدقيقة عمليا أمام الطـلاب . ويحدثنا ابن أصيبعة عن مشاهدة وتجربة أن الحكيم عمران « كان يظهر أمام طلابه من حسـن المعالجـة وتحققه للأمراض ما يتعجب منه ، حتى أنه عالج أمراضا كثيرة مزمنة كان أصحابها قد سئموا الحياة ويئس الأطباء من برئهم فبرئوا على يديه بأدوية غريبة يصفها ، ومعالجات بديعة عرفها » (١٤١) . ولعل أسلوب التعليم السريرى الذى مارسـه الرازى أن يعطى فكرة عما كان عليـه أسلوب التعليم السريرى عند المسلمين . فقد كانت تعرض الحالات السريرية ، فيتصدى لها الطلاب بمناقشة الحالة ، فاذا صعب عليهم تشخيص الحالة ووصف العـلاج دخل بينهم الرازى ليوضـح لهم ما عسر عليهم فهمه (١٤٢) . أما الطبيب ابو المجد بن ابى الحكم ، فكان يمر على المرضى فى البيمارستان ومن ورائه عدد من التلاميذ فيستجوب المريض عن شكواه ، ثم يفحص بدنه ، ثم ينظر الى قارورته وبصاقه ونبضـه وما الى ذلك من شواهد المرض وعلاماته . ثم ينسحب أبو المجد ، بعـد ذلك الى ايوان خاص بالبيمارستان فيتمد على دكة فيـه ويقعـد التلاميذ من حوله على بسط مفروشة . ويبدأ المعلم فى استعراض ما يشكو منه المريض امام التلاميذ والأعراض المرضية التى لاحظها عليه ويربط بين هـذه وبين شكواه ، ويصـل بالاستنتاج الى تشخيص المرض ثم يذكر طريقـة معالجتـه . فاذ صعب على المعـلم تشخيص المرض او طريقـة علاجه التقط كتابا من مكتبة البيمارستان وقرأ به عن ذلك المرض . ويطول هـذا الدرس التطبيقى أو يقصر بحسب عدد المرضى وغرابة الحالات المرضية التى تحتاج الى كثير من التدارس وتعليم الطلاب عليهـا (١٤٣) . وأما فى العمليـات الجراحية ، فان استيعاب دروسها يعتمد فى الدرجة الأولى على نباهة التلميذ ومتابعة خطواتها العملية ، ولابد ان الدروس الجراحية كانت قليلة بسبب قلة العمليات الجراحية التى يمارسها الأطبـاء . بعكس عمليات

الفصد التى كانت شائعة ، وكان المعلمون يدربون تلاميذهم على هـذه العمليات باستعمال أوراق النباتات التى تبرز فيهـا عروق الماء كالخس والسلق ، فيتمرن التلميذ على العثور على هذه العروق بالنظر والتلمس وقطعها بالموس الى أن تستقيم ضربات يده قبل تطبيقها على عروق جسم الانسان (١٤٤) . ولقد كان أبو القاسم خلف بن عباس الزهراوى (٥٠٠ هـ) اكبر من برع فى الجراحة واجرى العمليات الجراحيـة واستعان بالآلات والأدوات فى ذلك (١٤٥) . ويعطينا كتابا « آلات الطب والجراحة والكحالة عند العرب » و « دعوة الأطباء على مذهب كليلة ودمنة » (١٤٦) ، صورة مجملة لآلات الجراحة المستخدمة فى ذلك العصر ، والتى تدرب الطـلاب على استخدامها تحت اشراف أساتذتهم .

٢ ــ القراءة الذاتيـة :

تعددت المؤلفات الطبيـة تعـددا كبيرا من مبسوطة ومختصرة . وكان لكل مؤلف مميزاته وخصائصه واضافاته التى يضيفها الى ميـدان الطب ، بحيث بدا من المحال أن يدرس الطالب هـذه الموضوعات كلها على يد أستاذ ويقرأها تحت اشراف معـلم . يقول الحكيم أبو سـعيد : « كثرت التصانيف فى الصناعات الطبية مبسوطة ومختصرة ، ولكل جامع نظم وترتيب مفرد ، وكل مجموع لا يخلو عن فوائد غريبة ونكت عجيبة ، ولكل واحد غرض صحيح ليس لسواه » (١٤٧) . ولذلك فان تعليم الطب النظرى كان يستلزم بجوار القراءة على يد أسـتاذ ضرورة اللجوء الى القراءة الذاتية والاطلاع الخارجى . ولقد أظهر الأطباء المسلمون ادراكا كبيرا لأهمية القراءة وأبدوا حرصا فائقا على الاطلاع . ورغم عدم توافر الطباعة فقد أقبلوا على استنساخ الكتب واقتنائها بخطوطهم ، أو خطوط النساخ والكتبة . ويعجب الدارس كيف استطاع الأطباء فى ظل هـذه الظروف أن يجمعوا هذا العدد الهائل من الكتب فى مكتباتهم الخاصة . فابن أصيبعة يروى لنا على سبيل المثال أن أبا كثير افرائيم بن الحسن ، كانت عنده خزائن كثيرة من الكتب الطبية وغيرها ، وكان ابدا عنده النساخ يكتبون ولهم ما يقوم بكفايتهم منه . ولقد باع أبو كثير عشرة آلاف مجلد من مكتبته الخاصة قبل وفاته ، وخلف من الكتب ما يزيد على عشرين الف

مجلد (١٤٨) . وموفق الدين أبو النصر مات وفى خزانته من الكتب الطبية وغيرها ما يناهز عشرة آلاف مجلد خارجا عما استنسخه . وكان فى خدمته ثلاثة نســـاخ يكتبون له أبدا ، ولهم منه الجمايكة والجراية . كما كتب موفق الدين أيضا بخطه كتبا كثيرة « وقد رأيت عدة منها ، وهى فى نهاية حسن الخط والصحة والاعراب ، وكان كثير المطالعـــة للكتب لا يفتر عن ذلك فى أكثر أوقاته ، وأكثر الكتب التى كانت عنده توجد وقد صححها وأتقن تحريرها وعليها خطه بذلك » (١٤٩) . فهو لا يكتفى بالقراءة ولكنه يصحح ما يقرأ ويحرره ويعلق عليـــه بخط يده . وعلى بن رضـــوان بعد الستين من عمره يرى أن حاجته الى القراءة قد قلت بعد هذا العمر الطويل من الدراسة ، ويريد أن يقتصر مكتبته ويستغنى عن غير الضرورى فى مثل هذه السن ، فيرى أن يقتصر منها على : « خمسة كتب من كتب الأدب ، وعشرة كتب من كتب الشرع ، وكتب أبقراط وجالينوس فى صناعة الطب وما جانسها مثل كتاب الحشائش لديسقوريدس ، وكتب روفس ، واريباسيوس ، وبولس ، وكتاب الحاوى للرازى . ومن كتب الفلاحـــة والصيد أربعة كتب ، ومن كتب التعاليم المجسطى ومداخله ، وما انتفع به فيه ، والمربعة لبطليموس ، ومن كتب العارفين كتب افلاطون ، وارسطو طاليس ، والاسكندر ، وثامطيوس ، ومحمد الفارابى ، وما انتفع به فيها ، وما سوى ذلك اما أبيعـــه بأى ثمن اتفق ، واما أن أخزنه فى صناديق ، وبيعه أجود من خزنه » (١٥٠) . فحتى هذه السن المتأخرة ، وبعـــد هذه الشهرة الذائعة التى حققها ابن رضوان ، يذكر لنا هذا الثبت من المؤلفات الأمهات التى يرى أنه لا يجوز الاستغناء عنها لطبيب . وقل أن يترجم ابن أصيبعة لطبيب دون أن يذكر عبارات مثل : « وكان أبدا سائر أوقاته لا يوجد الا معه كتاب ينظر فيه » أو « وكان كثير المطالعة للكتب لا يفتر عن ذلك فى أكثر أوقاته » أو « فكان أبدا لا يفارق فى كمه مجلدا يطالعـــه أين توجه » الى غير ذلك من العبارات التى تدل على مقدار شيوع القراءة الذاتية كأسلوب من أساليب الاعداد الجيد للطبيب .

فالطالب ينتقل من القراءة على يد أستاذ (١٥١) ، الى القراءة الدقيقة المتأنية التى يعلق فيها الطالب على ما يقرأ ، ويحقق ويقارن ويستخرج

مختارات لنفسه ، ثم الى القراءة السريعة الخاطفة التى يتجه فيها من الكتاب الى الموضع المحدد الذى يريده ، حيث الاضافات الجديدة التى يضيفها الكتاب . ويصف لنا البيهقى هذا النوع الأخير من القراءة من خلال صحبة أبى عبيد الجوزجانى ومعاشرته لابن سينا بقوله : « ومن عجائب أحوال الشيخ ، أن أبا عبيد صحبه ثلاثين سنة ، قال : انه ما رآه ينظر فى كتاب جديد على الولاء ، بل يقصد المواضع الصعبة والمسائل المشكلة منه فينظر ما قاله المصنف فيها ، فيتبين عنده مرتبته من العلم (١٥٢) . ولا شك أن هذا النوع من القراءة كان فى مرحلة متأخرة من حياة ابن سينا ، أما طريقة قراءات ابن سينا فى مدة الاعداد الحقيقى فنجدها أيضا عند البيهقى وغيره حيث يذكر عن ابن سينا « وفى هذه المدة ما نام ليلة واحدة بطولها ، ولا اشتغل بشىء سوى المطالعة ، وجمع بين يديه ظهورا من القراطيس ، وكل حجة ينظر فيها يثبت مقدماتها القياسية ويكتبها فى تلك الظهور ، وراعى شرائط المقدمات وفضل ما هو منتج مما هو عقيم . واذا تحير فى مسألة ما ، وما ظفر فيها بالحد الأوسط تردد الى الجامع وصلى وابتهل الى الله تعالى حتى يفتح الله له المنغلق منها . وكان يعود كل ليلة الى داره ويضع السراج ويشتغل بالقراءة والكتابة » (١٥٣) . والواقع أن أى قراءة لتراجم الأطباء سوف تظهر الدور الكبير الذى لعبته القراءة الذاتية فى حياة الأطباء ، والأهمية البالغة التى منحها الأساتذة والطلاب للاطلاع الذاتى كاحدى الأدوات الضرورية للتمكن فى العلم والتبريز فيه .

٣ — الملازمة :

يستخدم ابن أصيبعة كثيرا مصطلح « الملازمة » للدلالة على مصاحبة الطالب للأستاذ لأوقات طويلة ، سواء فى دروسه النظرية أو حلقاته الخاصة المنزلية ، أو ممارساته العملية فى البيمارستان . و « الطالب الملازم » غير « الطالب القارىء » . وكلاهما موجود عند ابن أصيبعة ، فنجد كثيرا ، أن فلانا قرأ على فلان « أو » اشتغل بالطب على يد فلان ». وبجوار ذلك نقرأ مثلا : ان سديد الدين محمود بن عمر قرأ الطب على فخر الدين المارديني ، ولازمه مدة طويلة ولم يكن يفارقه فى سفره

ولا حضره (١٥٤) . وأن ابن جميع قرأ صناعة الطب على الشيخ الموفق أبي نصر عدنان بن العين ولزمه مدة (١٥٥) ، وأن رشيد الدين أبو سعيد اشتغل بعلم الطب على رشيد الدين على بن خليفة » ، ولم يكن فى تلامذته مثله ، فانه لازمه حق الملازمة ، وكان لا يفارقه فى سفره وحضره ، واقام عنده بدمشق وهو دائم الاشتغال عليه » (١٥٦ . وأبو عبيد الجوزجانى كان من خواص أبى على بن سينا ، وملازمى مجلسه ، وظل متصلا به حوالى خمس وعشرين سنة الى آخر عمر الشيخ (١٥٧) . وطبيعى أن هذه الملازمة الطويلة لكبار الأطباء قد اتاحت للطلاب مزيدا من الاحتكاك العلمى بالأساتذة أكثر بكثير من الذين اكتفوا بمجرد القراءة على يد أستاذ ، وخصوصا أن الطلاب لم يكونوا يلازمون غالبا الا الأطباء الأعلام ، كما يدل على ذلك أسماء الأطباء الذين ذكر ابن أصيبعة أن لهم « تلاميذ ملازمين » (١٥٨) .

٤ — الاملاء :

فى غيبة الطباعة واعتماد العلم والتعليم على النسخ ، اشتدت الحاجة الى أن يملى الأساتذة على طلابهم بعض الأمالى . وكانت الأمالى تشتمل على ذكر آراء السابقين فى المسألة ، ومناقشة الأستاذ لتلك الآراء ثم طرح لآراء الأستاذ أو تجاربه العملية فى الموضوع . وكان الطالب يكتب فى أول الدرس : « أملاه شيخنا فلان » ثم يدعو لأستاذه بالخير . فعلى احدى أمالى أبو الفرج بن الطيب الطبيب وجدت هذه العبارة : « هذه الكراسة بخط سيدنا الأجل أبى النصر محمد بن على بن برزج تلميذ أبى الفرج ، أملاها الشيخ أبو الفرج ، أطال الله بقاءه ، ونكب أعداءه عليه ببغداد » (١٥٩) . وعلى أمالى أخرى قد نجد مثل هذه العبارة « مقالة أملاها فلان » فى جواب ما سئل عنه من أن « كذا » وتذكر المسألة موضوع المحاضرة . ويفتخر الطالب فى الغالب أنة كان من تلاميذ « فلان الطبيب » ، وأنه حضر أماليه الطبية « وكتبها بنفسه . فابن الدهمان ، أحد تلاميذ أبى البركات هبة الله يروى أنه حضر أمالى أبى البركات مع غيره من الطلاب الذين يذكر أسماءهم ، وكان من بينهم على

يوسف والد الشيخ عبد اللطيف البغدادي الطبيب المشهور (١٦٠) . ولكن الاعتماد على « الإملاء » كطريقة للتعليم الطبي تقل بالتدريج لتحل محلها طريقة « القراءة من كتاب » وشرحه ، وذلك برواج صناعة الورق ، وانتشار الكتب ، وان لم تختلف طريقة الاملاء تماما من التعليم الطبي أو غيره من العلوم (١٦١) .

٥ ـ المناقشات والمناظرات والاستشارات الطبية :

كان الفكر التربوي الاسلامي ـ بعكس ما هو سائد ـ يؤمن عموما بضرورة توافر عنصر المناقشة والمناظرة والمطارحة في التعليم ، وليس مجرد المذاكرة والحفظ لموضوعات الدراسة . « اذ لابد لطالب العلم من المذاكرة والمناظرة والمطارحة » لأن فائدة المطارحة والمناظرة أقوى من فائدة مجرد التكرار ، لأن فيه تكرارا وزيادة ، وقيل مطارحة ساعة خير من تكرار شهر » (١٦٢) .

ولقد انعكس ذلك على « التعليم الطبي » فكانت المناقشات بين الأطباء بعضهم بعضا ، وبينهم وبين طلابهم . ونصح الطبيب مهما كان حاذقا أن يستشير غيره من الأطباء في الحالات المرضية الصعبة . فالعماني الطبيب يقول : « من استبد بمعالجته في حال مرضه وان كان طبيبا حاذقا فقد يعرض للخطأ بجهده ، والاستشارة أداة كاملة » (١٦٣) . ولذلك وجدنا موفق الدين بن سقلاب كثيرا ما كان يجلس مع مهذب الدين ابن على « في الموضع الذي يجلس فيه الأطباء عند دوار السلطان ويتباحثان في أشياء من الطب .. » (١٦٤) كذلك كان مهذب الدين يتباحث أيضا مع عمران الاسرائيلي ويتناقشان معا في الحالات المرضية التي كانت تعرض لهما في البيمارستان الكبير بدمشق . وقد استفاد طلابهما بتلك المناقشات والاستشارات الطبية » (١٦٥) . أما ابن خطيب الري ، فكان يشرك طلابه في مناقشة الحالات « وكان اذا جلس للتدريس يكون قريبا منه جماعة من تلاميذه الكبار ، مثل زين الدين الكشي والقطب المصري وشهاب الدين النيسابوري ، ثم يليهم بقية التلاميذ وسائر الخلق على قدر مراتبهم ، فكان من يتكلم في شيء من العلوم يباحثه أولئك التلاميذ الكبار ،

فان جرى بحث مشكل أو معنى غريب شاركهم الشيخ فيما هم فيه ، وتكلم فى ذلك المعنى بما يفوق الوصف » (١٦٦) . وتحرص أدبيات التربية الاسلامية أن تتم المناقشات والمناظرات فى جو علمى يتسم بالبحث عن الحقيقة ، ولا يتدخل فيه الغرور ، أو تقليل شأن الآخرين . اذ « ينبغى أن تكون المناظرة والمطارحة بالانصاف والتانى والتامل ، ويتحرز عن الشغب والغضب ، فان المناظرة مشاورة ، والمشاورة لاستخراج الصواب ، وذلك انما يحصل بالتامل والانصاف » (١٦٧) . واذا كان ابن أصيبعة يسوق لنا فى مواضع مختلفة من كتابه صورا لهذا النقاش العلمى الرصين ، وتلك الاستشارات الطبية التى كان يتبادلها الأطباء ، فقد توقف أحيانا مستنكرا تلك المناقشات التى لم تكن فى خدمة العلم بقدر ما كانت للتشنيع على جهود الآخرين . فهو يقول عند حديثه عن على بن رضوان : « وكان ابن رضوان كثير الرد على من كان يعاصره من الأطباء وغيرهم ، وكذلك على كثير ممن تقدمه . وكانت عنده سفاهة فى بحثه وتشنيع على من يريد مناقشته . واكثر ذلك يوجد عندما كان يرد على حنين بن اسحاق وعلى أبى الفرج بن الطيب ، وكذلك أيضا على أبى بكر محمد بن زكريا الرازى » (١٦٨) ولا شك أن هذه المناقشات والمناظرات والاستشارات كانت اداة طيبة لتبادل الآراء والأفكار الطبية بين الأساتذة والطلاب .

٦ — المراسلات الطبية :

سوف يلاحظ الدارس هذا العدد الهائل من « الرسائل الطبية » التى كتبها الأطباء الكبار ، أما ردا على سؤال طالب ، أو زميل فى المهنة ، أو لشرح موضوع من الموضوعات الطبية الخاصة ، ويكفى أن نذكر هنا أن طبيبا واحدا هو « ابن مندويه الأصفهانى » كانت له أربعون رسالة مشهورة فى الطب كتبها الى أصحابه وطلابه وتناول موضوعات طبية مختلفة . فهناك رسالة الى أحمد بن سعد فى تدبير الجسد ، ورسالة الى حمزة بن الحسن فى تركيب طبقات العين ، ورسالة الى أبى جعفر أحمد بن محمد فى القولنج وغيرها » (١٦٩) . وقل أن يوجد طبيب مشهور لم توجد بينه وبين طلابه وزملائه مراسلات طبية مما يبرز أهمية « المراسلات » كاحدى « الوسائل التعليمية » فى هذا العصر . ولم تقتصر تلك المراسلات الطبية على أطباء الاقليم الواحد ، بل كانت هناك أيضا

مراسلات « عبر البحار » ـ اذا جاز هذا التعبير ـ فان بطلان الطبيب البغدادى كان معاصرا لعلى بن رضوان الطبيب المصرى ، وكان بينهما « المراسلات العجيبة والكتب البديعة الغريبة ، ولم يكن احد منهم يؤلف كتابا ولا يبتدع رأيا الا ويرد الآخر عليه » (١٧٠) كذلك كان اليبرودى الدمشقى على مراسلات طبية مع ابن رضوان المصرى ومع غيره من الأطباء المصريين (١٧١) . ولا شك أن هذا « التواصل العلمى » بين الأطباء قد هيأ المناخ العلمى المناسب لتبادل الآراء والأفكار الجديدة فى ميدان الطب . لم يجعل الأطباء يمثلون « دوائر علمية مغلقة » غير منفتحة على ممارسات الأطباء الآخرين . ولقد ثبت أن الباحث الجيد فى أى تخصص ينبغى أن يكون على صلة علمية بثلاثة من الباحثين المهتمين بمجال دراسته على الأقل (١٧٢) ، ولعل تلك المراسلات العلمية التى قامت بين « الأطباء المسلمين » كانت تمثل نوعا من أنواع هذا « الاتصال العلمى » بين المهتمين بمجال الطب .

٧ ـ الرحلة :

فى عالم اسلامى واحد ، لا يعرف الحدود بين أقاليمه ودوله ، وفى ظل ظروف حياتية وفرتها الأوقاف الاسلامية ، استطاع الطالب أن ينتقل من مكان الى مكان باحثا عن الطبيب المشهور الذى يتتلمذ عليه ، فيلازمه حتى يتخرج ويتقن الصنعة ، ولقد كان الفكر التربوى الاسلامى يحث على الرحلة فى طلب العلم ، لما فى الغربة من تفرغ بالبعد عن الأهل والوطن ، ومن فوائد الاحتكاك بروافد ثقافية جديدة ومختلفة ، ولما فى تحمل مشاق الرحلة من تقوية ارادة الطالب وعظيم الثواب وادراك لذة العلم (١٧٣) . يقول الزرنوجى : « ولابد لطالب العلم من تقليل العلائق الدنيوية بقدر الوسع ، فلهذا اختاروا الغربة . ولابد من تحمل النصب والمشقة فى سفر التعلم ، كما قال موسى صلوات الله على نبينا وعليه فى سفر التعلم ، ولم ينقل عنه ذلك فى غيره من الأسفار : « لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا » (الكهف : آية ٦٢) ، وليعلم أن سفر العلم لا يخلو من التعب ، لأن طلب العلم أمر عظيم وهو أفضل من الغزاة عند أكثر العلماء . والأجر على قدر التعب والنصب ، فمن صبر على ذلك التعب وجد لذة العلم تفوق لذات الدنيا . ولهذا كان محمد بن الحسن اذا سهر الليالى وانحلت

له المشكلات يقول : « أين أبناء الملوك من هذه اللذات ؟ » (١٧٤) . ولذلك تجد البيزودى الدمشقى يســــال عن امام وقته فى معرفة صناعة الطب والمعرفة بها جيــدا فذكروا له أن ببغداد أبا الفرج بن الطيب وله خبرة وفضل فى صناعة الطب وفى غيرها من الصنائع الحكمية ، فنجده يتأهب للسفر الى بغداد ، ويأخذ سوارا كان لأمه لنفقته ويتوجه الى بغداد ، ويشــتغل على أبى الطيب الى أن مهر فى صناعة الطب (١٧٥) . وكذلك أبو الفضل بن أبى الوقار الدمشقى يرحل الى بغداد ويقرأ على أفاضــل الأطباء من أهلها ويعود الى دمشــق وقد أصبح متميزا فى صناعة الطب علمها وعملها (١٧٦) . ومهذب الدين بن النقاش البغدادى يرحـــل الى دمشق ، ثم يتوجه الى الديار المصرية ويقيم بها مدة لكى يجتمع بأفاضــل أطبائها ، وأبو زكريا يحيى البياسى الأندلسى يأتى الى ديار مصر متعلما ثم يتوجه الى دمشق طبيبا حاذقا ... (١٧٧) الخ ... الخ . وتتعدد رحلات الطلاب والأطباء الممارسين من قطر الى قطر بحثا عن الأستاذ الحاذق ، وبحثا عن مزيد من الخبرات والتجارب والممارسات الطبية الجديدة .

وفى الغالب ما تتم تلك الرحلات فى أول مرحلة الشباب . ويحكى لنا ابن أصيبعة كيف أن عمه رشيد الدين بن خليفة ، وهو فى أول شــبيبته « قصد السفر الى الموصل ليجتمع بالشيخ كمال الدين بن يونس ويشتغل عليه ، لما بلغه من علمه وفضله الذى لم يلحقه فيه أحد وتجهز للسفر ، فلما علمت بذلك والدته ، جدتى ، بكت وتضرعت اليــه أن لا يفارقهــا ، وكان يأخذ بقلبها فلم يمكنه مخالفتها ، وأبطل الرواح اليه » (١٧٨) . ولقد لعبت فريضة الحج دورا مشجعا على التواصل العلمى بين الأطباء ، اذ جعل طلاب الطب وأساتذته من الهند واسبانيا وآسيا الصغرى وأفريقيا يمرون فى طريقهم الى مكة والمدينة ببلاد عديدة ، حيث يزورون المدارس الطبية والبيمارستانات والمساجد ومعاهد العلم التى تضم الأطباء البارزين فيكون هناك حوار ونقاش وعلم وتعليم (١٧٩) . كذلك يسر على الطــلاب والأطباء القيــــام بتلك « الرحلات العلمية » ما كان يخصصــــه الأمراء والسلاطين لطالبى العلم الوافدين من منشـــــآت تلبى احتياجاتهم المادية والصحية . من ذلك ما يذكره ابن جبير عن زيارته الى مصر : « ومن مناقب هذا البلد ومفاخره العائدة فى الحقيقة الى سلطانه : المدارس والمحارس

(جمع محرس ، وهى ماوى مخصص للدارسين والزهاد والمسافرين والفقراء) الموضوعة فية لأهل الطب والتعبد ، يفدون من الأقطار النائية فيلقى كل واحد منهم مسكنا يأوى اليه ، ومدرسا يعلمه الفن الذى يريد تعلمه واجراء (مرتب) يقوم به فى جميع أحواله . واتسع اعتناء السلطان بهؤلاء الغرباء الطارئين حتى أمر بتعيين حمامات يستحمون فيها متى احتاجوا الى ذلك ، ونصب لهم مارستانا لعلاج من مرض منهم ، ووكل بهم الأطباء يتفقدون أحوالهم ، وتحت أيديهم خدام يأمرونهم بالنظر فى مصالحهم التى يشيرون بها من علاج وغذاء . وقد رتب أيضا فيه أقوام برسم الزيارة للمرضى الذين يتنزهون عن الوصول للمارستان المذكور من الغرباء خاصة وينهون للأطباء أحوالهم ليتكفلوا بمعالجتهم » (١٨٠) . وهذه العناية بالطلاب والعلماء الوافدين يسرت بدون شك أسباب الرحلة فى طلب « التعليم الطبى » لملاقاة كبار الأطباء والاستفادة من علمهم وتجاربهم الطبية .

٨ — الحفظ :

لقد مضت مدة طويلة وأغلب الدراسات تؤكد على أن الحفظ ولو بدون فهم هو أكثر الأساليب شيوعا فى التعليم الاسلامى . ولقد أشاع هذا الاعتقاد ما كتبه المستشرقون حول هذا الموضوع . ونقل الدارسون المسلمون هذا الخطأ الشائع بدون تحقيق علمى (١٨١) . حتى أن الباحث الحالى كتب فى دراسته عن ابن سينا لنيل درجة الماجستير عام ١٩٦٩ : « فالعالم فى التصور الاسلامى هو الحافظ ، وبقدر ما يكون الطالب حافظا لشتى الكتب يكون عالما . ويبدو أن الحفظ والاستظهار لم يكن قاصرا على العلوم النقلية التى تستدعى هذا الحفظ والاستظهار بل لجأ اليه طلاب الدراسات العقلية أيضا » (١٨٢) . وبذلك أصبحت الفكرة السائدة فى الأذهان أن الطالب المسلم كان يعكف على الكتب — فى أى موضوع — لكى يحفظها ولو بدون فهم حتى يكون عالما . وأن التعليم فى الاسلام يقوم على الرواية لا الدراية . أى على الحفظ لا الفهم . ونسنجد أن باحثا معاصرا بعد أن يعرض لبعض أراجيز ابن سينا فى الطب يصدر هذا الحكم القاطع : « وأهمية هذه الأراجيز من الناحية التربوية أنهما

تؤكد على أهمية كم المعلومات ، اذ أن الغرض الأساسى من نظمها هو ولا شك تيسيرها للحفظ بغض النظر عن الفهم والتطبيق » ، ويدل ذلك على أمرين ، أولهما : تقسيم الألفية للطب تقسيما منطقيا الى نظرى وعلمى ولكل من هذين اجزاؤه . فالنظرى ينقسم الى سبع طبيعيات ، وست ضروريات ، وثلاثة أمور خارجة عن الطبيعة ، أما الطلب العملى فهو من قسمين : الباطنى منه ، وهو ما يدبر بالأغذية والأدوية ، والجراحى وهو ما يعمل باليد .. وهكذا . أما الدليل الثانى : فهو ما حكى عن ابن سينا انه « ما كان يسمح لتلاميذه بالجلوس اليه والتلقى عنه الا بعد ان يحفظوا ارجوزته عن ظهر قلب » (١٨٣) .

والواقع اننا اذا رجعنا الى ادبيات التربية الاسلامية ، والى تراجم اعلامها المختلفة ، لتأكد لنا مقدار ما فى هذه الفكرة من مجانبة للواقع العلمى والتعليمى . فقد أكد فلاسفة التربية المسلمون على ضرورة توافر عنصر الفهم قبل الحفظ ، وأن يبدأ الطالب بالكتب الصغيرة السهلة قبل الكتب المطولة . وفى ذلك يقول الزرنوجى : « وينبغى أن يبتدأ بشىء يكون اقرب الى فهمه ، وكان الشيخ الامام الأستاذ مشرف الدين العقيلى رحمه الله يقول : « الصواب عندى فى هذا ما فعله مشايخنا رحمهم الله ، فانهم كانوا يختارون للمبتدىء صغارات المبسوط ، لأنه اقرب الى الفهم والضبط ، وأبعد من الملالة وأكثر وقوعا بين الناس » ، ويحذر الزرنوجى : « من أن يكتب المتعلم شيئا لا يفهمه ، فانه يورث كلالة الطبع ، ويذهب الفطنة ويضيع أوقاته » ، ويدعو الى الاجتهاد فى الفهم والتأمل فيما يتعلم لأن « فهم حرفين خير من حفظ سطرين ، وان تهاون فى الفهم ولم يجتهد مرة أو مرتين يعتاد ذلك فلا يفهم الكلام اليسير ، فينبغى الا يتهاون فى الفهم ، بل يجتهد ، ويدعو الله ويتضرع اليه فانه يجيب من دعاه ولا يخيب رجاه » (١٨٤) . ويؤكد طاش كبرى زاده هذا المعنى فيقول : « وينبغى لطالب العلم ان يكون متأملا فى جميع الأوقات فى دقائق العلم ، ويعتاد ذلك ، فانما يدرك الدقائق بالتأمل . ولذلك قيل تأمل تدرك ، خصوصا قبل الكلام ، فان الكلام كالسهم لابد من تقويمه بالتأمل أولا » (١٨٥) . فاذا تركنا مؤلفات رجال التربية ، وطالعنا كتابا مثل عيون الأنباء فى طبقات

الأطباء وذهبنا نقرا عن اسلوب هؤلاء الأعلام الذين يترجم لهم ابن أصيبعة، وكيف تعلموا بالفعل ؟ وحظهم من الحفظ أثناء حياتهم الدراسية ، وجدنا أن اسلوب الحفظ لا يظهر الا في المرحلة الأولى لحفظ شيء من الأدب ، وحفظ القرآن الكريم ، اما في المرحلة التالية فان عناصر الفهم والتأمل والمناقشة تمثل عناصر أساسية من العملية التعليمية على نحو ما ذكرنا في الصفحات السابقة . مما يؤكد بالفعل على أن إعتماد التعليم الاسلامي على الحفظ والاستظهار انما هو تعميم خاطيء أشاعه المستشرقون تحت وهم أن العرب كانوا أميين لا يقرؤون ولا يكتبون ، أو أنهم لم يعرفوا الورق الا متأخرا ... الخ فاعتمدوا على الذاكرة ، أو ان عدوى الحفظ قد انتقلت اليهم من علوم اللغة وعلوم الدين الى سائر العلوم ، وهي دعوى يكذبها الواقع التربوي الاسلامي على المستوى النظري ممثلا في آراء فلاسفة التربية المسلمين ، وعلى المستوى العملي ممثلا في الممارسات التربوية الفعلية للطلاب والعلماء على نحو ما ذكرنا . واذا كان المسلمون في عصور الانحطاط العلمي والثقافي ، والكبت الفكري والسياسي قد اهملوا ملكات الفكر الحر الناقد ، واعتمدوا بصورة أكبر على استرجاع ثقافة العصور السابقة ، فان هذا التردي التربوي لا يمكن ان يتخذ دليلا على أن « التعليم الاسلامي » قد اتخذ من الحفظ ولو بدون فهم وسيلة تربوية شائعة (١٨٦) .

اما الأراجيز الطبية التي استعملها بعض الأطباء المسلمين في التعليم الطبي سواء كانت لابن سينا أو غيره من الأطباء فلم تكن تحفظ بدون فهم ، بل كان الطالب مطالبا بأن يفهم محتواها ، والا فما الفائدة أصلا من حفظها ؟ واستخدام الشعر لأغراض تعليمية له تاريخه عند اليونان والرومان ، ثم استخدمه المسلمون فيما بعد ، ونظموا شعرا تعليميا في شتى المجالات ومنها الطب (١٨٧) . ولابن سينا سبع أراجيز طبية مشهورة هي (١٨٨) :

١ — ارجوزة التشريح مطلعها :

الحمد لله على تهذيبي

وعاصمي من أمم تهذي بي

٢ ـ أرجوزة في تدبير الصحة مطلعها :

الحمـــد لله اللطيف الـــكافى

الواحد الفرد الحكيم الشـــافى

٣ ـ ارجوزة فى الوصايا الطبية فى ٧١ بيتـــا مطلعها :

اول يوم تنزل الشمس الحمـــل

تشرب مـــاء فاترا على عجـــل

٤ ـ ارجوزة فى المجربات الطبية فى خمسة وثلاثين بيتا مطلعها :

بدأت باسم الله فى النظم الحسن

أذكر ما جربتـــه طـــول الزمن

٥ ـ ارجوزة فى الفصول التى فيها تناول الطعام مطلعها :

يقول راجى ربه ابن ســـــينا

ولـــــم يزل بالله مســـــتعينا

٦ ـ ارجوزة فى حجر الذخيرة وتسمى أيضا ارجوزة فى الباه مطلعها :

يا ســـائلى من وجـــع فى الوسط

ونقطـــة تاتى لـه لـــم تخطى

٧ ـ أما الأرجوزة السابعة اشهر الأراجيز واطولها والمسماة بالفية ابن سينا فى الطب، ولو انها تحتوى على الف وثلاثمائة وعشرين بيتا وموضوعها حفظ الصحة ومطلعها :

الطب حفظ صـــــحة برء مرض

ومن سبب فى بدن عنـــه عـــرض

وشعر العنترى الطبى كثير نذكر منه قطعة مختارة هنا كنموذج لهـــذا الشعر ولدوره التعليمى ، فى تقديمه المعلومات الطبية على شكل اشـــعار يسهل تذكرها . يقول العنترى (١٨٩) :

احفظ بنى وصيتى واعمل بهنا
فالطب مجموع بنص كلامى
قدم على طب المريض عناية
فى حفظ قوته مع الأيام
بالشبه تحفظ صحة موجودة
والضد فيه شفاء كل سقام
اقلل نكاحك ما استطعت فانه
ماء الحياة يراق فى الأرحام
واجعل طعامك كل يوم مرة
واحذر طعاما قبل هضم طعام
لا تحقر المرض اليسير فانه
كالنار يصبح وهى ضرام
واذا تغير منك حال خارج
فاحتل لرجعه حل عقد نظام
لا تهجرن القيء واهجر كل ما
كيموسه سبب الى الاسقام
ان الحمى عون الطبيعة مسعد
شاف من الأمراض والآلام
لا تشربن بعقب اكل عاجلا
او تأكلن بعقب شرب مدام
والقيء يقطع والقيام كلاهما
بهما وليس بنوع كل قيام
وخذ الدواء اذا الطبيعة كررت
بالاحتلام وكثرة الأحلام

واذا الطبيعـــة منك نقت باطنا

فـــدواء ما فى الجســـلد بالحمام

اياك تلزم اكل شىء واحـــد

فتقـــود طبعـــك للأذى بزمام

وتزيد فى الأخـــلاط ان نقعت به

زادت فنقص فضلهـــا بقـــوام

والطب جملتـــه اذا حققتـــه

حـــل وعقـــد طبيعة الأجسام

ولعقـــل تدبير المـــزاج فضيلة

يشفى المريض بهـــا وبالأوهام

ومن الذين الفوا الشعر الطبى سعيد بن عبد ربه (١٩٠) ، وسديد الدين ابن رقيقة الذى يقول عنـــه ابن أصيبعة : « واما الرجز فاننى ما رايت فى وقته من الأطباء احد أسرع عملا له منه ، حتى انه كان يأخذ اى كتاب شاء من الكتب الطبية وينظمه رجزا فى أسرع وقت مع استيفائه للمعانى ومراعاته لحسن اللفظ » (٩١١) . ولا شك أن ذلك يدل على تمكن ابن رقيقة فى الطب والشعر معا . وقس على هؤلاء غيرهم من الأطباء الأدباء الذين الفوا الشعر الطبى ، كاحدى الوسائل التعليمية المعينة للطالب على تذكر بعض المعلومات الطبية الهامة .

وفى النهاية ، نحب أن نؤكد هنا على امرين : الأمر الأول : انه اذا كان قد ورد عن بعض الأطباء مثل ابن سينا ضرورة حفظ بعض « المتون الطبية » أو تذكر بعض الحقائق المتعلقة بالطب ، فان هـــذا الأمر لم يكن خاصـــا بالعرب المسلمين ، بل سيوجد دائما بين المعلمين على مر العصور من يؤكد على أهمية تذكر الطالب لبعض حقائق العلم ، وأن تكون حاضرة فى ذهنه عند الطلب ، ويروى ابن أصيبعة أن ســـقراط لم يصنف كتابا ولا أملى على أحـــد من تلاميذه ما اثبته فى قرطاس ، وانما كان يلقنهم علمه تلقينا لا غير ، وانه تعلم ذلك من أســـتاذه طيماتاوس فانه قال له فى صـــباه :

لم لا تدعنى أدون ما أسمع منــك من الحكمة ؟ فقال له : ما أوثقك بجلود البهائم الميتة ، وازهدك فى الخواطر الحية ، هب أن انسانا لقيك فى طريق فسألك عن شىء من العــلم ، هــل كان يحسن أن تحيله على الرجوع الى منزلك والنظر فى كتبــك ؟ فاذا كان لا يحسن فالزم الحفظ ، فلزمها سقراط » (١٩٢) . الأمر الثــانى : انه فى كل علم وتعليم فان هناك قدرا معينا من حقائق العلم لابد أن تستظهر ، وليس ذلك بقادح فى عملية العلم والتعليم ، ما كان هذا الاستظهار مصاحبا للفهم والتأمل وحسن استخدام المعلومة المحفوظة . وفى هذه الحــدود يمكن أن نفهم الدور الذى لعبــه الحفظ فى التعليم الطبى عنــد المسلمين دون اى تضخيم لهــذا الدور ، او الغاء لأثره القوى فى نجاح هــذا التعليم عند المسلمين .

سادسا — عدد سنوات التعليم الطبى :

سبق أن ذكرنا عند حديثنا عن « مرحلة التعليم الأولى » أن المسلمين لم يتقيدوا بتحــديد سن معينــة لبداية التعلم أو نهايتــه ، وتركوا ذلك لاستعداد الطالب وتقدير الأستاذ ومتابعة الوالدين . وسنرى هنا أيضا أن « التعليم الطبى » لم يخضع لعدد سنوات دراسية معينة ، فابن سينا على سبيل المثال عندما وصل الى الثامنة عشر من عمره كان قد قرأ شيئا من الطب ، واشتهر به حتى أن الأمير نوح بن منصور السامانى قد طلب مشاركته فى علاجه (١٩٣) . وعلى بن رضوان كان يتكسب فى مثل هــذه السن أيضا من الطب (١٩٤) . ولكن يبدو أن المقصود بالاشــتغال بالطب فى مثل هذه السن هو ممارسة بعض الأمور الطبية البسيطة غير المعقدة ، خصوصا اذا عرفنا أنه كان من رأى ابن سينا أن الطالب فى تلك المرحلة الدراسية بعد أن يختار العلم الذى سيتخصص فيه ، وبعد أن يقطع فيه شوطا فمن الأفضل أن يمارس هــذا العــلم عمليا . فاذا كان قد اختار الطب حاول أن يزاول عمليا هذه المهنة ، وان كان يدرس الأدب أو الكتابة والانشاء حاول التكسب بهذا العلم ، وفى ذلك كما يرى ابن سينا منفعتان : احداهما : اذا ذاق حلاوة الكســب بضاعته وعرف غناها وجدها عظيمة فلم يضجع (يقصر) فى احكامها وبلوغ اقصاها . والثانية : أن يعتــاد طلب المعيشة » (١٩٥) . وابن رضوان أيضا الذى مارس شيئا من الطب

انبسيط فى سن مبكرة من أجل التكسب ، يذكر أنه بجوار ذلك واصل الاجتهاد فى التعليم كما يذكر « الى السنة الثانية والثلاثين ، فانى اشتهرت فيهـا بالطب ، وكفانى ما كنت أكسبه بالطب ، بل وكان يفضل عنى الى وقتى هذا ، وهو آخر السنة التاسعة والخمسين ، وكسبت مما فضل عن نفقتى أملاكا فى هذه المدينة أن كتب الله عليها السلامة وبلغنى بسن الشيخوخة كفانى فى النفقة عليها » (١٩٦) . فكان ابن سينا وابن رضوان قد درسا الطب لمدة ثلاث سنوات لممارسة بعض الاستشارات الطبية البسيطة ثم درسا الطب بعد ذلك مدة أطول لينالوا الشهرة ويكتسبوا الحذق بالصنعة . أما ابن جلجل صاحب طبقات الأطباء والحكماء فقد بدأ طلبه للطب فى الرابعة عشرة ، وأفتى فيه فى الرابعة والعشرين ، وغلب عليه هذا الفن وبه عرف ، وفى رجاله كانت مؤلفاته (١٩٧) ، أى أنه ظل يدرس الطب حوالى عشر سنوات . وهناك اشارات كثيرة تدل على أن بعض الطلاب كان سريع التحصيل . فرشيد الدين خليفة يقول له أستاذه فى حضور ابن أصيبعة : « والله يا رشيد الدين ، هذا الذى علمته فى نحو شهر داب غيرك فى خمس سنين حتى يعلمه » (١٩٨) . ولذلك فمن الطبيعى أن يخضع عدد سنوات التعليم الى عوامل مثل : استعداد الطالب العلمى ، ودوافعه للتعلم : وهل يريد أن يكون ممارسا لفرع واحد من الطب للتكسب به ، أم يريد أن يكون « حكيما » ويصل الى درجة الفقه فى الطب « الذى يفرع ويقيس ويستخرج » (١٩٩) . كذلك فان الدارس للكثير من تراجم الأطباء يلاحظ ظاهرة تكاد أن تكون عامة وهى أن المشهورين من الأطباء كانوا دائمى التعلم والقراءة والاطلاع مدى حياتهم الطبية تقريبا (٢٠٠) . وهؤلاء بلا شك هم فقهاء الطب وحكماؤه كما يصفهم أحمد بن الأشعث فى صدر كتابه : « الأدوية المفردة » .

سابعا — نظام الامتحانات :

يبدو أن الأطباء فى بداية الأمر كانوا يمارسون المهنة بعد أن يقرأوا بعض كتبها على أحد الأطباء البارزين ويجدوا فى أنفسهم القدرة على مزاولتها دون أن يكون عليهم شروط علمية بامتحان أو حكومية باجازة (٢٠١) . ولكن البعض قد تعجل مزاولة المهنة ، والحق الأذى

بأرواح الآخرين ، وادعى آخرون المعرفة بالطب ، لابتزاز أموال المرضى ، وأطلق على معرفة هؤلاء بالطب أنه « طب الطرقات » كناية عن جهلهم بالطب الحقيقى ، وابتذالهم المهنــة (٢٠٢) ، كما أطلق عليهم أيضــا لفظ « المتطببين » اى الذين يمارسون الطب وهم ليسوا أطباء على الحقيقة (٢٠٣) . ولذلك كان لابد أن تنظم ممارسة المهنة بحيث لا يتصدى لها الا من لديه الكفاءة العلميــة والمهنية . ونستطيع أن نميز بين نوعين من الامتحانات ظهرا لقياس تلك الكفاءة . أحدهما للأطبــاء الأحــداث عند التخرج ، والثانى للأطبــاء الممارسين . اما امتحان التخرج فقــد شــمل النظرى والعملى ، وطبيعى أن نجد كل عضو هيئة تدريس يركز أكثر فى امتحانه على أحد الجوانب أكثر من الأخرى . فالرازى على سبيل المثال لم يكن يعترف بالطبيب ما لم يكن ملما بتشريح جسم الانســان ويجعــل هــذا الموضوع فى مقدمة ما يسأل عنه الطالب ، فاذا فشل فى معرفة التشريح فان ذلك يكفى لرسوبه دون حاجة الى اختبــاره فى العلوم السريرية . يقول الرازى : « فاول ما تساله عنــه التشريح ومنافع الأعضاء ، وهل عنده علم بالقياس وحسن فهم ودراية فى معرفة كتب القدماء . فان لم يكن عنده ذلك فليس بك حاجة الى امتحانه فى المرضى . وان كان عالما بهــذه الأشياء فأكمل امتحانه حينئذ فى المرضى ، فان رأيته يدرى ففى الأدوية » . اى أن الرازى كان يبدأ بالجانب النظرى ويؤكد عليه اما على بن رضوان فقد كان له رأى مخالف ، اذ كان يركز على الجانب العملى اعتقادا منــه أن القسم النظرى يستطيع الطالب أن يتعلمــه فيما بعــد دون الحاجة الى أستاذ مشرف . أما القسم العملى فهو الذى يجب التأكد فى الامتحان من أن الطالب قد اتقنه ومارسه على يد استاذ قبل تخرجه (٢٠٤) .

أما امتحان الممارسين للمهنة ، فقد وضع امتحان الصيادلة فى عهد المامون ، ويروى ابن أصيبعة قصة بداية هذا الامتحان وكيف أن يوسف ابن ابراهيم قد اخبر المامون « أن الصيدلانى لا يطلب منه انسان شــيئا من الأشياء كان عنده أو لم يكن الا اخبره بأنه عنده ، ودفع اليه شــيئا من الأشياء التى عنده ، وقال هذا الذى طلبت . فان رأى أمير المؤمنين

ان يضع اسما لا يعرف ، ويوجه جماعة الى الصيادلة فى طلبه لبتاعه فليفعل ، فقال له المأمون : قد وضعت الاسم وهو سقطيثا — وسقطيثا ضيعة تقرب من مدينة السلام . ووجه المأمون جماعة من الرسل يسألهم عن سقطيثا ، فكلهم ذكر أنه عنده وأخذ الثمن من الرسل ودفع اليهم شيئا من حانوته ، فساروا الى المأمون باشياء مختلفة ، فمنهم من أتى ببعض البذور ، ومنهم من أتى بقطعة من حجر ، ومنهم من أتى بوبر » ، وكانت هذه الحادثة سببا فى امتحان الصيادلة والا يتصدى لتلك المهنة احد الا بعد امتحانه للتأكد من علمه وأمانته (٢٠٥) . أما امتحان ممارسة الطب فقد بدأ فى عهد المقتدر . ويروى لنا ابن أصيبعة ايضا قصة بداية هذا الامتحان فيقول نقلا عن ثابت بن سنان : « لما كان فى سنة تسع عشرة وثلاثمائة اتصل بالمقتدر أن غلطا جرى على رجل من العامة من بعض المتطببين فمات الرجل — فأمر ابراهيم بن محمد بن بطحا بمنع سائر المتطببين من التصرف الا من امتحنه والدى سنان بن ثابت . وكتب له رقعة بخطه بما يطلق له من الصناعة ، فساروا الى والدى وامتحنهم ، وأطلق لكل واحد منهم ما يصلح أن يتصرف فيه . وبلغ عددهم فى جانبى بغداد ثمانمائة رجل ونيفا وستين رجلا ، سوى من استغنى عن محنته باشتهاره بالتقدم فى صناعته ، وسوى من كان فى خدمة السلطان » (٢٠٦) . وبذلك أصبحت مهنة الطب والصيدلة لا تمارس الا بعد اجتياز امتحان تديره رئاسة الأطباء بمعونة هيئة الحسبة ، التى مارست وظيفة التفتيش والرقابة على الأطباء والصيادلة فى تلك العصور (٢٠٧) . واذا كان رئيس الأطباء هو الذى يحكم على طائفة الأطباء ويأذن لهم فى ممارسة المهنة فقد كان رئيس الكحالين يمارس نفس الدور مع طائفة الكحالين ، ورئيس الجرائحية بالنسبة للجرائحية والمجبرين (٢٠٨) .

ولقد تطور هذا الامتحان شيئا فشيئا بحكم الزمن وتقدم الصنعة ، حتى اذا حل القرن العاشر الهجرى صار على كل من يكمل تعلم المهنة ويرغب فى ممارستها ، ان يقدم طلبا الى رئيس الأطباء مشفوعا بما يشبه الأطروحة تتضمن شيئا من أعماله الشخصية فى الطب ، او تعليقا على أحد الكتب البارزة فيه . ويمتحنه رئيس الأطباء فى بحث هذه الأطروحة ،

وفى كل ما له علاقة بها من علوم الطب ، ويجيزه على ممارسة الصنعة بحسب معلوماته بذلك (٢٠٩) .

ثامنا — اساتذة الطب :

كان اختيار الأستاذ مهما فى التعليم الطبى الاسلامى ، ولذا حرص الطلاب على أن يختاروا الأطباء المشهود لهم بالكفاءة ليتلقوا عليهم العلم النظرى والتدريب العملى سواء كان هذا الأستاذ داخل الاقليم او رحلوا اليه أينما وجد . وتؤكد ادبيات التربية الاسلامية على أهمية حسن اختيار الأستاذ ، وأن يتريث الطالب فى ذلك ، وان يشاور وان يسال عن الأستاذ الأعلم والأروع والأسن ، « اذ أن أول ما يذكر من المرء أستاذه ، فان كان جليلا جل قدره » فاذا وجد الطالب استاذا جليل القدر لازمه واخذ عنه (٢١٠) . وبحثا عن الأستاذ الحاذق رحل طلاب الطب من مكان الى آخر (٢١١) . فرضى الدين الرحبى على سبيل المثال يرحل اليه الطلاب لذيوع شهرته ، ولذلك « اشتغل عليه بصناعة الطب خلق كثير ، ونبغ منهم جماعة عدة ، واقرأوا لغيرهم وصاروا من المشايخ المذكورين فى صناعة الطب » (٢١٢) . ولقد كان الطالب ينسب دائما الى أستاذه الذى تخرج على يده ، ولذا فكثيرا ما يذكر ابن اصيبعة فى تراجمه أن فلانا اخذ الطب عن فلان ، وكان من تلامذته فلان وفلان ... الخ (٢١٣) . فعلى سبيل المثال عند الترجمة لأبى الفرج بن الطيب يقول : « اخذ عن ابن الخمار وخلف من التلاميذ أبا الحسن بن بطلان ، وابن بدرج ، والهروى ، وبنى حيون ، وأبا الفضل كتيفات ، وابن اثردى ، وعبدان ، وابن مصوصا ، وابن العليق » (٢١٤) . وعند امتحان ممارسة الطب كان أول ما يسأل عنه الطبيب الممارس : على من تلقى الصنعة ؟ (٢١٥) اذ كان تلقيه الصنعة على يد أستاذ حاذق يرفع من شأنه بعكس ما اذا لم يعرف له أستاذ جليل القدر .

ويرسم لنا ابن اصيبعة فى أكثر من موضع صورة مشرفة لأساتذة الطب سواء فى تطويرهم للتعليم الطبى ، بعد نقله وترجمته واستيعابه ، او فى تدريبهم الطلاب على ممارسة المهنة عمليا ، أو فى اعطائهم المثل الجيد لطلابهم من حيث اخلاق المهنة ، ومواصلة العلم والدراسة حتى آخر لحظة فى حياتهم لقد كان أساتذة الطب فى البداية يعرفون اللغات الأجنبية

مثل السريانية أو اليونانية أو الرومية أو الفارسية (٢١٦) . ولكنهم بجوار ذلك كانوا يتقنون العربية ويهتمون بها الى ابعد الحدود ، حتى تأتى ترجماتهم جيدة . وبلغ حرصهم على اللغة العربية واحترامهم لها ، أنهم لم يكونوا يسمحون لطلابهم باللحن فى قراءة الكتب الطبية ، فمهذب الدين عبد الرحيم على سبيل المثال كان « أبدا لا يفارقه الى جانبه مع ما يحتاج اليه من الكتب الطبية ومن كتب اللغة ، كتاب الصحاح للجوهرى والمجمل لابن فارس » (٢١٧). وأمين الدولة بن التلميذ « كان يحضر مجلسه فى صناعة الطب خلق كثير يقراون عليه ، وكان اثنان من النحاة يلازمان مجلسه ولهما منه الانعام والافتقاد ، وكان من يجده من المشتغلين عليه يلحن كثيرا فى قراءته او هو الكن يترك احد ذينك النحويين يقرأ عنه وهو يسمع » (٢١٨) . ولعل هذا الاهتمام باللغة العربية هو الذى مكنهم من اجتياز مرحلة الترجمة الى مرحلة الابداع والتاليف الطبى باللغة العربية ، وبذلك ازدهر التعليم الطبى واصبح ميسرا للطلاب ، كما شاعت « الثقافة الطبية » بين المثقفين وطبقات العامة .

كذلك سنرى الأساتذة فى البيمارستانات يقدمون لطلابهم المثل الجيد للممارسة الطبية وللحكم السريرى الجيد ، ويتيحون لهؤلاء الطلاب فرص التعليم النظرى والتعليم السريرى على نحو ما يصف لنا ابن أصيبعة فى أكثر من موضع (٢١٩) . اذ قل أن يتحدث عن أستاذ ، الا ويذكر طلابه من حوله يدرسون ، أو يطالعون ويناقشون أو يشاهدون ملاحظات سريرية .. ولقد بلغ من حرص الطلاب على الاستفادة بأساتذتهم أن الطلبة والمشتغلين على أبى الفضل بن الناقد كانوا يقرأون علية حتى وهو راكب وقت مسيره وافتقاده للمرضى (٢٢٠) . وهكذا قام أساتذة الطب الاسلامى بدورهم كأفضل ما يكون دور الأستاذ الجامعى من حيث تطوير المعرفة الطبية ، وتدريب الأطباء ، واعطاء المثل الجيد للممارسة العلمية والمهنية (٢٢١) .

تاسعا — المرأة والتعليم الطبى :

لقد ترجم ابن أصيبعة فى طبقاته لأكثر من أربعمائة وخمسة عشر طبيبا فى العصر الاسلامى (انظر الملحق رقم ٢) ، ومع ذلك لم يخص المرأة من هذا العدد ، الا ترجمة واحدة لزينب طبيبة بنى أود . ويقول ابن أصيبعة فى ترجمتها انها « كانت عارفة بالأعمال الطبية ، خبيرة بالعلاج ومداواة العين مشهورة بين العرب بذلك » . ويحكى لنا عنها قصة رواها أبو الفرج الأصفهانى فى كتاب الأغانى ملخصها « انها كحلت مريضا من رمد أصابه ، ثم قالت له : اضطجع قليلا حتى يدور الدواء فى عينيك ، فاضطجع المريض ثم تمثل قول الشاعر :

أمخترمى ريب المنون ولم أزر

طبيب بنى أود على النأى زينبا

فضحكت ثم قالت : أتدرى فيمن قيل هذا الشعر ؟ قلت : لا ، قالت : فى والله قيل ، وأنا زينب التى عناها وأنا طبيبة بنى أود . أفتدرى من الشاعر ؟ قلت : لا ، قلت : عمك أبو سماك الأسدى » (٢٢٣) .

ويقف الدارس أمام هذه الظاهرة ، عدم وجود تراجم للطبيبات المسلمات ويحاول أن يسأل : لماذا لم يترجم ابن أصيبعة لطبيبات سوى زينب ؟ وهل يعقل أنه لم تكن هناك طبيبات سواها ؟ وأن المرأة المسلمة لم تتعلم الطب ؟ وأن هناك ظروفا خاصة كانت تحول بينها وبين تعلم الطب ؟ ولكن لقد مرت بنا قصة الجارية التى كانت تعلم الطب ، وأجابت على أسئلة الأطباء فى مجلس الرشيد ، وكان ذلك سببا فى أن يشتريها المأمون بثمن باهظ ، فهل يعقل أن تتعلم الجوارى والاماء ولا تتعلم الحرائر ؟؟.

لقد وقف أحمد شلبى وقفة سريعة أمام ما سماه قلة نسبة عدد المتعلمات بين النساء كثيرا عن نسبتها بين عدد المتعلمين من الرجال فى العصر الاسلامى ، وأرجع ذلك الى أن تعليم المرأة كان بواسطة أحد ذويها أو يقوم به معلم خاص . وكلا هذين لا يتيسر للجمهرة العظمى

من النساء فى حين ان الوسيلة لتعليم الولد سهلة ، فهو يلتحق بالكتاب صبيا ، وينضم الى حلقات العلم فى المؤسسات التعليمية المختلفة اذا شب ونمت ثقافته (٢٢٣) . فهل كان هذا هو سبب قلة عدد الطبيبات المسلمات ؟ ام ان هناك اسبابا اخرى مثل تعذر الرحلة فى طلب الأستاذ ؟ وصعوبة الممارسة والملاحظة السريرية فى البيمارستانات ، وانشغال المراة بامورها المنزلية ؟ ... الخ ، واذا كان ابن اصيبعة لم يذكر لنا اسماء الطبيبات المسلمات ، فاننا نجد باحثين آخرين يذكرون لنا أسماء طبيبات منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم . كرفيدة وام عطية وأمية بنت قيس الغفارية والربيع بنت معوذ ، وام الحسن بنت القاضى ابو جعفر الطنجالى واخت الحفيد بن زهر وابنتها « وكانتا عالمتين بصناعة الطب والمداواة ، ولهما خبرة جيدة فيما يتعلق بمداواة النساء ، وكانتا تدخلان الى نساء المنصور ولا يقبسل لمداواة اهل المنصور سواهما » (٢٢٥) . كذلك فان الفقهاء المسلمين كانوا لا يرون ان يداوى الرجل المراة الا لضرورة ولا ينظرون من جسدها الا ما لابد منه (٢٢٦) ، مما يؤكد لنا انه كان بجوار الأطباء المسلمين وجدت طبيبات مسلمات ، وان كن اقل عددا من الأطباء . فلماذا لم يترجم لهن ابن اصيبعة ؟.

يبدو ان ابن اصيبعة لم يترجم الا لمن اشتغل بوظيفة الطب ، وتخصص فيه ، وكانت له فاعليات فى هذا المجال ، كأن يكون له طلاب ، أو تكون له مؤلفات طبية ، او تكون له ممارسات أودعها فى كناش ، ويبدو ايضا ان أغلب من مارس الطب من النساء لم تمارسنه كمهنة او تخصص ، أو مصدر رزق ، ولم تكن لهن فاعليات فى مجال الطب وتعليمه وممارسته . وانما كن فى الغالب متطوعات يقمن بالدور الذى تقوم به فى العهد الحاضر منظمات الصليب الأحمر كما ترى Mugannam (٢٢٧) ، أو بالدور الذى يقوم به الطبيب العام الممارس General praction القادر على مواجهة مشاكل الجراحة الصغيرة والتوليد وامراض الأطفال والكحل ... الخ من الاعمال الطبية البسيطة التى تحدث كثيرا ويمكن ان تقوم بها الطبيبات المسلمات دون ان يستلزم ذلك تخصصا دقيقا فى الطب ، ودون ان يكون لهن كتب أو مؤلفات أو خبرات طبية خاصة

تستحق ان توضع للدراسة والاحتذاء لغيرهن من الأطباء . ولهذا لم يترجم لهن ابن اصيبعة لأنه كما ذكر فى صدر كتابه ، انما كتب هذا المؤلف ليذكر فيه « جماعة من اكابر أهل هذه الصناعة ، واولى النظر فيها والبراعة ممن قد تواترت الأخبـــار بفضلهم ، ونقلت الآثار بعلو قدرهم ونبلهم ، وشهدت لهم بذلك مصنفاتهم ، ودلت عليهم مؤلفاتهم » (٢٢٨) . ولكن ذلك لا ينفى أن موضوع تعليم المرأة بصفة عامة ، وتعليم الطب بصفة خاصة ما زال موضوعا يتطلب دراسة خاصة على كل حال .

مراجـع الفصـل الثـالث ومصـادره

(١) الباحث : « الفكر التربوى والنفسى فى تراثنا العربى الاسلامى » من : **بحوث فى التربية الاسلامية** ، مرجع سابق ، ص ٥ — ص ١٢ .

(٢) و (٣) ابن سينا : **البرهان من الشـفاء** ، المطبعـة الأميرية ، القـاهرة ، ١٣٧٥ هـ ، ص ٥٧ .

(٤) راجع فهرست موضوعات : ((**مفتاح السعادة ومصباح السيادة فى موضوعات العلوم**)) ، مرجع سابق ، الأجزاء الثلاثة .

(٥) راجع : احمد زكى بك : **موسوعات العلوم العربية** ، المطبعة الأمـيرية ببولاق ، ١٨٨٩ ، حيث يستعرض الكتاب أهم تلك المؤلفـات التى اعتبرها جميعا موسوعات Encyclopedia ثم راجع مقدمة عثمان أمين على كتاب : **احصاء العلوم ، للفارابى** ، الأنجلو المصرية ، القـاهرة ، ١٩٦٨ ، ص ١٣ — ص ٢٣ ، ومقدمة كامل كامل بكرى ، وعبد الوهاب أبو النور على كتاب : **مفتاح السعادة ومصباح السيادة** ، مرجع سابق ، ص ٣٥ — ص ٧٦ ، حيث نجد تفرقة مهمة بين نوعين من هذه المؤلفات : مؤلفات تعتبر موسوعات أو دائرة معارف عربية للعلوم ، ومؤلفات تعتبر مجرد كتب تعريف وتصنيف Classification

(٦) الفارابى : **احصاء العلوم** ، تحقيق عثمان أمين ، مرجع سابق ، ص ٥٣ — ص ٥٥ .

(٧) ابن سـينا : « كتاب السياسـة » ، نشر لويس معلـوف ، **مجلة المشرق** ، عام ١٩٠٦ م ، ص ١٠٧٥ .

(٨) **نفس المرجع** والمكان .

(٩) راجع النظرية الاسلامية فى حكمـة اختـلاف البشر فى الميول والقدرات كما عرضها ابن سينا ، الباحث : **فلسفة التربية عند ابن سينا** ، مرجع سابق ، ص ٧٣ — ص ٧٤ ، وهذه النظرة نجدها لدى أغلب المفكرين المسلمين ، كالفارابى وابن خلدون واخوان الصفا ... الخ .

(١٠) إبن سينا : كتاب السياسة ، **مرجع سابق** ، ص ١٠٧٥ — ص ١٠٧٦ .

(١١) برهان الاسلام الزرنوجى : **تعليم المتعلم طريق التعلم** ، مرجع سابق ، ص ٦٣ .

(١٢) طاش كبرى زادة : **مفتاح السعادة ومصباح السيادة** ، مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٣٢٦ .

(١٣) ابن أصيبعة : **عيون الأنباء فى طبقات الأطباء** ، مرجع سابق ، ص ٧ .

(١٤) المولوى التهسانوى : كشاف اصطلاحات الفنون ، ج ١ ، ص ٧٣ ، نقلا عن : عبد اللطيف محمد العبد ، محقق **اخلاق الطبيب** ، للرازى ، دار التراث ، القاهرة ، ١٩٧٧ ، ص ٦٥ .

(١٥) برهان الاسلام الزرنوجى : **تعليم المتعلم طريق التعلم** ، مرجع سابق ، ص ١٣٤ ، ص ١٤٠ .

(١٦) خضر بن على الخطاب : « مخطوطة شفاء الأسقام ودواء الآلام » فى سلمان قطاية : **مخطوطات الطب والصيدلة فى المكتبات العامة بحلب** ، معهد التراث العلمى العربى ، حلب ، ١٩٧٦ ، ص ١٠١ ، ص ١٠٢ .

(١٧) مظفر الدين الغيتابى المعروف بابن الأمشاطى : « مخطوطة شرح اللمحة العفيفة المسمى تأسيس الصحة » ، **نفس المرجع** ، ص ١٣٠ .

(١٨) راجع : ابن أصيبعة : **عيون الأنباء فى طبقات الأطباء** ، مرجع سابق ، ص ١٨٣ — ص ٢٨٤ ، حيث تبدو تلك الظاهرة : ظاهرة احتكار وتوارث التعليم الطبى بين أسر معينة من أهل الذمة غير العرب .

(١٩) ادوارد ج. براون : **الطب العربى** ، مرجع سابق ، ص ٢٤ .

(٢٠) ابن أصيبعة : **عيون الأنباء فى طبقات الأطباء** ، مرجع سابق ، ص ٣٥٤ — ص ٢٥٥ .

(٢١) محمد كرد على : مقدمته **لتاريخ حكماء الاسلام** ، للبيهقى ، مطبعة الترقى بدمشق ، ١٩٤٦ ، ص ٧ .

(٢٢) ابن اصيبعة : **عيون الأنباء فى طبقات الأطباء** ، مرجع سابق ، ص ٢٦١ .

(٢٣) ناجى معروف : **تاريخ علماء المستنصرية** ، مطبعة العانى ، بغداد ، ١٩٦٥ ، ص ٥٥ — ص ٥٦ .

(٢٤) سعيد اسماعيل على : **معاهد التعليم الاسلامى** ، مرجع سابق ، ص ٢٢٧ .

(٢٥) داود الانطاكي : **تذكرة اولى الألباب والجامع للعجب العجاب** ، المطبعة الحسينية ، القاهرة ، ١٩٢٦ ، ج ١ ، ص ٥ .

(٢٦) الحافظ الذهبي : **الطب النبوى** ، البابى الحلبى ، القاهرة ، ١٩٦١ ، ص ١٠٧ ، ص ١٠٨ .

(٢٧) أحمد حسين القرنى : **قصة الطب عند العرب** ، مرجع سابق ، ص ٩٤ ، ص ٩٥ .

(٢٨) ابن بطلان : **دعوة الأطباء على مذهب كليلة ودمنة** ، المطبعة الخديوية بالاسكندرية ، ١٩٠١ م .

(٢٩) فؤاد سركين : **محاضرات فى تاريخ العلوم** ، مطابع جامعة الامام محمد بن سعود ، الرياض ، ١٩٧٩ ، ص ١٠٥ ، ص ١٠٦ .

(٣٠) انظر مثلا : ص ١٨٦ ، ص ١٨٨ ، ص ١٩٠ ، ص ١٩٢ .. الخ ، وكذا الملحق رقم (١) .

(٣١) ظهير الدين البيهقى : **تاريخ حكماء الاسلام** ، مرجع سابق ، ص ٢١ .

(٣٢) نظامى العروضى السمرقندى : **جهار مقاله (المقالات الأربع)** ترجمة عبد الوهاب يحيي الخشاب ، لجنة التاليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٤٩ ، ص ٢٠ .

(٣٣) الرازى : **اخلاق الطبيب** ، مرجع سابق ، ص ٨٧ ، ص ٨٨ .

(٣٤) ادوارد . ج . براون : **الطب العربى** ، مرجع سابق ، ص ١٤٠ — ص ١٤١ .

(٣٥) انظر : تفاصيل التصور الاسلامى للمعرفة فى :

Zeyyed Hossein Nasr : **Islamic Science,** World of Islam Festival publishing Company LTD, London, 1976

———— : **An Introduction to Islamic Cosmological Doctrines,** Cambridge, London, 1976.

———— : **Scienee and Civilization in Islam,** Cambridge, London, 1970.

(٣٦) John Rowland :**Mysteries of science, Astudy of the Limitations of the scientific Method,** Werner Laurie, London, 1955, p. 182.

(٣٧) قارن التصور الاسلامي للمعرفة بالتصور المادى للعلم كما يعرضه :

E.A. Burtt : **The Metaphysical Foundation of modern science,** Longman, New York, 1954.

H. Butterfield : **The origins of Modern Science,** Wiley, New York, 1951.

(٣٨) ابن سينا : **النجاة** ، البابى الحلبى ، القاهرة ، ١٣٥٧ هـ ، ص ٧٣ ، ص ٧٤ ، **البرهان من الشفاء** ، مرجع سابق ، ص ١٦٢ . ولأخذ صورة كاملة عن هذا التصور انظر رسالته : « اقسام العلوم العقلية » مطبوع ضمن مجموعة « **مجموع الرسائل** » ، مطبعة كردستان العلمية — القاهرة ، ١٣٢٨ هـ ، ص ٢٢٥ — ص ٢٤٥ .

(٣٩) عبد المجيد عابدين : تقديم كتاب : **مقدمة فى تاريخ الطب العربى** — التجانى الماحى ، مطبعة مصر ، الخرطوم ، ١٩٥٩ م ، ص ٤ .

(٤٠) طاش كبرى زادة : **مفتاح السعادة ومصباح السيادة** ، مرجع سابق ، ص ٢ ، ص ٣ .

(٤١) **نفس المرجع** ، ص ٣ ، ص ٤ .

(٤٢) محمد ماهر حمادة : **الوثائق السياسية والادارية العائدة للعصر العباسى الأول ، دراسة ونصوص** ، مؤسسة الرسالة ، القاهرة — ١٩٧٧ ، ص ٢٥٨ ، ص ٢٥٩ .

(٤٣) ظهير الدين البيهقى : **تاريخ حكماء الاسلام** ، مرجع سابق ص ١٩ ، ٥٥ ، ٥٩ ، ٨٠ ، ٩٥ ، ١٠٣ ، ١٣٧ ، الخ .. حيث نرى اشتهار كل عالم بمجال من المجالات العلمية .

(٤٤) آدم متز : **الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع** ، ترجمة عبد الهادى أبو ريده ، لجنة التاليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٤٧ ، ج ١ ، ص ٣٠٩ .

(٤٥) ابن أصيبعة ، **عيون الأنباء فى طبقات الأطباء** ، مرجع سابق ، ص ٦١٠ من ترجمة عيسى الرقى .

(٤٦) الف ليلة وليلة ، ص ٤٤٩ — ص ٤٥٤ ، نقلا عن : نظير أحمد : « بعض مشكلات البحث والدراسة للطب الاسلامى فى العصور الحديثة » **من ابحاث واعمال المؤتمر العالمى الثانى للطب الاسلامى** ، مرجع سابق ، ص ٨٩٨ .

(٤٧) ابن هشام : **سيرة ابن هشام** ، مرجع سابق ، ص ٢٩٧ — ص ٣٠٠ ، السهيلى : **الروض الأنف** ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة ١٩٦٩ — ج ٤ ، ص ٢٣٢ ، ص٢٣٤ ، و

— The Encyclopaedia of Islam, Luzac, London, Vol III, 1936, pp. 317, 318.

(٤٨) التغرى بردى : **النجوم الزاهرة** ، المؤسسة المصرية ، القاهرة ١٩٦٣ ، ج ١ ، ص ٦٦ — ص ٦٨ ، ص ٣٢٦ — ص ٣٢٧ ، ج ٣ ، ص ٨ ص ١٢ ، ج ٤ ، ص ٣٢ ، المقريزى : **الخطط المقريزية** ، مطبعة النيل ، القاهرة ، ١٣٢٦ هـ ، ج ٤ ، ص ٧٩ — ص ٨٩ .

(٤٩) التغرى بردى : **النجوم الزاهرة** : ج ٤ ، ص ٧٩ — ص ١٠٤ ، المقريزى : **الخطط المقريزية** ، ج ٢ ، ص ٣٨٤ — ص ٣٩٤ .

(٥٠) لأخذ فكرة عن هذا الدور قديما وحديثا راجع : عبد الفتاح جلال وآخرون : **المسجد وتعليم الكبار ، فى المجتمع المعاصر** ، سرس الليان ، المركز الدولى للتعليم الوظيفى للكبار فى العالم العربى ١٩٧٨ ، عبد الله عبد الخالق المشد : « وظيفة المسجد فى المجتمع المعاصر فى التوجيه الاجتماعى فى الاسلام » من **بحوث مؤتمرات مجمع البحوث الاسلامية** ، القاهرة ، مجمع البحوث الاسلامية ، ج ٣ — ١٩٧٢ ، طلعت بدير الأديب ، « **دور المسجد فى تلبية حاجات جمهوره** » ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية التربية جامعة الأزهر ، ١٩٧٩ .

(٥١) ظهير الدين البيهقى : **تاريخ حكماء الاسلام** ، مرجع سابق ، ص ١٣١ .

(٥٢) ابن أصيبعة : **عيون الأنباء فى طبقات الأطباء** ، مرجع سابق ، ص ٦٨٩ .

(٥٣) محمد عبد الله عنان : « مصر فى فاتحة القرن الثالث عشر كما يصورها عبد اللطيف البغدادى » فى : **مصر الاسلامية وتاريخ الخطط المصرية** ، مكتبة الخانجى ، القاهرة ، ١٩٦٩ ، ص ١٣١ — ص ١٤٠ .

(٥٤) راجع على سبيل المثال ، ما حدث من تطور الدراسة فى الأزهر فى :

A. ElnakiB : The Educational Reform of Al-Azhar 1872–1972. op. cit, pp. 29 – 34.

(٥٥) أحمد شلبى : **التربية الاسلامية نظمها ، فلسفتها ، تاريخها** ، مرجع سابق ، ص ١١٣ ، ص ١١٤ ، وانظر ايضا :

سعيد اسماعيل على : **معاهد التعليم الاسلامى** ، مرجع سابق ، ص ١٢٩ ، ص ١٣٤ ، عبد الله عبد الدايم : **التربية عبر التاريخ من العصور القديمة حتى أوائل القرن العشرين** ، مرجع سابق ، ص ١٥٤ ، ص ١٥٦ .

(٥٦) عن أهمية الأوقاف فى الحياة الثقافية والتعليمية راجع : محمد محمد أمين على : « **تاريخ الأوقاف فى مصر فى عصر سلاطين المماليك**

١٢٥٠ — ١٥١٧ » ، **دراسة تاريخية وثقافية** ، دار النهضة العربية — القاهرة ، ١٩٨٠ ، ص ٢٣٣ — ص ٢٧٥ .

(٥٧) انظر الطابع الدراسى فى تلك المدارس فى :

George Makdisi : "Muslim Institution of learning In Eleventh century Baghdad" **In The Bulletin of The School of Orintal and African Studies,** University of London, Vol XXIV, pp 1-56. & A.L. Tibawi: "Origin and Character of Al-Madrasah", **Ibid,** Vol, XXV, pp 225 - 238.

(٥٨) عبد الله عبد الدايم : **التربية عبر التاريخ من العصور القديمة حتى أوائل القرن العشرين** ، مرجع سابق ، ص ١٥٥ .

(٥٩) محمد مصطفى زيادة وآخرون : **تاريخ الحضـارة المصرية : العصر اليونانى والرومانى والعصر الاسلامى** ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٢ ، ص ٥٨٨ — ص ٥٩٠ .

(٦٠) حسين امين : **من تاريخ التربية والتعليم فى الاسلام « المدرسة المستنصرية »** ، مطبعة شفيق ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، ص ٤٠ — ص ٤١ ، وراجع محتويات المبنى الدراسى من ص ٣٨ — ص ٤٢ .

(٦١) ابن اصيبعة : **عيون الأنباء فى طبقات الأطباء** ، مرجع سابق ، ص ٧٣٣ .

(٦٢) حاجى خليفة : **كشف الظنون على أسامى الكتب والفنون** ، وكالة المعارف ، استانبول ، ١٩٤٣ ، جـ ١ ، ص ٥٣ .

(٦٣) ناجى معروف : **تاريخ علماء المستنصرية** ، مطبعة العـانى ، بغـداد ، ١٩٦٥ ، جـ ١ ، ص ٥٧ — ص ٦٠ .

(٦٤) عبد الله عبد الدايم : **التربية عبر التاريخ من العصور القديمة حتى أوائل القرن العشرين** ، مرجع سابق ، ص ١٥٥ ، سعيد اسماعيل على : **معاهد التعليم الاسلامى** ، مرجع سابق ، ص ١٥٦ ، ص ١٨٠ .

(٦٥) عبد القـادر محمـد النعيمى الدمشقى : **الدارس فى تاريخ المدارس** ، مطبعة الترقى بدمشق ، ١٩٥١ وانظر وصفه لمدارس الطب ،

بالذات : الدخوارية ، الدينسيرية ، اللبودية النجمية ، ج ٢ ، ص ١٢٧ — ص ١٣٨ .

(٦٦) ناجى معروف : **تاريخ علماء المستنصرية** ، مرجع سابق ج ١ ، ص ٥٥ — ص ٦٠ .

(٦٧) ابن أصيبعة : **عيون الأنباء فى طبقات الأطباء** ، مرجع سابق ، ص ٦٧٣ .

(٦٨) **نفس المرجع** ، ص ٦٧٦ .

(٦٩) **نفس المرجع** ، ص ٧٣٤ .

(٧٠) **نفس المرجع** ، ص ٧٣٣ .

(٧١) أحمد شلبى : **التربية الاسلامية ، نظمها ، فلسفتها ، تاريخها** ، مرجع سابق ، ص ١٢٤ ، وانظر ايضا عماد عبد السلام رءوف : **مدارس بغداد فى العصر العباسى** ، مطبعة دار البصرى ، بغداد ، ١٩٦٦ ، ص ٦ ، ص ٧ .

(٧٢) خوسيه لويس بارسلو : « اثر العلوم الاسلامية فى تطور الطب » من **ابحاث واعمال المؤتمر العالمى الأول عن الطب الاسلامى** ، مرجع سابق ، ص ١١٨ ، وقارن هذا العدد الهائل من الأطباء والخدمات الطبية التى توفرت للمسلمين ، بما يعانيه عالمنا العربى الاسلامى اليوم من انخفاض المستوى الصحى ، وقلة عدد الأطباء والخدمات الصحية فى :
R.E Nassif, J.D. Thaddeus: (Editors): **Education for Health Manpower in the middle East,** American University of Beirut, 1967.

وبهيج ملاجويش : **نحو دراسة صحية لمستقبل العالم الاسلامى** ، المكتب الاسلامى ، بيروت ، ١٩٧٥ ، د. نبيل صبحى الطويل : « **الحرمان والتخلف فى ديار المسلمين** » ، كتاب الأمــة ، رئاسة المحاكم الشرعية ، والشئون الدينية ، دولة قطر ، ١٩٨٤ .

(٧٣) أحمد عيسى بك : **تاريخ البيمارستانات فى الاسلام** ، المطبعة الهاشمية ، دمشق ، ١٩٣٩ ، ص ٤ .

(٧٤) ابن أصيبعة : **عيون الأنباء فى طبقات الأطباء** ، مرجع سابق ، ص ٤٧ .

(٧٥) احمـــد عيسى بك : **تاريخ البيمارستانات فى الاسلام** ، مرجع سابق ، ص ١٠ .

(٧٦) **نفس المرجع** ، ص ٣ .

(٧٧) بول غليونجى : « اســـهام علماء المسلمين فى البحث العلمى فى مجال الطب » **مجلة اتحاد الجامعات العربية** ، العدد السابع عشر ، ١٩٨٠ ، ص ١٩٠ ، مرسى محمد عربى : **لمحات من التراث الطبى العربى** ، مرجع سابق ، ص ٧٠ — ص ٧٥ .

— Seyyed Hossein Nasr: **Islamic Science**, Op. Cit PP. 19, 20.

(٧٨) نور حسين شودرى : « فضائل الطب الاسلامى ، كيفيـــة اكتســـابها ، واعادة تنظيمها » من **ابحاث واعمال المؤتمر العـــالمى الأول عن الطب الاسلامى** ، مرجع سابق ، ص ١٣٢ .

(٧٩) احسان كارجاس : « بيان تمهيـــدى عن الأعمال التحضيرية من أجل اقامة نظام للآداب الطبية الاسلامية » **نفس المرجع** ، ص ٦٣٤ .

(٨٠) ابن اصيبعة : **عيون الأنباء فى طبقات الأطباء** ، مرجع سابق ، ص ٤١٥ ، ص ٤١٦ .

(٨١) **نفس المرجع** ، ص ٣٠١ .

(٨٢) ابن جبير : **رحلة ابن جبير** ، تحقيق حسين نصار ، مكتبة مصر ، ١٩٥٥ ، ص ٢٠ ، ص ٢١ .

(٨٣) عبد الهادى التازى : « المنشآت الصحية بالمغرب عبر التاريخ ، بمناسبة السنة الدولية للمعاقين » ، **مجلة مجمع اللغة العربية الأردنى** ، العدد المزدوج ١٣ ، ١٤ ، السنة الرابعة ، ١٩٨١ ، ص ٦٩ ، ص ٧٠ .

(٨٤) محمد عبد الرحيم غنيمـــة : **مقدمة لتـــاريخ التعليم الجامعى فى الاسلام** ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، ١٩٥٣ ، ص ٦٥ — ص ٧١ ، أحمـــد عيسى بك : **تاريخ البيمارستانات فى الاســـلام** ، مرجع سابق ، ص ٣ ، ص ٤ .

(٨٥) قارن ذلك الجو التعليمى المناسب بمشاكل التعليم الطبى فى سورية ومصر على سبيل المثال : د. كنمان وصفى الجابى : « نظرة الى مشاكل التعليم الطبى فى سورية » فى **مهرجان أسبوع العلم الرابع :** المجلس الأعلى للعلوم ، الجمهورية العربية السورية ، ١٩٦٣ ، ص ٢٤ — ص ٣٤ .

(٨٦) ابن أصيبعة : **عيون الأنباء فى طبقات الأطباء** ، مرجع سابق ، ص ٧٢٨ ، ص ٧٣١ .

(٨٧) **نفس المرجع** ، ص ٧٣٢ ، ص ٦٩٧ .

(٨٨) **نفس المرجع** ، ص ٦٢٨ .

(٨٩) محمد ماهر حمادة : **المكتبات فى الاسلام نشأتها وتطورها ومصائرها** ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٧٨ ، ص ١٤٤ — ص ١٤٦ .

(٩٠) ابن اصيبعة : **عيون الأنباء فى طبقات الأطباء** ، مرجع سابق ، ص ٢٤٣ .

(٩١) **نفس المرجع** ، ص ٦٩٨ .

(٩٢) **نفس المرجع** ، ص ٧٣٢ ، ص ٧٣٣ .

(٩٣) ظهير الدين البيهقى : **تاريخ حكماء الاسلام** ، مرجع سابق ، ص ٦٢ .

(٩٤) ابن أصيبعة : **عيون الأنباء فى طبقات الأطباء** ، مرجع سابق ، ص ٤١٦ ، ٤٦٢ ، ٦٣٦ ، ٦٤٧ ، ٦٦٢ ، ٧٠٠ ، ٧٤٠ ، وغيرها .

(٩٥) محمد ماهر حمادة : **المكتبات فى الاسلام نشأتها وتطورها ومصائرها** ، مرجع سابق ، ص ٨٢ ، ثم انظر تفصيل ذلك ص ٨٢ — ص ١٤٧ .

(٩٦) نقلا عن : ملكة ابيض : **التربية والثقافة العربية الاسلامية فى الشام والجزيرة خلال القرون الثلاثة الأولى للهجرة** ، مرجع سابق ، ص ١٠٦ .

(٩٧) ابن جلجل : **طبقات الأطباء والحكماء** ، المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية ، القاهرة ، ١٩٥٥ ، ص ٦١ .

(٩٨) محمد جواد رضا : **الفكر التربوى الاسلامى مقدمة فى أصوله الاجتماعية والعقلانية** ، مرجع سابق ، ص ٢٩ .

(٩٩) **نفس المرجع** والمكان .

(١٠٠) Hans Nicholas: **Comparative Education, Astudy of Educational Factors and Traditions**, Routledge & Kegan paul, London, 1958, P. 101.

(١٠١) Mehdi Nakosteen: **History of Islamic origns** of **westernEducation**: University of Colorado Press, Colorado, 1964, PP. 65 – 74.

(١٠٢) ابن اصيبعة : **عيون الأنباء فى طبقات الأطباء** ، مرجع سابق ، ص ٢٦٢ .

(١٠٣) **نفس المرجع** ، ص ٢٦٠ ، ص ٢٧٠ ، ص ٢٧١ .

(١٠٤) **نفس المرجع** ، ص ٥٦٨ .

(١٠٥) **نفس المرجع** ، ص ٧٢٥ .

(١٠٦) Khurshid, A. et-al : **Fact Sheets on Libraries in Islamic Countries**, University of Karachi, 1974.

(١٠٧) احمد شلبى : **التربية الاسلامية نظمها ، فلسفتها ، تاريخها** ، مرجع سابق ، ص ١٤٧ ، ص ١٨٠ .

(١٠٨) ابن أصيبعة : **عيون الأنباء فى طبقات الأطباء** ، مرجع سابق ، ص ٩٨ .

(١٠٩) **نفس المرجع** ، ص ١١٠ .

(١١٠) ظهير الدين البيهقى : **تاريخ حكماء الاسلام** ، مرجع سابق ، ص ٥٣ .

(١١١) ابن أصيبعة : **عيون الأنباء فى طبقات الأطباء** ، مرجع سابق ، ص ٢٨٩ .

(١١٢) Seyyed Hossein Nasr: **Science and Civilization In Islam**, Op. Cit, PP. 41,42.

(١١٣) ابن اصيبعة : **عيون الانباء فى طبقات الأطباء** ، مرجع سابق ، ص ٣٣٢ .

(١١٤) كمال السمرائى : « تعليم الطب فى العصور الاسلامية » فى **ابحاث واعمال المؤتمر العالمى الأول للطب الاسلامى** ، مرجع سابق ، ص ٣١٩ .

(١١٥) ابن اصيبعة : **عيون الانباء فى طبقات الأطباء** ، مرجع سابق ، ص ١٥٤ ، وراجع تفاصيل تلك المراحل السبع ، وكتب كل مرحلة من ص ١٥٤ — ص ١٥٧ .

(١١٦) **نفس المرجع** ، ص ١٥٧ ، ص ١٥٨ .

(١١٧) البير زكى اسكندر : « دراسة تحليلية لمؤلفات الرازى وابن سينا مع الاشارة الى اثر كل منهما فى تقدم البحوث الطبية » فى **ابحاث واعمال المؤتمر العالمى الأول عن الطب الاسلامى** ، مرجع سابق ، ص ٢٤٨ .

(١١٨) سلمان قطاية : « التعليم الطبى عند العرب » فى :

— The Arab Journal of Medicine, Vol. I, No. I, February, 1982, P. 94.

(١١٩) سلمان قطاية : **مخطوطات الطب والصيدلة فى المكتبات العامة بحلب** ، مرجع سابق ، ص ١٠٧ ، ص ١٠٨ ، ص ١١٩ — ص ١٢٢ .

(١٢٠) ابن سينا : **القانون** ، مؤسسة الحلبى وشركاه للنشر والتوزيع ، ١٢٩٤ هـ (ثلاثة مجلدات) ، مقدمة : **قاموس القانون فى الطب لابن سينا المشتمل على الاصطلاحات المستعملة فى الطب** : ادارة تاريخ الطب ، والتحقيق الطبى ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية بحيدر اباد الدكن ، الهند ، ١٩٦٧ . والواقع فان الباحث عندما يطالع هذا القاموس الذى يشتمل على الاصطلاحات الطبية التى استعملها ابن سينا فى كتابه القانون والتى غطت شتى المجالات يدرك عظمة هذا الطبيب ، الفارسى الاصل ، والذى اتقن العربية كل هذا الاتقان ، وكان قادرا على خدمتها كعالم فرد كل هذه الخدمة فى مجال تعريب الطب ووضع المصطلحات

العربية اللازمة لذلك . ثم يقارن الباحث بين هذا الجهد الفردى ولجوء معظم أساتذة الطب عندنا الى اللغات الأجنبية كلغة للتعليم والتأليف فيدرك الفارق الكبير بين رجال ورجال .

(١٢١) الرازى : **الحــاوى** ، مطبعة دائرة المعــارف العثمانية ، بحيدر أباد الدكن ، الهند ، ١٩٥٥ م ، (١٢ مجلدا) .

(١٢٢) نور حسين شودرى : « فضائل الطب الاسلامى ، كيفيــة اكتسابها ، واعادة تنظيمها » من **أبحاث وأعمال المؤتمر العــالمى الأول عن الطب الاسلامى** ، مرجع سابق ، ص ١٢٨ ، ص ١٢٩ .

(١٢٣) سلمان قطاية : **مخطوطات الطب والصيدلة فى المكتبات العامة بحلب** ، مرجع سابق ، ص ١١٢ .

(١٢٤) أبو الحسن على بن ســهل الطبرى : **فردوس الحكمــة فى الطب** ، مطبعة افتــاب ، برلين ، ١٩٢٨ .

(١٢٥) ابن أصيبعة : **عيون الأنباء فى طبقات الأطباء** ، مرجع سابق ، ص ٢٧٥ ، ص ٢٧٨ ، ... الخ .

(١٢٦) **نفس المرجع** ، ص ٥٦١ .

(١٢٧) وبهامشه أيضا : **« دفع المضار الكلية عن الأبدان الانسانية بتدارك أنواع خطأ التدبير »** : لابن سينا ، المطبعة الخيرية ، القــاهرة ، ١٣٠٥ هـ .

(١٢٨) ابن البيطار : **الجامع لمفردات الأدوية والأغــذية** ، مكتبــة المثنى ، بغــداد ، ١٢٩١ هـ .

— على بن عيسى الكحال : **تذكرة الكحالين** ، مطبعة دائرة المعــارف العثمانية ، بحيدر أباد الدكن ، الهند ، ١٩٦٤ م .

— حنين بن أسحاق : **العشر مقالات فى العين** ، المطبعــة الأميرية ، القــاهرة ، ١٩٢٨ ، تقديم ماكس مايرهوف .

— أبو المنى بن أبى النصر العطار : **منهاج الدكان ودستور الأعيــان فى أعمال وتركيب الأدوية النافعة للأبدان** ، دار الطباعة الخديوية ، القــاهرة ، ١٢٨٧ هـ .

(١٢٩) ابن أصيبعة : **عيون الأنباء فى طبقات الأطباء** ، مرجع سابق ، ص ٥٥ ، ص ٥٦ ، ص ٤٢٣ ، ص ٤٥٧ ، ... الخ .

(١٣٠) نظامى العروضى السمرقندي : **جهار مقاله (المقالات الاربع)** ، مرجع سابق ، ص ٧٦ .

(١٣١) ابن اصيبعة : **عيون الأنباء فى طبقات الأطباء** ، مرجع سابق ، ص ٥٦٤ ، وانظر تفاصيل ذلك ص ٥٦٣ ، ص ٥٦٤ .

(١٣٢) ابن أصيبعة : **عيون الأنباء فى طبقات الأطباء** ، مرجع سابق ، ص ٥٦٤ ، وانظر تفاصيل ذلك ص ٥٦٣ .

(١٣٣) البير زكى اسكندر : « دراسة تحليلية لمؤلفات الرازى وابن سينا مع الاشارة الى تأثير كل منهما فى تقدم البحوث الطبية » من **ابحاث واعمال المؤتمر العالمى الأول عن الطب الاسلامى** ، مرجع سابق ، ص ٢٤٣ .

(١٣٤) **نفس المرجع** ، ص ٢٤٦ ، ص ٢٤٧ .

(١٣٥) الفارابى : **احصاء العلوم** ، مرجع سابق ، ص ١٢٦ .

(١٣٦) البير زكى اسكندر : « دراسة تحليلية لمؤلفات الرازى وابن سينا مع الاشارة الى اثر كل منهما فى تقدم البحوث الطبية » من **ابحاث واعمال المؤتمر العالمى الأول عن الطب الاسلامى** ، مرجع سابق ، ص ٢٤٦ .

(١٣٧) ابن اصيبعة : **عيون الأنباء فى طبقات الأطباء** ، مرجع سابق ، ص ٢٧٧ ، ٤١٦ ، ٤٣٨ ، ٤٦٢ ، ٥٣٧ ، ٦١٤ ، ٦٩٧ ، ٧٣١ وغيرها .

(١٣٨) **نفس المرجع** ، ص ٦٩٨ .

(١٣٩) **نفس المرجع** ، ص ٥٦٥ .

(١٤٠) سلمان قطاية : **مخطوطات الطب والصيدلة فى المكتبات العامة بحلب** ، مرجع سابق ، ص ٢٦ — ٢٧ .

(١٤١) ابن اصيبعة : **عيون الأنباء فى طبقات الأطباء** ، مرجع سابق ، ص ٦٩٧ .

(١٤٢) **نفس المرجع** ، ص ٤١٦ .

(١٤٣) **نفس المرجع** ، ص ٦٢٨ .

(١٤٤) كمال السمرائى : « تعليم الطب فى العصور الاسلامية » من **ابحاث واعمال المؤتمر العالمى الأول عن الطب الاسلامى** ، مرجع سابق ، ص ٣١٨ ، ص ٣١٩ .

(١٤٥) أحمد عيسى بك : **آلات الطب والجراحة والكحالة عند العرب** ، مطبعة مصر ، بدون تاريخ ، ص ٥ .

(١٤٦) **نفس المرجع** ، أبو الحسن المختار بن بطلان : « **دعوة الأطباء على مذهب كليلة ودمنة** » ، مرجع سابق ، ص ٣٦ — ٣٨ .

(١٤٧) ظهير الدين البيهقى : **تاريخ حكماء الاسلام** ، مرجع سابق ، ص ١٦٩ ، ص ١٧٠ .

(١٤٨) ابن أصيبعة : **عيون الأنباء فى طبقات الأطباء** ، مرجع سابق ، ص ٥٦٧ ، ص ٥٦٨ .

(١٤٩) **نفس المرجع** ، ص ٦٥٥ .

(١٥٠) **نفس المرجع** ، ص ٥٦٢ .

(١٥١) عن القراءة على يد أستاذ ، **نفس المرجع** ، الصفحات : ٢٧٧ ، ٣٢٥ ، ٣٤٣ ، ٣٥٣ ، ٤٠٢ ، ٥٧٦ ، ٥٨٠ ، ٦١٠ وغيرها .

(١٥٢) ظهير الدين البيهقى : **تاريخ حكماء الاسلام** ، مرجع سابق ، ص ٦٤ .

(١٥٣) **نفس المرجع** ، ص ٥٤٣ ، ابن أصيبعة : **عيون الأنباء فى طبقات الأطباء** ، مرجع سابق ، ص ٤٣٨ .

(١٥٤) ابن أصيبعة : **نفس المرجع** ، ص ٤٠٢ .

(١٥٥) **نفس المرجع** ، ص ٥٧٦ .

(١٥٦) **نفس المرجع** ، ص ٥٩٩ .

(١٥٧) الباحث : **فلسفة التربية عند ابن سـينا** ، مرجع سابق ، ص ١٥٩ .

(١٥٨) ابن أصيبعة : **عيون الانباء فى طبقات الأطباء** ، مرجع سابق ، الصفحات : ٤٠٢ ، ٤٧٩ ، ٤٨١ ، ٦١٣ ، ٦٣٧ ، ٦٥٦ وغيرها .

(١٥٩) **نفس المرجع** ، ص ٣٢٥ .

(١٦٠) **نفس المرجع** ، ص ٣٧٥ .

(١٦١) A.S. Tritton, Materials of Muslim Education In the Middle Ages, Op. Cit, P; 32.

(١٦٢) برهان الاسلام الزرنوجى : **كتاب تعليم المتعلم طريق التعلم** ، مرجع سابق ، ص ١٠٣ ، ص ١٠٤ .

(١٦٣) ظهير الدين البيهقى : **تاريخ حكماء الاسلام** ، مرجع سابق ، ص ٨٠ .

(١٦٤) ابن أصيبعة : **عيون الانباء فى طبقات لاطباء** ، مرجع سابق ، ص ٦٩٨ .

(١٦٥) **نفس المرجع** ، ص ٦٩٧ .

(١٦٦) **نفس المرجع** ، ص ٤٦٢ .

(١٦٧) طاش كبرى زادة : **مفتاح السـعادة ومصباح السـيادة فى موضوعات العلوم** ، مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٣١ .

(١٦٨) ابن أصيبعة : **عيون الانباء فى طبقات الأطباء** ، مرجع سابق ، ص ٥٦٣ .

(١٦٩) **نفس المرجع** ، ص ٤٦٠ .

(١٧٠) **نفس المجع** ، ص ٣٢٥ ، ص ٣٢٦ .

(١٧١) **نفس المرجع** ، ص ٦١١ .

(١٧٢) Ziauddin Sardar : Science Technology and Development In The Muslim World, Croom Helm, London, 1977, PP. 147 – 148.

(١٧٣) A.L. Tibawi : **Arabic And Islamic Themes, Historical, Educational And Literary studies**, op. cit, p. 182.

(١٧٤) برهان الاسلام الزرنوجى : **كتاب تعليم المتعلم طريق التعلم** ، مرجع سابق ، ص ١١٤ ، ص ١١٥ .

(١٧٥) ابن اصيبعة : **عيون الأنباء فى طبقات الأطبـاء** ، مرجـع سابق ، ص ٦١١ .

(١٧٦) **نفس المرجع** ، ص ٦٣٥ .

(١٧٧) **نفس المرجع** ، ص ٦٣٦ .

(١٧٨) **نفس المرجع** ، ص ٤١٢ .

(١٧٩) نور حسين شودرى : « فضائل الطب الإسلامى كيفية اكتسابها واعادة تنظيمها » من **ابحاث وأعمال المؤتمر العالمى الأول عن الطب الاسلامى** مرجع سابق ، ص ١٣٣ .

(١٨٠) ابن جبير : **رحلة ابن جبير** ، مرجع سابق ، ص ١٠ .

(١٨١) انظر مثلا ما كتبه المستشرقان :

A.S. Tritton : **Materials of Muslim Education In the Middle Ages**, Op. Cit, P. 51 & R. Dodge : **Muslim Education In the Medieval Times**, Op. Cit, PP. 10,11.

(١٨٢) الباحث : **فلسفة التربية عند ابن سـينا** ، مرجع سابق ، ص ١٤٩ . ولقد كان الباحث يريد اعادة النظر فى تلك الرسالة قبل نشرها ، ولكن الظروف لم تمكنه من ذلك ، فاكتفى بالاشارة فى مقدمة الطبع انها تحتاج الى اعادة النظر فى الكثير من مواضعها ، وضرب أمثلة على ذلك . فلتراجع مقدمة النشر .

(١٨٣) محمد عماد الدين فضلى : « الحاوى والقانون فى ضوء نظريات التعليم الطبى الحديثة » من **اعمال وبحوث المؤتمر العالمى الثانى عن الطب الإسلامى** ، مرجع سابق ، ص ٨٤٩ ، ص ٨٥٠ .

(١٨٤) الزرنوجى : **تعليم المتعلم طريق التعـلم** ، مرجع سابق ، ص ١٠١ ، ص ١٠٢ .

(١٨٥) طاش كبرى زادة : **مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم** ، مرجع سابق ، ص ٣٢ .

(١٨٦) Ziauddin Sardar: Science, Technology and Development In the Huslim World, Op. Cit., PP. 161,162.

(١٨٧) عصمة عبد الله غوشة : **الشعر التعليمي في القرون الأربعة الأولى** ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٠ ، ص ١ — ص ٣٩ .

(١٨٨) محمد عماد الدين فضلي : « الحاوي والقانون في ضوء نظريات التعليم الطبي الحديثة » من **اعمال وبحوث المؤتمر العالمي الثاني عن الطب الاسلامي** ، مرجع سابق ، ص ٨٤٩ .

(١٨٩) ابن أصيبعة : **عيون الأنباء في طبقات الأطباء** ، مرجع سابق ، ص ٣٩٠ ، ص ٣٩١ .

(١٩٠) **نفس المرجع** ، ص ٤٩٠ .

(١٩١) **نفس المرجع** ، ص ٧٠٣ .

(١٩٢) **نفس المرجع** ، ص ٧٠ ، ص ٧١ .

(١٩٣) ظهير الدين البيهقي : **تاريخ حكماء الاسلام** ، مرجع سابق ، ص ٥٤ — ص ٥٦ .

(١٩٤) ابن أصيبعة : **عيون الأنباء في طبقات الأطباء** ، مرجع سابق ، ص ٥٦١ .

(١٩٥) ابن سينا : السياسة ، **مرجع سابق** ، ص ١٠٧٦ .

(١٩٦) ابن أصيبعة : **عيون الأنباء في طبقات الأطباء** ، مرجع سابق ، ص ٥٦١ .

(١٩٧) ابن جلجل : **طبقات الأطباء والحكماء** ، مرجع سابق ، مقدمة الناشر .

(١٩٨) ابن أصيبعة : **عيون الأنباء في طبقات الأطباء** ، مرجع سابق ، ص ٧٤٠ .

(١٩٩) **نفس المرجع** ، ص ٣٣٢ .

(٢٠٠) **نفس المرجع** ، الصفحات : ٥٦٢ ، ٥٦٧ ، ٦١٠ ، ٦٢٨ ، ٦٥٥ ، ٧٢٥ وغيرها من الصفحات .

(٢٠١) كمال السامرائى : « تعليم الطب فى العصــــور الاسلامية » **من أبحاث وأعمال المؤتمر العالمى الأول عن الطب الاسلامى** ، مرجع سابق ، ص ٣٢٢ .

(٢٠٢) ابن صبيعة : **عيون الأنباءَ فى طبقات الأطباء** ، مرجع سابق ، ص ٣٠ .

(٢٠٣) **نفس المرجع** ، ص ٣٠٢ .

(٢٠٤) كمال السامرائى : « تعليم الطب فى العصـــور الاسلامية » **من أبحاث وأعمال المؤتمر العالمى الأول عن الطب الاسلامى** ، مرجع سابق ، ص ٣٢٣ ، سلمان قطاية : « التعليم الطبى عند العرب » .

— **The Arab Journal of Medicine**, Vol, I, No. 1 February, 1982, P. 96.

(٢٠٥) ابن أصيبعة : **عيون الأنباء فى طبقات الأطباء** ، مرجع سابق ، ص ٢٢٤ .

(٢٠٦) **نفس المرجع** ، ص ٣٠٢ .

(٢٠٧) أحمد عيسى بك : **تاريخ البيمارستانات فى الاســلام** ، مرجع سابق ، ص ٥١ .

(٢٠٨) **نفس المرجع** ، ص ٢٥ .

(٢٠٩) **نفس المرجع** ، ص ٤٣ .

(٢١٠) برهان الاســـلام الزرنوجى : **تعليم المتعلم طريق التعلــم** ، مرجع سابق ، ص ٧٢ — ٧٤ ، طاش كبرى زادة : **مفتاح الســعادة ومصباح السيادة فى موضوعات العلوم** ، مرجع سابق ، جـ ١ ، ص ٢٠ .

(٢١١) ابن اصيبعة : **عيون الأنباء فى طبقات الأطباء** ، مرجع سابق ، الصفحات : ٣٢٦ ، ٤١١ ، ٤١٢ ، ٦١١ ، ٦٣٥ ، ٦٣٦ وغيرها من المواضع .

(٢١٢) **نفس المرجع** ، ص ٦٧٣ .

(٢١٣) **نفس المرجع** ، الصفحات : ٢٧٧ ، ٣٢٥ ، ٣٤٣ ،٤٠٢ ، ٥٧٦ ، ٥٩٩ ، ٦١٣ ، ٦٥٦ وغيرها .

(٢١٤) **نفس المرجع** ، ص ٣٢٤ .

(٢١٥) **نفس المرجع** ، ص ٣٥١ .

(٢١٦) **نفس المرجع** ، الصفحات : ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٤٩٣ ، ٤٩٨ وغيرها .

(٢١٧) **نفس المرجع** ، ص ٧٣٢ .

(٢١٨) **نفس المرجع** ، الصفحات : ٤١٦ ، ٤٣٨ ، ٤٦٢ ، ٥٣٧ ، ٦١٤ ، ٦٩٨ ، ٧٣١ و ... الخ .

(٢١٩) **نفس المرجع** ، ص ٣٥٣ .

(٢٢٠) **نفس المرجع** ، ص ٥٨٠ .

(٢٢١) راجع واجبات الأستاذ الجامعي الطبيب فى : عز الدين شكارة ، « نظرات فى تفرغ أساتذة الطب » **أسبوع العلم الثانى عشر** ، المجلس الأعلى للعلوم ، الجمهورية العربية السورية ، دمشق ، ١٩٧١ ، ص ٨١ ، ص ٨٦ .

(٢٢٢) ابن أصيبعة : **عيون الأنباء فى طبقات الأطباء** ، مرجع سابق ، ص ١٨١ .

(٢٢٣) احمد شلبى : **التربية الاسلامية نظمها فلسفتها تاريخها** ، مرجع سابق ، ص ٣٣٣ .

(٢٢٤) **نفس المرجع** ، ص ٣٤٧ ، ص ٣٤٨ ، عبد الحى الكتانى : **نظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب الادارية** ، مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٤٥٣ — ص ٤٥٤ ، احمد شوكت الشطى : **الطب عند العرب** ، مرجع سابق ، ص ٥٦ — ص ٦٠ ، محمود الحاج قاسم محمد : **الموجز لما اضافه العرب فى الطب والعلوم المتعلقة به** ، مرجع سابق ، ص ١٢٩ ، ص ١٣٠ .

(٢٢٥) احمد شلبى : **التربية الاسلامية نظمها فلسفتها تاريخها** ، مرجع سابق ، ص ٣٤٨ .

(٢٢٦) عبد الستار أبو غدة : « فقه الطبيب وأدبه » من **ابحاث واعمال المؤتمر العالمى الأول عن الطب الاسلامى** ، مرجع سابق ، ص ٥٩٧ ، ص ٥٩٨ .

(٢٢٧) Mugannam : Arab women, London, 1937, P. 25.

نقلا عن احمد شلبى : **التربية الاسلامية نظمها فلسفتها تاريخها** ، مرجع سابق ، ص ٣٤٧ .

(٢٢٨) ابن اصيبعة : **عيون الأنباء فى طبقات الأطباء** ، مرجع سابق ، ص ٧ .

الفصل الرابع

صفات الطبيب وحقوقه وواجباته



ادرك المسلمون اهمية مهنة الطبيب فى حياة المجتمع ، ولذلك حرصوا على حسن اختياره واعداده التربوى والمهنى المناسبين ، كذلك حددوا له حقوقه وواجباته بصورة واضحة . وسنحاول هنا أن نرسم صورة موجزة للطبيب المسلم : صفاته ، وحقوقه ، وواجباته ، كما رآها المسلمون .

أولا — صفات الطبيب :

(أ) الصفات الجسمية أو الطبيعية

لقد بلغ اهتمام المسلمين بحسن اختيار الطبيب وانتقائه أن تحدثوا عن الصفات الحسية والطبيعية التى ينبغى أن تتوافر فيه ، أو على الأقل انتى يفضلون توافرها فيه . فنجد الحكيم أبا الخير الحسن يقول فى كتابه « امتحان الأطباء » : « انه يجب ان يكون الطبيب حسن القد ، صحيح الأعضاء ، متناسبة تقاديرها ، حسنة فى شكلها ، قوية فى وضعها ، معتدل المزاج ، ناعم الكف ، وأن تكون الفرج بين اصابعه واسعة ، ولونه مائلا الى البياض ، مشرب الحمرة ، معتدل الشعر فى الكثرة والقلة والبساطة والجعودة ، أشهل العينين ، يخالط نظره دائما سرور وفرح ، وفيه بشاشة وطلاقة ، فأما فى نفسه فأن يكون ذكيا ذكورا ، حية التصور قوى الحدس والتخمين ، صبورا على التعب والنصب فى درك الحق من الأمور ، كتوما متحملا ما يسمعه من المرضى ، وهذه الأوصاف موجودة فى الأعز بهاء الدين ، ونجيب الدين أبى بكر أبقاهما الله تعالى » (١) . فالحكيم أبو الخير لا يكتفى بذكر صفات الطبيب المعنوية والعقلية ولكن يفضل ان يكون الطبيب أيضا حسن الصورة ، باشا ، صحيح البنية ، ثم يذكر لنا المثل الحى فى عصره وهما الدكتور الأعز بهاء الدين ، والدكتور نجيب الدين أبى بكر ، وكيف أنهما جمعا الصفات الجسمية والطبيعية والعقلية والمعنوية . ويطيل ابن اصيبعة أيضا فى وصفه لاسقليبوس ، وما كان عليه من عفة ووقار ، ونشاط وهمة ، اذا تأملته « وجدته قائما متشمرا مجموع الثياب ، ترى الأعضاء منه التى يستحى من كشفها مستورة والأعضاء التى يحتاج الى استعمال الصناعة بها معراة مكشوفة ، حاد

النظر ، كثير السهر ، فى غاية الذكاء يمكنه تشخيص المرض الحاضر ، وان ينذر بما شانه ان يحدث » (٢) ، من مضاعفات ويجمع لنا ابن رضوان صفات الطبيب كما يراها ، فلا يتناسى تلك الصفات الجسمية والطبيعية ، ويرى ان الطبيب ينبغى ان تجتمع فيه سبع خصال :

الأولى : ان يكون تام الخلق ، صحيح الأعضاء ، حسن الذكاء ، جيد الرؤية ، عاقلا ، ذكورا ، خير الطبع .

الثانية : ان يكون حسن الملبس ، طيب الرائحة ، نظيف البدن والثياب .

الثالثة : ان يكون كتوما لأسرار المرضى لا يبوح بشىء من أمراضهم .

الرابعة : ان تكون رغبته فى ابراء المرضى اكثر من رغبته فيما يلتمسه من اجرة ، ورغبته فى علاج الفقراء اكثر من رغبته فى علاج الأغنياء .

الخامسة : ان يكون حريصا على التعليم والمبالغة فى منافع الناس .

السادسة : ان يكون سليم القلب ، عفيف النظر ، صادق اللهجة ، لا يخطر بباله شىء من أمور النساء ، والأموال التى شاهدها فى منازل الأعلاء فضلا عن ان يتعرض الى شىء منها .

السابعة : ان يكون مأمونا ثقة على الأمور والأموال ، لا يصف دواء قتالا ولا يعلمه ولا دواء يسقط ، يعالج عدوه بنية صادقة كما يعالج حبيبه .

والمعلم لصناعة الطب هو الذى اجتمعت فيه الخصال بعد استكماله صناعة الطب ، والمتعلم هو الذى فراسته تدل على انه ذو طبع خير ، ونفس ذكية ، وان يكون حريصا على التعليم ، ذكيا ذكورا لما قد تعلمه (٣) . فابن رضوان يذكر لنا صفات الطبيب الممارس ، والطبيب المعلم ، والطبيب فى مرحلة الاعداد وطلب العلم . وبعد ان يذكر صفات الطبيب الممارس عموما ، يتوقف عند الطبيب المعلم الذى ينبغى ان يحوز صفات الطبيب الممارس ، بجوار استكماله لصناعة الطب ، واتقانه له نظريا وعمليا ،

وطالب الطب لابد أن يختار من بين هؤلاء الذين تبدو عليهم سمات الطبع الخير والنفس الزكية والحرص على التعلم . وهنا يبدو ابن رضوان مهتما بحسن اختيار ابناء المهنة : ممارسين واساتذة وطلابا . ولا شك أننا اذا احسنا اختيار طالب الطب ، واحسنا اعداد معلمه ، لارتقت المهنة علميا وادبيا واجتماعيا . وهذا ما حرص عليه الفكر التربوى الاسلامى فى اختيار الطبيب وتربيته واعداده .

(ب) الصفات العقلية والمهنية :

اذا تركنا الصفات الحسية أو الطبيعية الى الصفات العقلية والمهنية لاحظنا الحرص الشديد على أن يكون الطبيب منصرفا الى متابعة نموه العلمى والمهنى باستمرار ، وذلك بالمواظبة على قراءة الكتب ، والانتفاع بتجارب الآخرين ، وعدم الاعتماد على التجربة والخطأ فى التشخيص والعلاج ، والتفرغ الكامل للمهنة وعدم الاشتغال بسواها . لذلك نجد أن الرازى يرى أن الانسان يجب أن يتأكد من حسن سير وسوابق الطبيب الذى يعهد اليه بصحته وصحة اقاربه التى هى أعز شىء فى الدنيا ، وذلك بأن يتجنب الطبيب الذى يقطع وقته بين الملاهى والملذات ويشتغل كثيرا بالفنون الأجنبية عن مهنته ويشرب الخمر ويتمادى فى الشهوات . وبخلاف ما ذكر يجب ايضا على المرء ان يثق بمن أتم دروس الطب اتماما وافيا ، وشاهد كثيرا من المستشفيات وعاشر كثيرا من الأطباء الماهرين ، وعالج عددا وافرا من المرضى ، وأن يثق بالطبيب الواسع الاطلاع على كتب أعاظم المؤلفين الذى يضم تجارب الآخرين الى مباحثه وملحوظاته الشخصية لأنه يستحيل على الانسان أن يقوى على رؤية كافة الأشياء واختبارها بنفسه (٤) . وعلى بن العباس المجوسى يرى أن الطبيب الناجح ينبغى الا يكون تشاغله الا بقراءة الكتب ، والحرص على النظر فيها ، أعنى كتب الطب ، ولا يمل من ذلك ، ولا يضجر منه فى كل يوم ويلزم نفسه حفظ ما قد قرأه واستظهاره وتذكره اياه فى ذهابه ومجيئه ليحفظ جميع ما يحتاج اليه من علم وعمل . ويروض ذهنه فيه حتى لا يحتاج فى كل وقت الى النظر فى كتاب فانه ربما نالت كتبه آفة فيكون رجوعه فيما يحتاجه الى حفظه حيث توجه ، وينبغى أن يكون حفظه لذلك فى حداثته وشبابه

فان الحفظ فى هـذا الوقت اسـهل منه فى وقت الشيخوخة ، اذ كانت الشيخوخة أم النسيان . ومما ينبغى لطالب هذه الصناعة أن يكون ملازما للبيمارستانات ، ومواضـع المرضى كثير المـداولة لأمورهم واحـوالهم من الأستاذين من الحذاق من الأطباء ، كثير التفقـد لأحوالهم والأعراض الظاهرة فيهم ، مستذكرا لما كان قد قرأ من تلك الأحوال وما يدل عليـه من الخير والشر ، فانه اذا فعل ذلك بلغ من هذه الصناعة مبلغا حسنا » (٥) فعلى بن العباس يريد من طالب الطب القراءة الواسعة ، والملاحظـة السريرية التى يطبق عليهـا ما يقرأ ، وملازمة حـذاق الأطبـاء ليستفيد من تجاربهم . وسنرى شعور الأطبـاء المسلمين « بأن العمر قصير ، والصناعة طويلة والزمان جديد » ومن هنا وجب أن يقضى الطبيب وقته فى الدراسة والاطـلاع حتى يستطيع أن يمارس مهنتـه بنجاح . ويجب أن يكون الطبيب « قد احكم الأصول وقرأ الفروع ، فانه من غـير هذين لا يصح له شىء ، ولا يهتدى لأمر من الأمور فى الصناعة فعليهما فاعتمد » (٦) . وسنلاحظ أيضا أن دائرة اطلاع الطبيب ينبغى الا تكون فى حدود التخصص الضيق بل ينبغى أن تشمل بجوار ذلك اطلاعا عاما General knowledge يعين على التبحر فى التخصص وادراك العلاقات الأخرى المتصلة مثـل دراسات عن الحشائش الطبية ، وعن تأثير البيئةعن الصحة والمناخ ، والأدوية ... الخ كان يعرف « منابت الحشائش والعقاقير ومواضـع المعادن وخواصها ، وقوى أعضاء سائر الحيوان وخواصـها ومضارها ومنافعها ، ويعرف سائر الأمراض والبلدان واختلاف أمزجة أهلها مع تفريق ديارهم ، ويعرف القوة التى تنتجها تركيب الأدوية ، وما يضاد قوة من قوى الأدوية ، وما يلائم مزاجا وما يضاده ، مع ما يتبع ذلك من سائر صناعة الطب » (٧) . فالذكاء والاطلاع والاستمرار فى التعلم والبحث ، صـفات عقليـة ينبغى أن يتحلى بهـا الطبيب الناجح . وقل أن يترجم ابن أصيبعة لطبيب فى طبقاته دون أن يذكر لنـا حظه من تلك الصـفات العقلية اللازمة لحسن اعداد الطبيب (٨) .

(ﺟ) الصفات الأخلاقية وشرف المهنة :

تحتل الأخلاق بصفة عامة مكانة مهمة فى تكوين شخصية المسلم مهما كانت مهنته أو وظيفته . ويكفى أن نذكر هنا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » . وقوله : « لا دين لمن لا خلق له » لندرك لماذا اهتمت ادبيات التربية الاسلامية بالعنصر الأخلاقى فى تكوين المسلم بحيث لا يخلو كتاب منها عن الحديث عن اخلاق الطالب ، والمعلم (٩) . ومن ثم فالطبيب المسلم انما يستمد اخلاقه من اخلاق هذا الدين . غير أن كتب الطب ركزت بجوار ذلك على بعض الجوانب المهمة فى حياة الطبيب اليومية كالرفق بالمرضى ، وحفظ اسرارهم ، وغض البصر عن عوراتهم ، وعدم الانحراف الجنسى ، أو تعاطى المسكرات ، وعدم التكبر او العجب بما احرزه الطبيب من نجاح ، يقول الرازى : « واعلم يا بنى انه ينبغى للطبيب ان يكون رفيقا بالناس حافظا لغيبهم ، كتوما لأسرارهم ، لاسيما اسرار مخدومه ، فانه ربما يكون ببعض الناس من المرض ما يكتمه من اخص الناس به مثل ابيه وامه وولده ، وانما يكتمونه خواصهم ويفشونه الى الطبيب ضرورة . واذا عالج من نسائه او جواريه او غلمانه احدا فيجب ان يحفظ طرفه ، ولا يجاوز موضع العلة » فقد قال الحكيم جالينوس فى وصيته للمتعلمين ، ولعمرى لقد صدق فيما قال : « على الطبيب أن يكون مخلصا لله ، وأن يغض طرفه عن النسوة ذوات الحسن والجمال ، وأن يتجنب لمس شىء من ابدانهن . اذا أراد علاجهن أن يقصد الموضع الذى فيه معنى علاجه ، ويترك اجالة عينيه الى سائر بدنها » . قال : « ورأيت من يتجنب ما ذكرت ، فكبر فى أعين الناس ، واجتمعت اليه أقاويل الخاصة والعامة . قال : ورأيت من تعاطى النساء فكثرت قالة الناس فيه ، فتجنبوه ورفضوه » (١٠) .

وليحذر الطبيب اذا اشتهر أن يتكبر على العامة أو يترفع عن معالجتهم يقول الرازى : « واعلم يا بنى أن من المتطببين من يتكبر على الناس لا سيما اذا اختصه ملك أو رئيس ، وقد قال الحكيم جالينوس : رأيت من المتطببين من اذا داخل الملوك فبسطوه تكبر على العامة وحرمهم العلاج ، وغلظ لهم القول ، وبسر فى وجوههم ، فذلك المحروم المنقوص

فدعا الحكيم الى اضداد هذه الخصال التى ذكرها وحث عليها » (١١) . ومهما نجح الطبيب فى عمله ووفق فى معالجاته فليتواضع ويحمد الله على ذلك حتى لا يأخذه العجب بنفســه فيصيبه الغرور والتكبر على زملائه ومرضاه . يقول الرازى : « ورايت من المتطببين من اذا عالج مريضـا شـديد المرض فبرأ على يديه ، دخله عند ذلك عجب وكان كلامه كلام الجبارين ، فاذا كان كذلك فلا كان ولا وفق ولا سـدد » (١٢) . وكلمـا تواضع الطبيب كلما ازداد علما ونجاحا فى عمله : يقول الرازى : « واعلم ان التواضع فى هذه الصناعة زينة وجمال (دون ضعة النفس)، لـكن يتواضع بحسن اللفظ وجيد الكلام ولينه ، ويترك الفظاظة والغلظة على الناس ، فمتى كان كذلك فهو المسدد والموفق » (١٣) . ثم يجتهد الطبيب فى التشخيص ووصف العلاج ويسأل الله التوفيق والسداد ، دون أن يظن انه وحـده بعلمه ومهارته سبب الشـفاء ، بل يتكل « فى علاجه على الله تعالى ، ويتوقع البرء منه ، ولا يحسب قوته وعمله ويعتمد فى كل اموره عليه . فاذا فعل بضد ذلك ونظر الى نفسه وقوته فى الصناعة وحذقه حرمه الله البرء » (١٤) . وينهى الرازى « أن يتناول الطبيب شـيئا من المسكرات ، حتى يكون عقله حاضرا معه ولا سيما وقت العلاج ، حتى لا يقع فى علاجه من الخطأ ما لا يمكن تداركه ، كذلك فقد يحتاج الى الطبيب فى وقت يكون فيه سكرانا فيسقط ذلك من هيبته » (١٥) . ويجمل بعض المعاصرين أهم تلك الصفات الأخلاقية التى يجب أن يكون عليها الطبيب المسلم فيما يلى :

١ — الذى لا يحتسى الخمر .

٢ — الذى لا يتعاطى المخدرات .

٣ — الذى يصون الأعراض فيغض بصره ويحفظ فرجه .

٤ — الذى يشهد بالصدق فى كل ما يطلب منه او يشهد به .

٥ — الذى لا يكسب الا مالا حلالا . والذى يخشى الله فيقول لمريضه الكلمة الصادقة والنصيحة الخالصة (١٦) .

ولقد بلغ من اهتمام المســلمين بهذا الجانب الأخـلاقى فى اعداد

الطبيب أنهم نصحوا الا يتعلم الطب أصلا الا ذو أخلاق حسنة ، وتدين قوى . وأن كثيرا من أساتذة الطب رفضوا أن يعلموا الطب الا لمن حاز هذه الصفات الحسنة (١٧) ، وكان الحكيم أبو القاسم يرى ان الطبيب ينبغى علية أن يعالج أخلاقه أولا حتى يصبح محبا للخير ، كارها للرذئل ثم بعد ذلك يمارس المهنة : « فالطبيب الحقيقى من عالج بالفضائل نفسه ورأى مضرته فى الرذائل ، ثم يهبط بعد ذلك الى معالجة الأجسام ، فمن لا يهبط من معالجة النفس الى معالجة الجسد فهو أسفل السافلين » (١٨).

ثانيـا — حقوق الطبيب وواجباته :

حقـوق الطبيب :

تمتع الطبيب بمنزلة اجتماعية عالية فى المجتمع الاسلامى مثل منزلة المعلم تماما ، فالمعلم يقدم للمجتمع العلم والمعرفة ، والطبيب يمده بالصحة والعافية ، وكلاهما من القيم الغالية التى حرص المجتمع الاسلامى عليهما ، وعلى أدات تحصيلهما ، يصور لنا ذلك قول الشاعر :

اكرم طبيبك ان اردت دواءه .·. وكذا المعلم ان اردت تعلمـا

ان المعـلم والطبيب كلاهما .·. لا ينصـحان اذا هما لم يكرما

فاصبر لدائك انجفوت طبيبه .·. واقنع بجهلك ان جفوت معلما (١٩)

ولذلك أوصى الرازى ان ينال الطبيب منزلة محترمة فى نفوس العامة والخاصة فيقول : « ينبغى لمن يختص المتطبب لنفسه من الملوك والأكابر والسوقة أن يبالغ فى تطبيب قلبه بلطيف الكلام ، وأن يرفعـه فوق جميع من فى مجلسـه من خدمه وغيرهم ، فان هم الا خدام جسـم والمتطبب خادم روح » ، واذا أكرم الناس الطبيب بذل أقصى ما لدية من علم وخبرة فى خدمتهم ، ذلك لأن « المخدوم اذا أحسن الى من يختصه لنفسـه من المتطببين جد ذلك المتطبب فى حفظ صحته ، ومداواة علته ، وقد صـدق لعمرى الحكيم ابقراط حيث قال : صانع الطبيب قبل أن تحتاج اليه ومما يضرب به المثل : عمله عمل من طب لمن أحب .. ولا شىء أجدى عـلى العليل من كون الطبيب مائلا اليه بقلبه ، محبا له » (٢٠) ويرى الرازى انه على « من استخدم الطبيب أن يقربه من نفسه ويكلمه كما يكلم أخص الناس به » ، والا يكتم عن الطبيب سرا يمكن أن يؤثر على علاجـه لأن

« الطبيب لا يهتدي الى علاجه اذا لم يفش اليه سره » (٢١) كذلك ينبغى أن يثق المريض بطبيبه ولا يتنقل من طبيب الى آخـر كما ذكر الرازى : « ينبغى للمريض أن يقتصر على واحد ممن يوثق به من الأطباء فخطؤه فى جنب صوابه يسير جدا « بعكس » من تطبب عند كثيرين من الأطباء يوشك أن يقع فى خطأ كل واحد منهم » (٢٢) . والطبيب يمكن أن يخطىء فى أثنـاء ادائه لعمله أخطاء طبية غير جسيمة وليست نتيجة جهل أو اهمال ، فهذه لا يحاسب عليها الطبيب أو يعاقب عليها . كذلك فمن حق الطبيب أن ينال أجره « من غير عقـد اجارة ، بل يعطيـه (المريض) أجرة المثل ، أو ما يرضيه » (٢٣) . ولقد نال الأطباء المسـلمون اجورا مناسبـة جعلتهم يعيشون فى مستوى معيشى مرتفع اذا قارناه بمستوى معيشة غيرهم من الطبقات المثقفة ، فضلا عن العامة (٢٤) ، مما كان سببا فى الاقبال على ممارسة تلك المهنة ، وعندما نقرأ تراجم الأطباء كما ذكرها ابن أصيبعة يتضح لنا أن بالفعل الأطباء المسلمين قد نالوا حقوقهم الادبية والمادية ، على صورة تقدير اجتماعى ، واجور وهدايا مجزية بحيث كانت مهنة الطب محترمة ، ومحبوبة ، ومرغوب فيها . (انظر الملحق رقم ١) .

واجبات الطبيب :

اذا كان الطبيب المسلم قد نال حقوقه الأدبية والمادية فقد كان ذلك تقديرا من المجتمع لدوره ، وما يبذله الطبيب من جهـد فى سـبيل اداء واجباته . ولقد كان من أول هذه الواجبات الا يتصدى للمهنة الا بعد أن يتقنها نظريا وعمليا ، والا تعرض للمسـئولية فى الدنيا ، والعذاب فى الآخرة ، لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من تطبب — ولم يعلم منه الطب قبل ذلك — فهو ضامن » (٢٥) . وكانت عقوبة من يتصـدى للطب بدون كفاءة عقوبة تتناسـب مع خطورة تلك الجريمة التى تعرض أرواح الناس للخطر ، وهى جريمة اخطر على المجتمـع من اللصوصـية وقطع الطرق . ذلك لأن « اللصـوص وقطاع الطريق ، خـير من أولئك النفر الذين يدعون الطب وليسوا باطباء ، لأنهم يذهبون بالمال وربما ابقوا على الأنفس وهؤلاء (المتطببين) كثيرا ما يأتون على الأنفس النفيسة »(٢٦) . ولقد تناول الفقهاء بأسـهاب المبادىء الشرعية التى تحكم عمل الطبيب

ومسئوليته ومتي يكون طبيبا حاذقا ؟ ومتى يقع تحت دائرة العقاب ، اذا اخطأ ؟ ومتى لا يقع .. الخ (٢٧) .

كذلك وضعت مواصفات دقيقة للطبيب الحاذق ، وكيف يمارس المهنة (انظر الملحق رقم ٤) وما ينبغى عليه من تدقيق تشخيص المريض وتتبع حالة المريض ، وتاريخه المرضى حتي يعلم « كل يوم كمية طعامه وكيفية طبعه فى قلته وكثرته ، وهشاشته لذلك أو كراهته ، فان من علم مطعم انسان ومشربه ونومه وسهره وفراغه وشغله وسائر أحواله من الباه وغير ذلك ، فما اقل مما يقع فى علاجه من الخطأ » (٢٨) كذلك عليه أن يعطى المريض الوقت الكافى للفحص الشامل وسماع حالته وشكواه ، وأن يقوم بالكشف الدورى على المريض فى الحالات التي تستدعى ذلك ، لأن من « العلل ما لا يمكن الاستغناء فيها عن الطبيب الحاضر المراقب ، لظهور العلامات الدالة على ما تحتاج الطبيعة الية من معاونته والمبادرة الى تدبير ما يحدث بالمريض ساعة فساعة » (٢٩) . وعلى الطبيب الا يقتصر بخدماته الطبية على الاغنياء وذوى الجاه بل يشمل بها الفقراء والمحتاجين وتحفل تراجم الأطباء لابن اصيبعة باســماء أطباء رفضوا أن يقصروا خدماتهم الطبية على الأمراء والسلاطين ، واصروا على ان يكونوا أطباء للعامة والخاصة فى نفس الوقت (٣٠) . كذلك ينبغى على الطبيب الا يستغل مهنته استغلالا ماديا جشعا كأن يوهم المرضى بعلل معينة ، أو يبالغ فى تقدير جهده ، أو يحتال لكسب اكبر قدر من المال ، « اذ لا ذنب أعظم من ظلم الناس وأخذ أموالهم بغير حق ، لاسيما من كان ضعيفا أو مسكينا ولا عقل له ولا أمر ولا نهى » (٣١) . والمريض عندما تشرف نفســه على الهلاك يكون بين يدى الطبيب ضعيفا مسكينا لا عقل لة ولا أمر ولا نهى ، فلا يجوز استغلاله فى تلك الحالات الصعبة .

لقد كان الطبيب المســلم يؤدى واجبه ، وهو يراقب الله فى حرفته لانه يؤمن بقول الله تعالى : « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورســوله والمؤمنون ، وســتردون الى عالم الغيب والشــهادة ، فينبئكم بما كنتم تعملون » (التوبة : آية ١٠٥) ونرى أن نختم هذا الجزء من الدراسة

بما سماه « ابراهيم الصياد » اسلاميات ممارسة المهنة ، او كيفية ممارسة الطبيب لواجبات المهنة والتى ذكر منها مايلى : (٣٢)

(أ) بدء الفحص او العلاج بذكر اسم الله فان ذلك له عدة اعتبارات :

- ادعى للتوفيق فى العمل فالرسول يقول « كل عمل ذى بال لم يبدأ فيه باسم الله فهو ابتر » .
- استشعار لدوره كسبب نفاذ ارادة الله فى العلاج وهذا هو موقف العبودية لله .
- توجيه عمله لله حتى يثاب عليه .
- منح المريض دفعة روحية وهو فى موقف حساس : « وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين » (الذاريات : ٥١ ، ٥٢) .

(ب) قد يشهد وفاة المريض وبصفته مسلما قبل ان يكون طبيبا فعليه أن يلقنه الشهادتين كما يقول : « لقنوا موتاكم لا اله الا الله » .

(ج) تجنب ما حرم الله فى العلاج تنفيذا لقول الرسول : « ما جعل الله شفاءكم فيما حرم عليكم » . وفى الطب الحديث لكل علاج محرم بديله الحلال .

(د) تجنب الممارسات التى نهى الاسلام عنها كالاجهاض والوشم .. الخ فقد قال الرسول : « لعن الله الواشمات والمستوشمات والواشرات والمستوشرات » .

(هـ) الا يقدم على ممارسة الا اذا كان مطمئنا الى كفايته لتنفيذها فالرسول يقول « لا حكيم الا ذو تجربة » ، ويحترم التخصص المهنى تنفيذا لقول الرسول : « من تطبب ولم يعلم عنه طب فهو ضامن » .

(و) أن يحافظ على كفاءته العلمية بالتعليم المستمر فان مهنته تتعداه الي غيره ، وعلمه من النوع التطبيقى والرسول يقول : « الحكمة ضالة المؤمن انى وجدها ينشدها » .

(ز) أن يتعامل مع زملائه الأطباء على أسس من تعاليم الاسـلام فيتجنب الغيبـة والتجريح واحترام الكبير : « لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله اخوانا » ولا يتعالى على الصغير : « ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويوقر كبيرنا » ويقدم النصح لمن يحتاجه « الدين النصيحة » ، وأن يسعى لتعليم زملائه الأقل خبرة « من دل على خير فله مثل اجر فاعله » ، « يأتيكم رجال من قبل المشرق يتعلمون ، فاذا جاؤكم فاستوصوا بهم خيرا » .

(ح) أن يفيد بعلمه كل مريض يمكن مسـاعدته فالرسـول يقول : « اللهم انى أعوذ بك من علم لا ينفع » ، « من كتم علمه عن أهله ألجـم يوم القيامة لجاما من نار » .

(ط) أن يذيع ما يكشفه من جديد فى العلاج تعميما للفائدة ولا يحتكر طريقة فى العلاج يقصد الكسب منها فالرسـول يقول : « لا يحتكر الا خاطىء » .

(ى) أن يراعى حرمة الميت كما يراعى حرمة الحى ، فالرسـول يخاطب الكعبة قائلا : « والمؤمن أعظم حرمة عند الله منك » ، ويقول : « كسر عظم الميت ككسر عظم الحى فى الاثم » .

مراجع الفصل الرابع ومصادره

(١) ظهير الدين البيهقي : ((**تاريخ حكماء الاسلام**)) ، مرجع سابق ، ص ١٥٨ ، ص ١٥٩ .

(٢) ابن أصيبعة : **عين الأنباء فى طبقات الأطباء** ، مرجع سـابق ، ص ٣٤ — ص ٣٧ .

(٣) **نفس المرجع** ، ص ٥٦٥ .

(٤) محمود صدقي : **رسالة عن الطب فى أيام العرب وقوانين الصحة عند المسلمين** ، مرجع سابق ، ص ٤٠ ، ص ٤١ .

(٥) على بن العباس المجوسي : **كامل الصناعة الطبية** — مطبعة بولاق ، القاهرة ، ١٢٩٤ هـ ، ج ١ ، ص ٨ و ص ٩ .

(٦) الرازى : **اخلاق الطبيب** ، مرجع سابق ، ص ٧٦ ، ص ٧٨ .

(٧) ابن أصيبعة : **عيون الأنباء فى طبقات الأطباء** ، مرجع سابق ، ص ١٤ .

(٨) **نفس المرجع** ، الصفحات ٢٧٧ ، ٣٢٥ ، ٣٤٣ ، ٥٨٠ ، ٦٠١ ، ٦٦٢ ، ٧٢٥ ... الخ .

(٩) راجع مثلا : **احياء علوم الدين** للغزالى ، **وتعليم المتعلم طريقة التعلم** للزرنوجي ، **ومفتاح السعادة ومصباح السيادة** لطاش كبرى زاده ، وغيرها من المراجع التى سبق ذكرها .

(١٠) الرازى : **اخلاق الطبيب** ، مرجع سابق ، ص ٢٧ ، ص ٣١ .

(١١) **نفس المرجع** ، ص ٣٥ ، ص ٣٧ .

(١٢) **نفس المرجع** ، ص ٣٨ .

(١٣) **نفس المرجع** ، ص ٨٤ ، ص ٨٥ .

(١٤) **نفس المرجع** ، ص ٣٨ ، ص ٣٩ .

(١٥) **نفس المرجع** ، ص ٦٥ ، ص ٦٦ .

(١٦) محمود احمد نجيب : **الطب الاسلامى شفاء بالهدى القرآنى** ، مرجع سابق ، ص ٧٣ .

(١٧) ابن أصيبعة : **عيون الانباء فى طبقات الأطباء** ، مرجع سابق ، ص ٦٧٣ .

(١٨) ظهير الدين البيهقى : **تاريخ حكماء الاسلام** ، مرجع سابق ، ص ١١٦ .

(١٩) برهان الاسلام الزرنوجى : **تعليم المتعلم طريق التعلم** ، مرجع سابق ، ص ٨٢ .

(٢٠) الرازى : **اخلاق الطبيب** ، مرجع سابق ، ص ٣١ — ص ٣٥ .

(٢١) **نفس المرجع** ، ص ٤٧ ، ص ٦٨ .

(٢٢) بن اصيبعة : **عيون الأطباء فى طبقات الأطباء** ، مرجع سابق ، ص ٤٢١ .

(٢٣) ابن قيم الجوزية : **الطب النبوى** ، مرجع سابق ، ص ٤٨ .

(٢٤) فرات فائق خطاب : **الكحالة عند العرب** ، منشورات وزارة الاعلام ، الجمهورية العراقية ، ١٩٧٥ ، ص ١٦ ، رحمة الله مليحسة ، **الحالة الاجتماعية فى العراق فى القرنين الثالث والرابع بعد الهجـــرة** ، مطبعة الزهراء ، بغداد ، ١٩٧٠ ، ص ٧٥ .

(٢٥) ابن قيم الجوزية : **الطب النبوى** ، مرجع سابق ، ص ١٠٧ .

(٢٦) الرازى : **اخلاق الطبيب** ، مرجع سابق ، ص ٨١ .

(٢٧) محمد فؤاد توفيق : المسئولية القانونية فى الشريعة الاسلامية **من ابحاث واعمال المؤتمر العالمى الأول عن الطب الاســـلامى** ، مرجع سابق ، ص ٥٤٤ — ص ٥٤٩ ، عبد الستار ابو غدة : « المبادىء الشرعية للتطبيب والعلاج » **من ابحاث واعمال المؤتمـــر العالمى الثانى عن الطب الاسلامى** ، مرجع سابق ، ص ٥٩٠ — ص ٦٠٢ .

(٢٨) الرازى : **اخلاق الطبيب** ، مرجع سابق ، ص ٤١ .

(٢٩) ظهير الدين البيهقى : **تاريخ حكماء الاسلام** ، مرجع سابق ، ص ١٧٠ .

(٣٠) ابن اصيبعة : **عيون الأنباء فى طبقات الأطباء** ، مرجع سابق ، ص ٤٧ ، ٤٨ ، ١٢٩ ، ٦٩٦ ، ٦٩٩ وغيرها .

(٣١) ابن أبى نصر العطار : **كتاب منهاج الدكان ودستور الأعيان فى أعمال وتركيب الأدوية النافعة للأبدان** ، مرجع سابق ، ص ٥ .

(٣٢) ابراهيم الصياد : « نظرة الاســـــلام للطب » **ابحاث وأعمال المؤتمر العالمى الأول عن الطب الاســـــلامى** ، مرجع سابق ، ص ٦٤ ، ص ٦٥ .

خاتمة البحث : أو دروس مستفادة

حاولنا فى الصفحات السابقة أن نعرض للاعداد التربوى والمهنى للطبيب ، هذا الاعداد الذى نرى أنه كان من وراء تلك النهضة الطبية التى حققها المسلمون فى فترة قصيرة من الزمان . ومن خلال الفصل الأول رأينا أننا لا نستطيع أن نفهم ازدهار الطب الاسلامى الا اذا عرضنا لتعاليم الاسلام التى تحث على طلب العلم بصفة عامة ، والتعليم الطبى بصفة خاصة . ان الأمة العربية ما كان لها أن تنتقل من البداوة الحضارية الى هذا الازدهار العلمى والتعليمى فى شتى المجالات ، دون تلك الدفعة الهائلة التى جاءت بها تعاليم الاسلام ، ولقد كان نصيب التعليم الطبى من تلك التعاليم نصيبا كافيا لازدهار الطب الوقائى ، والطب العلاجى معـا ، والانتقال بسرعة من مرحلة الترجمة والاقتباس الى مرحلة الأصالة والتأليف والابداع ، ولعل هذا يوضح لنا قوة استخدام الدافع الدينى العقائدى فى بناء الحضارات . لقد كان الدافع الاسلامى قويا وهائلا بحيث استطاع أن يدفع المسلمين الى شتى ميادين العلم والمعرفة ومنها الطب ، اذ وجـد المسلمون أن كل المعارف تزيدهم قربا الى الله ، وفهما لآياته ومعرفة به . ولذلك فعندما كان أبو الحسن الانبارى الحكيم يدرس بعض الأشـكال الهندسية من كتاب المجسطى وسأله بعض الفقهاء يوما ما تدرس ؟ رد بكل ثقة واطمئنان « أفسر آية من كتاب الله تعالى . فقال الفقيـه : وما تلك الآية ؟ فقال الانبارى : قول الله تعالى : « أولم يروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها » فأنا أفسر كيفية بنائها » (١) . والواقع أن العلماء المسلمين قد اتخذوا من القرآن وتعاليمه نقطة انطلاق لهم لارتياد شتى ميادين العلوم والمعارف وكانوا يرون أن آيات القرآن تحثهم على ذلك . (انظر الملحق رقم ٣) ولقد كان ثمرة هذا الربط المحكم بين « القرآن » والعلم ، ومنه الطب أن نمت العلوم الاسـلامية فى ظلال الايمان ، فلم تعرف الالحاد ، وفساد الأخلاق ، واسـتغلال العلم من اجل تدمير الانسـان والطبيعة واشباع الشهوات الشخصية والقومية (٢) .

ثانيا : ان التعليم المتخصص — ومنه التعليم الطبى لا يتم الا بعد ان ينال الطفل المسلم الجرعة الثقافية الاسلامية الكافية لتشكيل شخصيته الاسلامية . ويمثل « التعليم الابتدائى » الاسلامى مرحلة كافية لاتمام هذه العملية التربوية الهامة : « عملية التطبيع الاسلامى » . ولقد كان المسلمون على مر العصور ، وعلى اختلاف اقاليمهم يركزون على اهمية تلك المرحلة. وكان ثمرة ذلك انتاج اجيال مسلمة من المثقفين ، وعلى اختلاف تخصصاتهم فيما بعد — تجمعهم ثقافة واحدة ، هى الثقافة الاسلامية ، وتوحدهم قيم واحدة ، هى القيم الاسلامية . ومن هنا لم يعان المثقفون المسلمون على اختلاف تخصصاتهم الشعور « بالغربة الثقافية » وانعزالهم عن العامة كما يشعر المثقفون المعاصرون ، كذلك لم يعان المثقفون من أى نوع من انواع الازدواج الثقافى بين المتخصصين فى علوم الدين ، والمتخصصين فى علوم الدنيا كما نعانى اليوم فى ظل غياب عملية التطبيع الاسلامى الشامل (٣) ، بل أن المثقف المسلم لم يشعر بوحدة الثقافة فى داخل اقليمه الجغرافى ، بل أحس بها حيثما تنقل فى أنحاء العالم الاسلامى كما تدلنا على ذلك اعمال الرحالة المسلمين وآثارهم الأدبية التى دونوا فيها وقائع تلك الرحلات (٤) . وهذه النقطة بالذات تحتاج الى مزيد من الدراسة والمناقشة .

ثالثا : ان التعليم الطبى الاسلامى قد توافرت له عوامل النجاح ، من حيث اقبال الطلاب على العلم والتعليم ، وتفرغ الأساتذة لحسن اعدادهم نظريا وعمليا ، والعلاقة القوية التى كانت تربط الأستاذ بطلابه والتسهيلات العملية والحياتية التى كان يحظى بها الطلاب والأساتذة والحرية العلمية والأكاديمية التى تمتعوا بها ، وهى جميعا عوامل يفتقر اليها التعليم الطبى فى أغلب الدول الاسلامية المعاصرة . ان كثيرا من طلابنا لا تتوافر لهم عناصر الحياة الضرورية فضلا عن متطلبات الدراسة الأكاديمية من معامل ومراجع وتسهيلات مكتبية ودراسية ، وكثير من أساتذة الطب عندنا لا يجدون الوقت الكافى الذى يعطونه لطلابهم تعليما وتدريبا بسبب انشغالهم بعياداتهم الخاصة ، وسعيهم وراء الرزق حتى برزت الحاجة الى ضرورة تفرغ بعضهم لمزاولة « التعليم الطبى » (٥) .

رابعا : لقد كان الأطباء المسلمون على مستوى المسئولية الحضارية عندما نجحوا في تعريب التعليم الطبي ، وعندما أثروا اللغة العربية بالمصطلحات الطبية الجديدة ، والذى يطالع المؤلفات الطبية الاسلامية لا يمكن الا أن يشعر بالاحترام لهؤلاء الأساتذة الأجلاء . لقد احترموا لغتهم العربية واتقنوها ، وقدموا تعلمهم للعربية على سائر العلوم ، وبذلك كانوا قادرين على الترجمة والاقتباس والنحت والاشتقاق . وكانت من ورائهم حكومات مسلمة قد اتخذت « قرار التعريب » بدون تردد ، وبذلت في سبيله المال ، واعدت من أجله العدة من مترجمين ودور حكمة .. الخ . وشجعت العلماء على التعريب والتاليف بالعربية . ويقارن الباحث بين هذا العزم وتلك الارادة القوية وبين ما يبديه الجيل المعاصر : علماؤه وحكوماته من تردد في تعريب التعليم الطبي ، واعتماد على اللغات الأجنبية في التدريس والتاليف ، فيدرك الفارق الهائل بين علماء يحترمون لغتهم ولا يرضون باللحن فيها في مجالسهم العلمية ، وبين آخرين لا يكادون يحسنون النطق بها في محاضراتهم » (٦) فأنى لهم القدرة بعد ذلك علي التدريس أو التاليف بها ؟ . نعم ان قضية تعريب العلوم ومنها الطب ، من القضايا الهامة التى يثيرها المفكرون العرب كثيرا ، ويعقدون لها الندوات والحلقات على المستوى المحلى والقومى ، وتتعدد فيها الآراء . ولكن من الواضح أن تلك القضية لن تحسم الا بقرار سياسى على أعلى المستويات التشريعية في البلدان العربية ، مع انشاء مراكز رئيسية للتعريب والترجمة والنشر ، واصدار مجلات ومؤلفات علمية بالعربية لمتابعة حركة التطور العلمى العالمى ، ورصد الميزانيات الكافية لذلك (٧) . وما زالت تجربة المسلمين في هذا الموضوع تجربة تستحق الدراسة والتأمل .

خامسا : لقد استمد الأطباء المسلمون أخلاق مهنتهم من أخلاقيات الاسلام العامة ، وبذلك نجا الطب الاسلامى من كثير من مظاهر انحراف الطب الحديث . فقد نشرت ريدرز دايجست على سبيل المثال في عددها الصادر في فبراير عام ١٩٨٢ : « انه يمارس الطب في امريكا ٤٥٤٠٠٠ طبيب وانه من بين هؤلاء يوجد من ٢٠,٠٠٠ الى ٥٠,٠٠٠ طبيب يجب

الا يسمح لهم بمزاولة المهنة ، وذلك بسبب ادمانهم الخمر أو المخدرات ، او لاصابتهم بانحرافات جنسية أو اختلال فى تفكيرهم وقواهم العقلية . كذلك نشر الجراح جن كريل كتابا سجل فيه خبرته على مدى أكثر من اربعين عاما فى ميدان الطب ، سرد فيه سلسلة من الفضائح والمخازى التى ارتكبها الأطباء مع المرضى ، وكلها أمثلة لفساد الذمة وانعدام الضمير حتى أن بعض هؤلاء الأطباء كانوا يجرون كثيرا من الجراحات ومنها جراحات استئصال اللوز والزائدة الدودية وأكياس الثدى والأورام الليفية من الرحم من أجل ابتزاز أموال المرضى . وفى معظم الحالات يدخل الجراح فى روع المريض انه يعانى من مرض خطير وأنه لابد من الجراحة لانقاذ حياته . وينقاد المريض تحت تأثير الخوف من حدوث المضاعفات والأورام السرطانية فيقبل اجراء جراحة هى فى الواقع لا مبرر لها . وقد يحدث من هذه الجراحة مضاعفات تودى بحياته » (٨) .

سادسا : فى موجة حماسنا للتعليم الاسلامى قد يظن البعض أنه يكفى أن ندرس مادة « الطب الاسلامى » فى كليات الطب نتناول فيهما تعاليم الاسلام فى ميدان الطب والتراث الطبى الاسلامى ، والعلاج الاسلامى .. الخ (٩) ، أو أن نصوغ دستورا لمهنة الطب مستمدا من تراثنا التربوى الاسلامى ، يتناول صفة الطبيب ، وعلاقته بالمريض وواجباته ومسئولياته ... الخ (١٠) . ورغم أهمية مثل هذه الأمور ، الا أنها تعيد لنا « الروح الاسلامية » فى مؤسسات تعليمنا الطبى ، وفى مناهجه وممارساته . ان ما يحتاجه « التعليم الطبى » فى عالمنا الاسلامى أكثر من ذلك بكثير : أكثر من اضافة بعض الموضوعات الطبية الى مناهجه ، أو وضع دستور اسلامى لممارسته . انه يحتاج قبل ذلك كله ومعه الى الطالب المسلم الذى احسنا اعداده اسلاميا من البداية ، ويحتاج الى الأستاذ المسلم العارف بربه ، ويحتاج الى روح اسلامية جديدة تسرى فى تعليمنا الطبى افرادا ومناهج ومؤسسات فتعربه أولا بالكامل ، ثم تسير به السيرة المتميزة ، ان ابداع « طبيب اسلامى معاصر » ، تظلله آداب الاسلام وتعاليمه هى مسئولية هذا الجيل بدون شك ، وهذا الطب الاسلامى المعاصر هو القادر على أن يقدم للانسان المعاصر راحته النفسية

والفكرية ، وطبه الجسمانى والروحانى فى نفس الوقت . وفى ذلك يقول احد الباحثين : « ان الطب المعاصر مهما بلغ من التقدم العلمى والعملى ، ومهما انجز من وسائل هائلة فى ميادين البحث والوقاية والعلاج ، ومهما احرز من نتائج باهرة فى ميدان الرعاية الصحية فانه لم يضمن للانسان الراحة النفسية والفكرية التى لا زال يبحث عنها بين موجات الاثير وأمواج البشر . وان الطب المعاصر يشكو من نقائض خطيرة فى المفاهيم وفى السياسة وفى المناهج كما تحكم عنه شهادات اكبر الاختصاصيين فى الطب والاجتماع ، بينما نجد الاسلام طبقا لمبادئه العقيدية يعطى للانسان ولصحة الانسان معنى اشمل وأوسع وأعمق من المفاهيم التى سادت او تسود فى المجتمعات السالفة والمعاصرة . ويضيء للعلوم الطبية ولسياسة الصحة آفاقا خلقية وعملية على قدر ما يطمح اليه الانسان فى هذا العصر » (١١) . وقديما أكد ابن قيم الجوزية هذا المعنى عندما قارن بين « الطب الاسلامى » وغيره من انواع الطب فى عصره ، ورأى أن « الطب الاسلامى » اكمل الطب وأصحه وانفعه ووضح ذلك بقوله : « ولا يعرف هذا الا من عرف طب الناس سواهم وطبهم ثم قارن بينهما ، فحينئذ يظهر له التفاوت . وهم أصح الأمم عقولا وفطرا ، واعظمهم علما ، واقربهم فى كل شيء الى الحق ، لأنهم خيرة الله فى الامم كما أن رسولهم خيرته من الرسل ، والعلم الذى وهبهم اياه ، والحلم والحكمة أمر لا يدانيهم فيه غيرهم . وقد روى أحمد فى مسنده من حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنتم توفون سبعين أمة ، أنتم خيرها وأكرمها على الله ، » فظهر أثر كرامتها على الله سبحانه : فى علومهم وعقولهم وأحلامهم وفطرهم ، وهم الذين عرضت عليهم علوم الأمم قبلهم وعقولهم ، وأعمالهم ، ودرجاتهم ، فازدادوا بذلك علما وحلما ، وعقولا ، الى ما افاض الله سبحانه وتعالى عليهم من علمه وحلمه (١٢) .

مراجــع خاتمــة البحث

(١) ظهير الدين البيهقى : « **تاريخ حكماء الاسلام** » ، مرجع سابق، ص ١٠٣ ، ص ١٠٤ .

(٢) قارن ذلك بآثار العلم عندما يكون مشبعا بالدافع المادى العلمانى فى :

— Seyyed Hossein Nasr : **Man And Nature, The Spiritual Crisis of Modern Man,** Amandala Books, Unwin LTD, 1976.

— J. Bronowski : **Science and Human Values,** Harper Torch Books, New York, 1965.

(٣) راجع أسباب تلك الغربة وجذورها وأهم مظاهرها فى :

— Kalim Siddiqui : **Functions of International Conflict, Asocio- Economic study of Pakistan,** Royal Books Company, Karachi, 1975, PP. 7-37.

(٤) انظر مثلا : **رحلة ابن بطوطة** ، **ورحلة ابن جبير** ، ودراسة زكى محمد حسن ، **الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى** ، دار المعــارف ، مصر ، ١٩٤٥ م .

(٥) عز الدين شكاره « نظرات فى تفرغ أساتذة الطب » « **مهرجان أسبوع العلم الثانى عشر** ، الكتاب الثالث ، المجلس الأعلى للعلــوم ، الجمهورية العربية السورية ، ١٩٧١ ، ص ٨٨ — ص ٩٣ .

(٦) عبد الكريم خليفــــة : « تأهيل أعضاء هيئة التدريس للتدريس بالعربية » **مجلة مجمع اللغة العربيـــة الأردنى** ، العدد المزدوج ٧ ، ٨ ، السنة الثالثة ، ١٩٨٠ ، ص ٥ — ص ٣١ .

(٧) انظر فى ذلك :

مجمع اللغة العربية الأردنى ، العدد الأول ، السنة الأولى ، ١٩٧٨ ، والثالث والرابع ، السنة الثانية ، ١٩٧٩ ، والسابع والثامن ، السنة

الثالثة ، ١٩٨٠ ، **مهرجان اسبوع العلم السابع عشر** ، المجلس الأعلى للعلوم ، الجمهورية العربية السورية ، ١٩٧٧ ، وعزة مريدن : **تعليم الطب باللغة العربية** ، مطبعة جامعة القاهرة ، ١٩٥٨ .

(٨) محمود أحمد نجيب : **الطب الاسلامى شفاء بالهدى القرآنى** ، مرجع سابق ، ص ٧٠ ، ص ٧١ .

(٩) انظر تفصيل هـذا المنهج المقترح فى :

أحمد شوقى الفنجرى : « الطبيب الاسلامى منهج دراسته فى كليات الطب ؛ مشروع تدريس مادة الطب فى كليات الطب ، **ابحاث واعمال المؤتمر العالمى الثانى عن الطب الاسلامى** ، مرجع سابق ، ص ٨٠٣ — ص ٨٠٧ .

(١٠) انظر فى ذلك :

وثيقة الكويت : « الدستور الاسلامى للمهنة الطبية » ، اعداد المنظمة العالمية للطب الاسلامى ، ص ٦٨١ ، ص ٧٠٠ ، محمود ناظم النسيمى : « قواعد وآداب مزاولة الطب الاسلامى فى التراث الاسلامى » ص ٦١٨ — ص ٦٢٢ ، محمد الطيب بسيسى : قواعد وآداب مزاولة مهنة الطب الاسلامى ، كما وردت فى التراث الطبى الاسلامى ، ص ٦٢٣ — ص ٦٢٧ ، **اعمال المؤتمر العالمى الأول عن الطب الاسلامى** ، مرجع سابق .

(١١) أحمد عروة : « آفاق اسلامية لفلسفة وسياسة الصحة » ، **اعمال المؤتمر العالمى الثانى عن الطب الاسلامى** ، مرجع سابق ، ص ٩١٦ .

(١٢) ابن قيم الجوزية : **الطب النبوى** ، مرجع سابق ، ص ٣٢٥ .



ملحق رقـــم (١) *

الدخل العـام للطبيب جبرائيل بن بختيشوع طبيب الرشيد

أقول : وكانت مدة خدمة جبرائيل بن بختيشوع للرشيد منذ خدمه والى أن توفى الرشـيد ثلاثا وعشرين سنة . ووجد فى خزانة بختيشوع ابن جبرائيل مدرج فيه عمـل بخط كاتب جبرائيل بن بختيشوع الكبير ، واصطلاحات بخط جبرائيل لما صار اليه فى خدمته الرشيد يذكر أن رزقه كان من رسم العامة : فى كل شهر من الورق عشرة آلاف درهم ، يكون فى السنة مائة وعشرين الف درهم ، فى مدة ثلاث وعشرين سنة الف الف وستمائة وستين الفـا ، ونزله فى الشـهر خمسة آلاف درهم ، يكون فى السنة ستين الف درهم ، فى مدة ثلاث وعشرين سنة الف الف وثلاثمائة وثمانين الف درهم . ومن رسم الخاصة فى المحرم من كل سنة : من الورق خمســون الف درهم يكون فى مدة ثلاث وعشرين سـنة الف الف ومائة وخمسين الف درهم . ومن الثابت : خمسون الف درهم ، يكون فى مدة ثلاث وعشرين سنة الف الف ومائة وخمسين الف درهم .

تفصيل ذلك : القصب الخاص الطرازى عشرون شـقة . الملحم الطرازى عشرون شقة . الخز المنصورى عشر شقاق . الخز المبسوط عشر شقاق . الوشى اليمانى ثلاثة أثواب . الوشى النصيبى ثلاثة أثواب . الطيالسة ثلاثة طيالس . ومن السـمور (١) والفنـك (٢) والقماقم (٣) والدلق (٤) والسنجاب (٥) للقبطين (٦) .

وكان يدفع اليـه فى مدخل صوم النصارى فى كل سنة من الورق خمسون الف درهم ، يكون فى مدة ثلاثة وعشرين الف الف ومائة وخمسين الف درهم . وفى يوم الشعانين من كل سنة ثياب من وشى وقصب وملحم

---

* نقلا عن ابن اصيبعة : **عيون الأنباء فى طبقات الأطباء** ، مرجع سابق ، ص ١٩٨ — ص ٢٠٠ ، الملحق يعطى صورة عن المستوى المعيشي المرتفع الذى عاشه الأطباء ، وخصوصا المشاهير منهم .

وغيره بقيمة عشرة آلاف درهم ، يكون فى مدة ثلاث وعشرين سنة ، مائتى الف وثلاثين الفا ، وفى يوم الفطر فى كل سنة من الورق : خمسون الف درهم ، يكون فى مدة ثلاث وعشرين سنة : الف الف ومائة وخمسين الف درهم ، وثيـــاب بقيمة عشرة آلاف درهم ، على الحكاية ، يكون فى مدة ثلاث وعشرين سنة : مائتى الف وثلاثين الف درهم .

ولفصد الرشيد : دفعتان فى السنة كل دفعة خمسون الف درهم من الورق ، مائة الف درهم يكون فى مدة ثلاث وعشرين سنة ، الف الف وثلاثمائة الف درهم .

ولشراب الدواء دفعتان فى السنة ، كل دفعة خمسون الف درهم ويكون فى مدة ثلاث وعشرين سنة الف الف وثلاثمائة الف درهم .

ومن أصحاب الرشيد ، على ما فصل منه مع ما فيه من قيمة الكسوة وثمن الطيب والدواب ، وهو : مائة الف درهم من الورق ، فيكون اربعمائة الف درهم ، يكون فى مدة ثلاث وعشرين ســـنة تسعة آلاف ومائتى الف درهم ، تفصيل ذلك : عيسى بن جعفر خمسون الف درهم ، زبيدة ام جعفر خمسون الف درهم ، العباسة (٧) خمسون الف درهم ، ابراهيم بن عثمان ثلاثون الف درهم ، الفضل بن الربيع (٨) خمسون الف درهم ، فاطمـــة أم محمد سبعون الف درهم ، كسوة وطيب ودواب : مائة الف درهم .

ومن غلة ضياعه بجند يســـابور والسوس والبصرة والســـواد فى كل سنة قيمته ، بعد المقاطعة ، ورقا ثمانى مائة الف درهم ، يكون فى مدة ثلاث وعشرين سنة ثمانية عشر الف الف ومائة الف درهم .

وكان يصير اليه من البرامكة فى كل سنة من الورق الفا الف وأربعمائة الف درهم ، وتفصـــيل ذلك : يحيى (٩) بن خالد ستمائة الف درهم ، جعفر بن يحيى الوزير الف الف ومائتا الف درهم ، الفضل (١٠) بن يحيى ستمائة الف درهم ، يكون فى مدة ثلاث عشرة سنة : احدا وثلاثين الف الف ومائتى الف درهم .

يكون جميع ذلك مدة أيام خدمته للرشـــيد ، وهى ثلاث وعشرون سنة ، وخدمته للبرامكة وهى ثلاث عشرة سنة ، سوى الصلات الجسام فانها لم تذكر فى هذا المدرج من الورق ثمانية وثمانين الف درهم ، وثمانمائة الف درهم : ثلاثة آلاف الف واربعمائة الف درهم .

التذكرة : الخراج من ذلك ومن الصـــلات التى لم تذكر فى النفقات وغيرها على ما تضمنه المدرج المعمول من العين : تسعمائة الف دينـــار ومن الورق : تسعون الف الف وستمائة الف درهم .

تفصيل ذلك ، ما صرفه فى نفقـــاته وكانت فى السنة : الفى الف ومائتى الف درهم على التقريب . وجملتها فى السنين المذكورة ســـبعة وعشرون الف الف درهم وســـتمائة الف درهم . ثمن دور وبســـاتين ومنتزهات ورقيق ودواب والجمازات سبعون الف الف درهم ، ثمن آلات واجر وصناعات وما يجرى هذا المجرى ثمانية آلاف الف درهم . ما صار فى ثمن ضـــياع ابتاعها لخاصته اثنا عشر الف الف درهم . ثمن جواهر وما اعده للذخائر عن قيمة خمسمائة الف دينار خمسون الف الف درهم . ما صرفه فى البر والصلات والمعروف والصـــدقات ، وما بذل به حظـــه فى الكفالات لأصحاب المصادرات ، فى هذه السنين المقدم ذكرها ثلاثة آلاف الف درهم . ما كابره (١١) عليه اصـــحاب الودائع وجحدوه ثلاثة آلاف الف درهم . ثم وصى بعد ذلك كله عند وفاته الى المامون لابنه بختيشوع ، وجعل المامون الوصى فيها فسلمها اليه ، ولم يعترض فى شىء منها عليه بتسعمائة الف دينار .

حواشى الملحق رقم (١) :

(١) نوع من الفراء يتخذ من جلد السمور وهو حيوان يرى لونه أحمر مائل الى السواد . وقد أطلق على جلده اسمه .

(٢) فراء أيضا من جلد الحيوان المسمى الفنك وهو من جنس الثعالب وفروته من أحسن الفراء .

(٣) صغار القردان . ويقصد هنا بجلودها .

(٤) حيوان يقرب من السمور وهو أصفر اللون وبطنه وعنقه مائلان الى البياض ، ويراد هنا فراؤه .

(٥) فراء حيوان أكبر من الجرذ له ذنب طويل كثيف الشعر ، لونه أزرق رمادى ومن اللون السنجابى .

(٦) أظن أنها أم جعفر البرمكى زوجة يحيى بن خالد .

(٧) بنت المهدى وأخت هارون الرشيد . وذهب المؤرخون والشعراء مذاهبهم فى الكلام عن علاقتها بجعفر البرمكى وأنها كانت سبب نكبتهم .

(٨) وزير الأمين فيما بعـد ، حسد البرامكة ودس الدسائس عليهم ورمى البغضاء بين الأمين والمأمون . (ن . ر) .

(٩) والد جعفر البرمكى ومؤدب هارون الرشيد ومستشاره .

(١٠) تولى الحكم من قبل هارون الرشيد على جرجان وطبرستان والرى وخراسان . ومات سجينا ، فى الرقة بعد نكبة البرامكة . (ن . ر) .

(١١) عانده وغالبـه .

ملحق رقـــم (٢) *

ثبت باعداد الأطبـــاء الذين ترجم لهم ابن أصيبعة منذ أول ظهور الاسلام واختلاف أقاليمهم

العصر والأقاليم والجنس	العدد
١ ـ طبقات الأطباء الذين كانوا فى أول ظهور الاســلام	١٥
٢ ـ طبقات الأطباء السريانيين الذين كانوا ابتــداء ظهور دولة بنى العبـــاس	٣٨
٣ ـ طبقات الأطباء النقلة الذين نقلوا كتب الطب من اللســان اليونانى الى اللســان العــربى	٤٧
٤ ـ طبقات الأطباء العراقيين وأطباء الجزيرة وديار بكر	٨٣
٥ ـ طبقات الأطباء الذين ظهروا فى بلاد العجم	٢٤
٦ ـ طبقات الأطباء الذين ظهروا فى بلاد المغرب وأقاموا بها	٨٥
٧ ـ طبقات الأطباء المشهورين من أطباء ديار مصر	٥٨
٨ ـ طبقات الأطباء المشهورين من أطباء الشام	٥٩
٩ ـ طبقات الأطباء الذين كانوا من الهنـد	٦

* **عيون الأنباء فى طبقات الأطباء** ، مرجع سابق ص ١٦١ ـ ص ٧٦٨ ، وسنلاحظ هنا تعدد مراكز التعليم الطبى فى أنحاء العالم الاسلامى ، وكثرة عدد الأطباء المشهورين ، حيث لم يترجم ابن أصيبعة الا لذوى الفعاليات الطبية ، والدليل على ذلك أن عضد الدولة بعد انشاء البيمارستان فى بغداد طلب مشاهير أطباء بغداد فذكروا له أسماء مائة طبيب فى بغداد وحدها ، ص ٤١٥ ، والمقتدر عندما أمر بامتحان الأطباء الممارسين تقدم للامتحان أكثر من ثمانمائة وستين طبيبا بسوى من اشــتهر بالطب ولم يمتحن ، ص ٣٠٢ ، نفس المرجع .

ملحق رقم (٣) *

التصور الاسلامى للمعرفة

وقد احتوى القرآن ايضا على علوم الأوائل : من الطب والجدل والهيئة والهندسة والجبر والمقابلة والنجامة وغير ذلك .

اما الطب ، فمداره على حفظ الصحة واستحكام القوة واعتدالها ، اورد الصحة بعد اختلالها ، وحدوث الشفاء بعد اعتلالها ، واشار الى الأول بقوله تعالى : ((**وكان بين ذلك قواما**)) (سورة الفرقان : الآية ٦٧) ، وبقوله تعالى : ((**وكلوا واشربوا ولا تسرفوا**)) (سورة الأعراف : الآية ٣١) ، والى الثانى بقوله تعالى : ((**شراب مختلف الوانه فيه شفاء للناس**)) (سورة النحل : الآية ٦٩) .

واما الهيئة ففى آيات ذكر فيها ملكوت السموات والأرض ، وما بث فى العالم العلوى والسفلى من مخلوقات ، واحوال الشمس والقمر ، مثل قوله تعالى : ((**فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة**)) (سورة الاسراء : الآية ١٢) ، وقوله تعالى : ((**لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر**)) (سورة يس : الآية ٤٠) ، وقوله تعالى : ((**برب المشارق والمغارب**)) (سورة المعارج : الآية ٤٠) ، الى غير ذلك ، بحيث لو احصى لوجد جميع اصول الهيئة وزيادة عليها .

واما الهندسة ، ففى قوله تعالى : ((**انطلقوا الى ظل ذى ثلاث شعب**)) (سورة المرسلات : الآية ٣٠) .

واما الجدل ، فقد حوت آياته من البراهين والمقدمات والنتائج

---

* نقلا عن طاش كبرى زادة : **مفتاح السعادة ومصباح السيادة فى موضوعات العلوم** ، مرجع سابق ، ص ٥٣٣ — ص ٥٣٦ ، فبعد أن تحدث عن علوم اللغة وعلوم القرآن ، بدأ الحديث عن علوم الأوائل التى هى أيضا مذكورة فى القرآن .

والقول بالموجب والمعارضة ، وغير ذلك ، شيئا كثيرا . ومناظرة ابراهيم نمرود ، ومحاجة قومه ، أصل فى ذلك .

وأما الجبر والمقابلة ، فقد قيل ان أوائل السور فيها ذكر مدد وأعوام وأيام لتواريخ أمم سالفة وان فيها بقاء هذه الأمة ، وتاريخ مدة الدنيا ، وما مضى وما بقى ، مضروب بعضها فى بعض .

وأما النجامة ، ففى قوله تعالى : ((**أو اثارة من علم**)) (سورة الأحقاف : الآية ٤) ، فقد فسره بذلك ابن عباس . وفيه أيضا أصول الصنائع وأسماء الآلات التى تدعو الضرورة اليها ، كالخياطة فى قوله تعالى : ((**وطفقا يخصفان**)) (سورة الأعراف : الآية ٢٢) .

والحدادة : ((**آتونى زبر الحديد**)) (سورة الكهف : الآية ٩٦) ((**وألنا له الحديد ..**)) الآية .

والبناء فى عدة آيات .

والنجارة : ((**واصنع الفلك باعيننا**)) (سورة هود : الآية ٧٣) .

والغزل : ((**نقضت غزلها**)) (سورة النحل : الآية ٩٢) .

والنسيج : ((**كمثل العنكبوت اتخذت بيتا**)) (سورة العنكبوت : الآية ٤١) .

والفلاحة : ((**أفرأيتم ما تحرثون ..**)) (سورة الواقعة : الآية ٦٣) .

والصيد : فى عدة آيات .

والغوص : ((**كل بناء وغواص**)) (سورة ص : الآية ٣٧) ، و ((**تستخرجوا منه حلية**)) (سورة النحل : الآية ١٤) .

والصياغة : ((**واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسدا**)) (سورة الأعراف : الآية ١٤٨) .

الزجاجة : ((**صرح ممرد من قوارير**)) (سورة النمل : الآية ٤٤) ، ((**المصباح فى زجاجة**)) (سورة النور : الآية ٣٥) .

والفخارة : ((فأوقد لى يا هامان على الطين)) (سورة القصص : الآية ٣٨) .

والملاحة : ((أما السفينة ..)) (سورة الكهف : الآية ٧٩) .

والكتابة : ((علم بالقلم)) (سورة العلق : الآية ٤) .

والخبز : ((احمل فوق رأسى خبزا)) (سورة يوسف : الآية ٣٦) .

والطبخ : ((بعجل حنيذ)) (سورة هود : الآية ٦٩) .

والغسل والقصارة : ((وثيابك فطهر)) (سورة المدثر : الآية ٤) . قال الحواريون وهم القصارون .

والجزارة : ((الا ما ذكيتم)) (سورة المائدة : الآية ٣) .

والبيع والشراء فى آيات .

والصبغ : ((صبغة الله)) (سورة البقرة : الآية ١٣٨) ، ((جدد بيض وحمر)) (سورة فاطر : الآية ٢٧) .

والحجارة : ((وتنحتون من الجبال بيوتا)) (سورة الشعراء : الآية ١٤٩) .

والكيالة والوزن فى آيات .

والرمى : ((وما رميت اذ رميت)) (سورة الأنفال : الآية ١٧) ، ((وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة)) (سورة الأنفال : الآية ٦٠) .

وفيه من أسماء الآلات وضروب المأكولات والمشروبات والمنكوحات وجميع ما وقع أو يقع فى الكائنات ، وما يحقق معنى قوله تعالى : ((ما فرطنا فى الكتاب من شىء)) (سورة الأنعام : الآية ٣٨) .

ملحق رقـــم (٤) *

الطبيب الحاذق صفاته وكيفية ممارسته للمهنة

(فصل) والطبيب الحاذق هو : الذى يراعى فى علاجه عشرين أمرا :

أحدها : النظر فى نوع المرض : من أى الأمراض هو ؟.

الثـانى : النظر فى سببه : من أى شىء حدث ؟ والعـلة الفاعلة التى كانت سبب حدوثه ، ما هى ؟.

الثالث : قوة المريض ، وهل هى مقاومة للمرض ، أو أضعف منه ؟ فان كانت مقاومة المرض مستظهرة عليـــه : تركها والمرض ، ولم يحرك بالدواء ساكنا .

الرابع : مزاج البدن الطبيعى ما هو ؟.

الخامس : المزاج الحادث على غير المجرى الطبيعى .

السادس : سن المـريض .

السابع : عادته .

الثـامن : الوقت الحاضر من فصول السنة ، وما يليق به .

التاسع : بلد المريض وتربتـــه .

العاشر : حال الهواء فى وقت المرض .

الحادى عشر : النظر فى الدواء المضاد لتلك العـــلة .

الثانى عشر : النظر فى قوة الدواء ودرجته ، والموازنة بينها وبين قوة المـريض .

الثالث عشر : أن لا يكون كل قصده ازالة تلك العلة فقط ، بل ازالتها على وجه يأمن معه حدوث أصعب منها . فمتى كان ازالتها لا يؤمن معها حدوث علة أخرى أصعب منها : أبقاها على حالها ، وتلطيفها هو الواجب .

---

* نقلا عن : ابن قيم الجوزية : **الطب النبوى** ، مرجع سابق ، ص ١١٢ – ص ١١٥ .

وهذا كمرض أفواه العروق ، فانه متى عولج بقطعة وحبسه ، خيف حدوث ما هو أصعب منـــه .

الرابع عشر : أن يعالج بالاسهل فالاسهل ، فلا ينتقل من العـــلاج بالغـــذاء الى الدواء ، الا عند تعـــذره ، ولا ينتقل الى الدواء المركب ، الا عند تعـــذر الدواء البسيط ، فمن سعادة الطبيب : علاجه بالأغذية بدل الأدوية ، وبالأدوية البسيطة بدل المركبة .

الخامس عشر : أن ينظر فى العلة : هل هى مما يمكن علاجهـــا ، أولا ؟ فان لم يمكن علاجهـــا : حفظ صناعته وحرمته ، ولا يحمله الطمع علي علاج لا يفيد شيئا .

وان أمكن علاجهـــا : نظر : هل يمكن زوالهـــا ، أم لا ؟ فان علم انه لا يمكن زوالها ، فهـــل يمكن تخفيفها وتقليلها ، أم لا ؟ فان لم يمكن تقليلها ، ورأى أن غاية الإمكان قطع زيادتها — قصد بالعـــلاج ذلك ، وأعان القوة ، وأضعف المـــادة .

السادس عشر : أن لا يتعرض للخلط قبـــل نضـــجه باستفراغ ، بل يقصد انضاجه ، فاذا تم نضجه ، بادر الى استفراغه .

السابع عشر : أن يكون له خبرة باعتلال القلوب والأرواح وأدويتها وذلك أصل عظيم فى علاج الأبدان ، فان انفعال البدن وطبيعته عن النفس والقلب أمر مشـــهود . والطبيب اذا كان عارفا بامراض القلب والروح وعلاجهما ، كان هو الطبيب الكامل ، والذى لا خبرة له بذلك — وان كان حاذقا فى عـــلاج الطبيعة وأحوال البـــدن — نصف طبيب . وكل طبيب لا يداوى العليل : يتفقد قلبه وصلاحه ، وتقوية أرواحه وقواه بالصدقة وفعل الخير والاحســان ، والاقبـــال على الله ، والدار الآخرة — فليس بطبيب ، بل متطبب ، قاصر ، ومن أعظم علاجات المرض ، فعـــل الخير والاحســان ، والذكر والدعاء ، والتضرع بالابتهال الى الله ، والتوبة . ولهـــذه الأمور تأثير فى دفع العلل وحصول الشفاء ، أعظم من الأدوية الطبيعية ، ولكن : بحسب استعداد النفس وقبولها ، وعقيدتها فى ذلك .

الثامن عشر : التلطف بالمريض والرفق به ، كالتلطف بالصبى .

التاسع عشر : أن يستعمل أنواع العلاجات الطبيعيــة والإلهيــة والعلاج بالتخييل . فان لحذاق الأطباء فى التخييل أمورا عجيبة لا يصل اليها الدواء . فالطبيب الحاذق يستعين على المرض بكل معين .

العشرون : وهو ملاك أمر الطبيب — أن يجعــل علاجه وتدبيره دائرا من ستة أركان : حفظ الصحة الموجودة ، ورد الصحة المفقودة ، بحسب الامكان ، وازالة العلة وتقليلها بحسب الامكان ، واحتمال أدنى المفسدتين لازالة أعظمهما ، وتفويت أدنى المصلحتين لتحصيل أعظمهما ، فعلى هذه الأصول الستة مدار العلاج . وكل طبيب لا تكون هذه أخيته (١) التى يرجع اليها فليس بطبيب . والله أعلم .

(**فصــل**) ولما كان للمرض اربعة احوال : ابتداء وصعود وانتهاء وانحطاط . تعين على الطبيب مراعاة كل حال من احوال المرض بما يناسبها ويليق بها . ويستعمل فى كل حال ما يجب استعماله فيها فاذا رأى فى ابتداء المرض أن الطبيعة محتاجة الى ما يحرك الفضلات ويستفرغها لنضجها ، بادر اليه . فان فاته تحريك الطبيعة فى ابتداء المرض — لعائق منع من ذلك ، أو لضعف القوة وعدم احتمالها للاستفراغ ، أو لبرودة الفصل ، أو لتفريط وقع — فينبغى ان يحذر كل الحــذر أن يفعــل ذلك فى صعود المرض ، لأنه ان فعله : تحيرت الطبيعة لاشتغالها بالدواء ، وتخلت عن تدبير المرض ومقاومته بالكلية ومثاله : أن يجىء الى فارس مشغول بمواقعة عدوه ، فيشغله عنه بأمر آخر . ولكن الواجب فى هذه الحال : أن يعين الطبيعة على حفظ القوة ما أمكنه .

فاذا انتهى المرض ووقف وسكن ، أخــذ فى استفراغه واستئصال اسبابه ، فاذا أخذ فى الانحطاط كان أولى بذلك . ومثال هذا مثل العدو اذا انتهت قوته ، وفرغ سلاحه ، كان أخذه سهلا ، فاذا ولى وأخــذ

---

(١) الأخية بزنة أبية : الحرمة والذمة . وهى أيضا مشهورة فيما تربط فيه الدابة . وارادة الأول أظهر . بل هو المتعين .

فى الهرب ، كان اسهل اخذا ، وحدته وشوكته انما هى فى ابتدائه ، وحال استفراغه ، وسعة قوته . فهكذا الداء والدواء سواء .

(**فصـــل**) ومن حـــذق الطبيب : أنه حيث امكن التدبير بالأسهل فلا يعدل الى الأصعب ، ويتدرج من الأضعف الى الأقوى . الا أن يخاف فوت القوة حينئــذ : فيجب أن يبتدىء بالأقوى . ولا يقيم فى المعالجة على حال واحدة : فتألفها الطبيعة ويقل انفعالها عنه ، فلا تجسر على الأدوية القوية فى الفصول القوية . وقد تقـــدم أنه اذا أمكنه العــلاج بالغذاء ، فلا يعالج بالدواء . واذا أشكل عليه المرض : أحار هو ؟ أم بارد ؟ فلا يقدم حتى يتبين له ، ولا يجربه بما يخاف عاقبته . ولا بأس بتجربته بما لا يضر أثره .

واذا اجتمعت امراض : بدأ بما تخصه واحدة من ثلاث خصال :

احداها : ان يكون برء الآخر ، موقوفا على برئه ، كالورم والقرحة ، فانه يبدأ بالورم .

الثانيـــة : ان يكون أحدهما سببا للآخر ، كالسدة والحمى العفنة ، فانه يبدأ بازالة السبب .

الثالثـــة : ان يكون أحدهما اهم من الآخر ، كالحاد والمزمن ، فيبدأ بالحاد ، ومع هذا فلا يغفل عن الآخر .

واذا اجتمع المرض والعرض ، بدأ بالمرض ، الا أن يكون العرض أقوى كالقولنج ، فيسكن الوجع أولا ، ثم يعالج الســدة ، واذا أمكنه أن يعتاض عن المعالجة بالاستفراغ ، بالجوع أو الصـــوم أو النـــوم ، لم يستفرغه ، وكل صحة أراد حفظها ، حفظها بالمثل أو الشبه وإن أراد نقلها الى ما هو افضل منها ، نقلها بالضد .

المحتويات

الموضـــــوع | الصفحة

صواب السطر ١٥ صفحة ٩٦ هكذا :

الصبى ممكنة له مواتية ، لكن ما شاكل طبعـــه وناسبه ، وانه لو كانت

رقم الايداع بدار الكتب : ١٩٨٤/٤٨١٤
الترقيم الدولى : ٣ — ١٢١٠ — ١٠ — ٩٧٧

